

الفكر النقدي والأدبي في
القرن الرابع الهجري



تأليف

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

الناشر

رابطة الأدب الحديث



mustafa kurmed
5 11 2010

الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجي

الفكر النقدي والآدبي

في القرن الرابع الهجري

رابطة الآدب بالحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير . .

تصدير

- ١ -

كان القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - عصر الحضارة الإسلامية حقاً ، وعصر ازدهار الثقافة والمعرفة والعلوم والآداب العربية صدقاً ، كانت الخلافة الإسلامية في بغداد تهيمن بنفوذها الروحي على العالم الإسلامي ، وإن كانت في حالة ضعف شديد ، وإن كان أمراء الأقاليم قد استقلوا بها ، وعدوا أنفسهم حكاماً لهم ما خلفاء بغداد من النفوذ والسلطان كان يرميه حكام فارس والري وأصبهان والجليل قد عظم نفوذهم ، وطمعوا في الخلافة ، فدخلوا بغداد فاتحين عام ٣٣٤ هـ ، وأخذوا لأنفسهم ما كان للخلفاء من سلطان ، وأبقوا على الخليفة العباسي رمزاً لا حول له ولا طول .

وكانت خراسان في يدي نصر بن أحمد الساساني ، وواسط والبصرة في أيدي البريديين ، والنجاة والبحرين في يدي أبي طاهر القرمطي ، وطبرستان وجرجان في أيدي الديلم ، وكانت كرمان في يدي محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مصر في أيدي بني حمدان ، ومصر والشام تحت سلطان محمد بن طنج الإخشيدى ، والمغرب وإفريقية ثم مصر منذ عام ٣٥٨ هـ تحت حكم الفاطميين ، والاندلس في يدي عبد الرحمن الناصر الأموي ثم ابنه الحكم . وبقي في يدي الخليفة العباسي بغداد وأعمالها (١) .

وكانت غارات يرزطة على الثغور الإسلامية لا تكاد تنقطع ، والحروب مستمرة بين الإخشيديين والحمدانيين والفاطميين وبين الروم .

وفي بغداد تولى الخلافة : المقتدر ، ثم القاهر ، ثم الراضى (٢٢٢ - ٥٣٢٩ هـ ، ٩٣٣ - ٩٤٠ م) ثم المتقى ، ثم المستكنى ، الذى دخل فى أيامه بنوبويه بغداد عام ٩٤٥/٥٣٣٤ م ، ثم للطيع ، ثم الطائع ، والقادر .

ولما دخل معز الدولة البويهى بغداد صار حاكما المطلق ، وصارت بيده جميع أمور الخلافة ، وظل يحكم دولة الخلافة ستين طوالا (٣٢٤ - ٥٢٥٦ هـ : ٩٤٥ - ٩٦٧ م) ، ثم خلفه عز الدولة (٣٥٦ - ٥٣٦٧ هـ : ٩٦٧ - ٩٧٧ م) ، ثم عضد الدولة (٣٦٧ - ٥٣٧٢ هـ : ٩٧٧ - ٩٨٢ م) ثم شرف الدولة (٣٧٢ - ٥٣٧٩ هـ) ، وبهاء الدولة (٣٧٩ - ٥٣٠٣ هـ) . واشتهر من وزراء بني بويه : ابن العميد (٥٣٦٠ هـ) ، والصاحب بن عباد (١) (٢٢٦ - ٥٣٨٥ هـ) ، والوزير المهلبى ، وغيرهم ، وكان للأدب دولة ، وللأدباء جاه ، على أيدي هؤلاء الوزراء .

- ٢ -

وقد صار للعلم والثقافة فى هذا العصر ، وعلى الرغم مما أصاب العالم الإسلامى فيه من اضطراب ، سوق رانحة رابحة ، وكثر العلماء ، وعلت مكانتهم ، وازدادت ثقة الجماهير بهم ، وصاروا مرجع الناس فى شتى أمور الدين والدنيا . وأمور اللغة والأدب والشعر . . وعمت المكتبات الزاخرة بمختلف الكتب فى كل من القصور والدور ، وفى المساجد ، وفى المدارس والمعاهد والجامعات ، وفى كل مكان ، يستفيد منها العلماء والطلاب وجماهير الناس .

وانتشرت المدارس والمعاهد والجامعات فى أنحاء العالم الإسلامى ، فهناك المسجد الحرام والمسجد النبوى ، وهما جامعتان كبيرتان يلوذ بهما الناس من

(١) معجم الأدباء لياقوت ٢/٢٧٣ وما بعدها .

مختلف بلاد الدنيا ، وهناك مسجد البصرة الجامع ومسجد الكوفة الجامع ،
والمسجد الأموي بدمشق ، وجامع الزيتونة ، وجامع عقبة بالقيروان .
والمسجد الجامع بقرطبة : والجامع الأزهر بالقاهرة ، وجامع القسطنطين
بمصر ، وهو المسجد الجامع وقد أحصى المقدس فيه في وقت العشاء مائة
وعشرة مجلساً من مجالس العلم (١) ، وكان جامع المنصور ببغداد ، وهو
أقدم المساجد في دار السلام مركزاً كبيراً من مراكز العلم والتعليم
وكان كبار العلماء يجلسون في حلقاته ، يفيدون طلابهم ، ويرشدون الناس ،
ويعلمون الشباب .

ومع الضعف السياسي الذي ألم بالعالم الإسلامي في هذا القرن ، فإن
الثقافة والعلم قد ازدهرا ازدهاراً كبيراً ، لأن كل أمير في إقليم صار حاكماً
له ، وشرع يتنافس ببغداد في رعاية العلماء ، والاتفاق على دور العلم وطلابها
وتشجيع الآداب والفنون ، وقد زاد من خطر النهضة العلمية في هذا القرن
ومن علو شأنها أن الحركة الثقافية بدأت توثق أكلها ، وبدأ الناس يهتمون
بأمرها عناية تامة ، كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم . وفقيرهم ، صعلوكهم ووزيرهم
وأمرهم ، ثم كانت كذلك حركة ترجمة العلوم والآداب من مختلف اللغات
إلى اللغة العربية ، قد بدأت تظهر نتائجها الخطيرة في هذا القرن ، فازدهرت النهضة
العلمية ، وأثيرت قضايا الفكر والآداب واللغة ، وعلا صوت العلماء في
كل مكان .

وحدث ولا حرج عن دور الكتب التي انتشرت في كل مكان ،
وضخامتها وضخامة ما كانت تحتوى عليه من نفائس المخطوطات في كل مدينة .
وكل عاصمة إسلامية ويروى أن صاحب بن عباد الوزير كان في أسفاره وتنقلاته
يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالع فيها ، ولما وصل إليه

كتاب الأغاني لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناء به عنها (١).

وكان لسيف الدولة الحمداني مجلس يحضره العلماء كل ليلة ، فيتكمون بحضرته (٢) ، ويقول الثعالبي إن حضرته - عاصمته حلب - كانت مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء وحلبة الشعراء ، ويقال : إنه لم يجتمع يباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع يبابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر .

وقد زين محمود الغزنوي عاصمة ملوكه بالمدارس والجامعات ، وجعلها محط رحال العلماء والأدباء والشعراء ، وفي كنفه عاش البيروني والفردوسي صاحب الشاهنامة الفارسية ، وقد قدم الفردوسي الشاهنامة له فكافأه بستين ألف مثقال من الفضة بعدد أبياتهما ، وكان قد وعده أن يعطيه على كل بيت مثقالا من ذهب . ويعصف العتيبي جامع غزنة الذي بناه السلطان محمود الغزنوي والمدرسة التي ألحقت به وقصور الأمراء والوزراء المحيطة به وصفا شائعا (٣) .

وحدث عما بلغته عواصم العالم الإسلامي من حضارة ورفاه وترقى في هذا القرن - الرابع - مما لا تكاد تصدقه ، لولا أن ذلك مما أكدته المؤرخون . وبجسبك قرطبة والقيروان . والقاهرة والفسطاط ودمشق وبغداد . والرى وأصفهان وشيراز وسواها .

وكانت مكتبة ابن العميد كبيرة . فيها من كل علم وكل نوع من أنواع الحكم

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٧٥ .

(٢) المرجع السابق ٥٢/١ .

(٣) راجع الجزء الأول من كتاب العتيبي ص ٥٢ و ٥٣ طبع القاهرة ، وهو مطبوع على هامش شرحه المسمى « الفتح الوهبي على تاريخ العتيبي » .

والآداب ، وكان مسكويه المؤرخ خازناً عليها (١) . وكان للعرب في الأندلس سبعون مكتبة عامة ، وقد روى أن الخليفة الأموي الحكم (٣٥٠ - ٤٣٦) كان في مكتبته في قرطبة ستمائة ألف كتاب وأن فهادس تلك الكتب كانت في أربعة وأربعين مجلداً ، ويقول غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » (٢) : وإني أذكر هذا أن ملك فرنسا شارل الحكيم لم يستطع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية سوى تسعمائة مجلد ، وأن تلك هذه المجلدات فقط هي التي كانت في غير علم اللاهوت . ويقول سيدبو (٣) : « إن أهم ما انصفت به الروح الجامعية في بغداد منذ البداية هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة فيها . وحدث عن مكتبات القاهرة وبخاصة مكتبة دار الحكمة ولا حرج .

وقد أثمرت النهضة العلمية نهضة نقدية وأدبية في هذا القرن ، كان لها شأنها في رقي الأدب ، وازدهار النقد ، واتساع حركة التأليف في مختلف جوانب اللغة والآداب الشعر .

في هذا القرن ألف كتاب العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسي ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وكتاب الأملاني لأبي علي انقالي ، وألف أبوحيان التوحيدى كتبه ، ومن بينها كتابه المشهور الامتاع والموانسة . وفيه أيضاً ألف نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، والموازنة للأمدى ، والوساطة للقاضى الجرجاني ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، وكتاب الصناعتين لأبي هلال

(١) مسكويه ، تحارب الأمم ٦/٢٨٦ .

(٢) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ٤٦٢ .

(٣) حضارة العرب ص ٤٦١ .

العسكري، وفيه ألف ابن التديم كتاب الفهرست، وألف الصولي كتابه الموشع، وكتابه الأوراق، وكتابه: أخبار أبي تمام، وأخبار البحري: ولعل كتاب « يتيمة الدهر » لأبي منصور الثعالبي قد ألف في أواخر هذا القرن أيضاً.

وشملت الآداب وحركة النقد نهضة لم يعرف لها نظير من قبل ولا من بعد.

وكان من عادة الوزير ابن العميد عيّد الأدياء في عصره، أنه إذا ورد أحد من منتحلي العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد وعن الجاحظ، وكان ابن العميد يلقب الجاحظ الأخير (١)، وكان التوحيدى يرفع من منزلة الجاحظ، ويسلك مسلكه في التصنيف، ويشتهى أن ينتظم في مسلكه (٢).

وكانت رسائل الأدياء الأدبية في هذا القرن تبلغ غاية اللطف والبرقة والجمال، وكان بعض الكتاب يحرصون فيها على السجع، ومن بينهم الوزير علي بن عيسى الذي كان يحلى كتبه بالسجع الكثير (٣)، وكانت رسائل الصابي مسجوعة دائماً، وكذلك كانت رسائل الصاحب بن عباد الوزير مسجوعة في أكثر أحوالها. وكان التوحيدى يقتصد في أسجاعه. أما البديع والخوازمي فقد كان السجع عليهما كل سلطان.

وفي هذا القرن ظهر فن المقامات على يدي « بديع الزمان الهمذاني » وغيره من أدياء العروبة. وقد جدد أبو العلاء المعري (٢٦٣ - ٤٤٤٩).

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ ص ٣.

(٢) باقوت، معجم الأدياء ج ٥ ص ٣٨٠.

(٣) معجم الأدياء لياقوت ٢٨٠/٦، كتاب الوزراء ص ٣٧٧.

في الأدب بما أنشأه من رسائل أدبية بالغة الأهمية ، ومن بينها رسالة الغفران ، وكذلك فعل غيره ، وعن أبي العلاء كتب الرحالة الفارسي ناصر خسرو يقول : إن فعلاء الشام والعراق والمغرب يقرون أنه لا نظير له في هذا العصر ، (١) . وقد مزج الأدباء في هذا القرن النثر بالقصص ، فامتثلت المكتبة الإسلامية بكتب النثر القصص ، ومن بينها : الفرج بعد الشدة للتخوي (٨٢٨٤/٩٩٤ م) وكتاب دأفس الفريد ، (٢) لمسكويه (٥٤٢٠ : ١٠٢٩ م) وكتاب نشوار المحاضرة ، وقد عني الجهمشاري صاحب كتاب د تاريخ الوزراء ، بتأليف كتاب على نسق كتاب ألف ليلة وليلة ، وسار فيه شوطاً ونحلت قبل أن يتمه (٣) . وقصص كتاب الأغاني ، وكتاب العقد الفريد ، مشهورة ، وكثرت قصص العاشقين من العرب في هذا القرن . وقد ذكر حمزة الأصفهاني المتوفى حرالي عام ٩٦١/٨٣٥ م أنه كان في عصره من كتب السمر التي يتداولها الناس ما يقرب من سبعين كتاباً (٤) .

وفي الشعر زحرت القصائد بالمعاني الجديدة ، والأساليب المنمنمة العذبة الرقيقة ، وعنى الشعراء المحدثون بالبديع عناية كبيرة ، وقد ألف في أواخر القرن الثالث ابن الممتز (المتوفى في عام ٨٢٩٦) كتابه د البديع ، عام ٨٢٧٤ ، ودافع فيه عن مذهب المحدثين في إثبات البديع وملء كلامهم به دفاعاً حاراً .

ونعوض في هذا القرن شمر الطبيعة فوجدنا الصنوبري (المتوفى عام ٨٣٣٤/٩٤٥ م

(١) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ترجمة د . يحيى الخشاب ص ٣٦ .

(٢) وهو أحسن كتاب صنف في الحكايات القصص والفوائد اللطاف كما يقول القفطي (تاريخ الحكماء ص ٣٢١ و ٣٣٢) .

(٣) ابن التبريم ، الفهرست ، ص ٣٠٤ .

(٤) حمزة الأصفهاني ، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ٤٢٥ و ٤٢٦ .

وكان أميناً على خزانة كتب سيف الدولة (١). وكذلك وجدنا كشاجم،
محمّدان إجازة بالغة في شعر الطبيعة حتى عبداً شاعري الطبيعة في أدبنا،
والصنوبري ألمع شاعر من شعراء الطبيعة في الأدب العربي، وقد أكثر من
وصف التّرجس في قصائده، وكان ذا ولع شديد بالسماء والهواء والضياء في
شعره، مع التّطلع إلى أسرار الطبيعة ومناجياتها (٢)، وكان كشاجم يلقب
« بريحانة أهل الأدب ». والخالد بن السري الرّقاء وسوام كانوا يسرون
في طريق كشاجم وينهجون نهجه، ويحتذون حذوه في الشعر.

وفي القرن الرابع كثّر الشعر الساساني الذي كان ينظم منه أبو دلف
والأخنف المكي وغيرهما من الشعراء، وهو شعر الكدية، وقد أعجب
به بديع الزمان الهمذاني، وملاً أدبه في المقامات به.

أما الشعر الشعبي فقد كان من أعلامه في هذا القرن ابن سكرة وابن
الحجاج (٣) (- ٣٩١/١٠٠١ م).

وقد نبغ في الشعر في هذا القرن أعلام مشهورون. في مقدمتهم:
أبو الطيب المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ)، وأبو فراس الحمداني (- ٣٥٧ هـ)،
والشريف الرضي (٣٦١ - ٤٠٣ هـ).

- ٤ -

وبذلك وجدنا القرن الرابع عصر ازدهار أدبي، في فن الشعر والنثر،
وفي النقد، لا مثيل له.

(١) مطالع البدور للغزولي ١٧٦/٢.

(٢) وكان الوزير المهلب كثير الانشاد لشعر الصنوبري: ونشر مذهبه
الفني في الشعر في بغداد (١٢/٢) بتيمة الدهر للعالي، بل كان ينسج على منوال
الصنوبري في الشعر (٢/٢) بتيمة الدهر.

(٣) ١٩٥/٣ معجم البلدان لياقوت.

ووجدنا الفكر النقدي في هذا القرن يبلغ قمة نشاطه ، ويقن للأدب ،
ويضع له الأصول ويرسم له المناهج ، ويرشده إلى طرائق القول ، ويأهده
بينه وبين الخطأ ثم يأخذ الأدب طريقه في ظلال تخليط النقد والنقاد له ،
وبتوجيههما ياه . . وينفع من النقاد والأدباء أعلام كثيرون ، لا مثيل لهم
ويخلد التاريخ ذكرهم في صفحاته .

وفي هذا الكتاب سأحدث عن الفكر النقدي في القرن الرابع ، ثم
عن الفكر الأدبي في هذا القرن كذلك ، لنستبين على ضوء هذه الدراسة
مدى ما بلغ النقد والأدب من مكانة في هذا القرن . وبالله التوفيق ، وهو
الهادي إلى أقوم طريق : عليه أتوكل وإليه أنيب ؟

المؤلف

القسم الأول

الفكر النقدي في القرن الرابع

مشكلات النقد في القرن الرابع

- ١ -

بلغ النقد الأدبي في القرن الرابع حداً كبيراً من النضوج والقوة، شأنه في ذلك شأن الأدب والبيان وسائر ألوان العلوم والثقافات، وذلك برغم ما كان يغشى الحياة الإسلامية إبان ذاك من ضعف سياسي بعيد الأثر في مستقبل العالم الإسلامي .

وحين كانت رقعة الدولة الإسلامية تمزق اديعها الحوادث العاصفة ، وتتناو لها أبدى الملوك الفاسقين ، والدول الصغيرة الناشئة : كالأخشيدية والفاطمية والحدادية والبوذية وغيرها من مختلف الديانات والعروش . كان رجال العلم والأدب واللغة جادين في إقامة الحياة الإسلامية على أسس وطيدة من التفكير والإنتاج الصحيح والتجديد المستمر في شتى ألوان الثقافة ومناحي الحياة، وكانت رعاية الملوك لهم ، وتشجيع قادة العالم الإسلامي لها ، سبباً من أسباب استمرار هذه النهضة الفكرية والعلمية والأدبية ، كما كانت حركة البحث العقلي التي غذتها الرشيد والمأمون قد آتت أكلها ، ومضمتها عقول المسلمين، وأحالتها غذاء عقلياً أنتج نتائجه العظيمة في القرن الرابع الهجري ، فكان أحفل عهد رجال الفكر والعلم والأدب والنقد والبيان، وأبعد عصر شهدته العربية وآدابها الرفيعة ، وذاعت في آفاقه شهرة كثير من أديبها والكتاب والشعراء وأئمة النقد وفحول البيان .

وظهرت في خلاله مؤلفات كثيرة ناضجة في علوم الدين والدنيا ، وفي علوم التفكير والفلسفة ، وفي علوم العربية وآدابها ، سواء في اللغة أم في الأدب أم في النقد أم في البيان ، وما زالت هذه المؤلفات من أعظم المصادر وأجلها في الثقافة الإسلامية ، وما زلنا ننشد السير على آثارها في الابتداع والتجديد والإنتاج .

ولعل من أظهر خصائص الثقافة الإسلامية في هذه الحقبة الرائعة بلوغ النقد الأدبي غاية قوته ، وكثرة ما ظهر فيه من مؤلفات ، تجمع بين سلامة الذوق ودقة الحكم وتحري الانصاف وعمق التفكير ، وتحاول جاهدة أن تضع أسس النقد وأصول الموازنة على دعائم ثابتة ، تقوم مقام الحكومة العادلة والحكم المنصف كلما تشعبت الآراء واختلفت الآذواق ، في شعر أو منزلة أديب .

والنقد الأدبي بدأ بحوثه علماء اللغة والأدب ، واتجه أولاً - في عهود كانت فيها الملكات العربية ما تزال على سلامتها وصحتها - إلى البحث عن الأسلوب وسلامته من الخطأ في اللغة أو الأعراب أو التصريف ، للحفاظ على العربية وكتابتها الحكيم ، ودفع عادية الفساد ، الذي نجم على أيدي المستعربين من الموالي ، ثم على أيدي من اختلط بهم من العرب . ولما فرغ النقد من هذه البحوث عاد إلى بحث الأسلوب نفسه وما يتصل به مما يمس صميم البيان والاداء ، تلافياً لأخطاء الملكات التي بدأ يدب إليها العي والقصور والعجز بسبب المستعربين والاختلاط بهم ، وأخذ علماء الأدب والنقد كابن سلام والجاحظ ، وابن قتيبة ، وأضرابهم كأبي عبيد سوواه ، في عرض المشكلات الأدبية والنقدية والتعليق عليها وإبداء آرائهم فيها .

ثم كان للقرن الرابع فاتجه علماء الأدب في مشرقه إلى الكتابة في الأدب والنقد ، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان ، ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلي انتقلت بهم إلى البحث في مظاهر البيان ومشكلات البلاغة ، فاتجه تأليفهم في آخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه .

ونقاد الأدب والشعر في القرن الرابع فريقان :

فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثراً بذوقه الأدبي وطبعة العربي

وثقافته الخاصة من شوائب الثقافات الأخرى التي جرت جداول إلى يم
الثقافة الإسلامية الصميعة المتدفقة ، ومن هؤلاء الحائمي ٣٨٣ هـ صاحب
الرسالة الحاتمية ، في نقد شعر المتنبي وبيان سرقاته من حكمة أرسطو
الفيلسوف ، والحسن بن بشر الأمدى ٢٧١ هـ صاحب الموازنة بين الطائيين ،
وعلى بن عبد العزيز الجرجاني ٢٩٢ هـ صاحب الوساطة بين المتنبي
وخصومه ، وابن وكيع ٣٩٣ هـ صاحب المنصف ، في سركات المتنبي
وأبو بكر البافلاني ٤٠٣ هـ مؤلف إعجاز القرآن ، وقبلهم أبو بكر
الصولي ٣٢٦ هـ صاحب أخبار أبي تمام ، وأبو الفرج الأصبهاني ٣٥٦ هـ
مؤلف كتاب الأغاني .

وفريق آخر كتب بروح أدبي هذبت فكرته ووسعت أفقه الثقافات
الأخرى التي هضمها القرن الرابع ، وأحالتها غذاء عقليا لكل من توسع في
الدراسة والبحث العميق ، ومن هذا الفريق جعفر قدامة ٣١٩ هـ ، وقدامة
ابن جعفر ٣٣٧ هـ صاحب (نقد الشعر) ، وابن العميد ٣٦٠ هـ ، والصاحب
ابن عباد ٣٨٥ هـ صاحب رسالة الكشف عن مساوي شعر المتنبي ،
وأبو هلال العسكري ٣٩٥ هـ صاحب الصناعتين ، وديوان المعاني ،
وهذا الفريق الأخير يختلف نقده قوة وضعفا بحسب تمكن الطبع العربي
من نفوس رجاله وأعلامه ، وتتفاوت منازلهم في الإجابة والإحسان
بتفاوتهم في الذوق الأدبي الذي يعتد به في الحكومات الأدبية العادلة .
ودعنا من نقدوا الأدب والشعر بدون تمكن الطبع الأدبي في نفوسهم ،
من : التحويين علماء اللغة ، والمعنويين رجال العقل والفلسفة ، الذين جاء
حكمهم بعيدا عن الذوق المطبوع والفطرة السليمة ، والذين تقدم الجرجاني
في (الوساطة) نقدا لا ذما ، وطرح آراءهم في النقد والبيان فلم يعتد بها ولم
يعرهما نصيبا من البحث والمناقشة ، اللهم إلا حيث أراد أن يبرر موقفه

منهم فذكر بعض أخطائهم في النقد لتسكون حجة له في هذا الإهمال .
ومن الجدير بالانتفات أن كثيرا من نقاد القرن الرابع وجهوا عنايتهم
الأولى إلى شعر شاعرين لهما أثرهما وخطرها في الشعر العربي :

فأبو بكر الصولي وابن بشر الأمدى اتجها إلى أبي تمام وشعره ، فدافع
عنه الصولي دفاع المعتد به المعتر بقيمته ، وحشد كل مارآه سببا لقبول هذه
الحكومة من : شعر الشاعر . ونقد الناقد ، وحكومة من قبله من رجال
الأدب والنقد ، ووازن الأمدى بينه وبين البحترى عارضا شعره وما عليه
من مؤاخذات ترجع إلى سرقة المعاني أو الخروج عن المهج العربي في
أساليب التعبير والبيان ، متجها إلى تفضيل البحترى عليه لطبعه وقلة ما أخذ
عليه من مؤاخذات . والحاتمى وابن عباد والجرجاني وابن وكيع كتبوا في
نقد المتنبي وشعره ، فندد به الحاتمى ، وأشاد بمساوى شعره ابن عباد ،
ووقف الجرجاني موقف القاضى العزيز بهمهم ويشرح ويقرر ويحكم وينصف
الشاعر من جور المتعصبين له وعليه معا . ولا نشك أن أبا تمام والمتنبي كان
جديرين بكل مادار حول شعريهما من ضجة ، وما كان لهما من دوى في
حياة الشعر العربي ومذاهبه .

فأبو تمام صاحب مذهب جديد في الشعر : حاول أن يرضى به عقله ،
بالغوص على المعاني البعيدة ، والتؤدة في طنبها ، والتعمق فيها . كما حاول أن
يرضى به ذوقه وطبعه ، بإثارة الألفاظ القوية ، والأساليب الجزلة ،
التي تحاكي أساليب العرب الأولى وجزالتهم ونهجمهم في الصباغة والاعراب ،
ثم يطلب شتى ألوان الجمال في الاداء والنظم من استعادة رائعة أو تشبيه
بليغ أو حكمة عميقة أو مثل نادد أو طباق ساحر أو تجنيس جميل .
وأبو الطيب المتنبي هو الشاعر الذى عصف في حياته بمخصومه وأقرانه

في مصر والشام والعراق وإيران ، وذهب شعره في أرجاء العالم العربي
إذ ذاك ثائراً مدوياً :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب
فردده الناس وشدت به الدنيا ، وتمثل به الرواة ، وكان أبو الطيب
يفرغ من نفسه على شعره روح القوة والحرية والحياة ، مصوراً فيه
خلجات نفسه ، وخفقات قلبه في قوة شخصية ، وقوة تأثير ، راسماً الحياة
الإسلامية في عصره ، داعياً إلى مذاهب جديدة ، فيها عزة النفس وكرامة
الفرد ، وحرية الحياة . ثم لا تكاد تجد شاعراً يختلف النقد في منزلته
الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء كأبي الطيب ، ولا شاعراً كثرت حول
شعره الدراسات الأدبية كثرتها حول شعر المتنبي ، وحسبك أنه قد شرح
ديوانه فحول العلماء : كابن جني سنة ٥٢٩٢هـ ، ومحمد الهروي سنة ٥٤١٤هـ ،
والمعري سنة ٥٤٤٩هـ ، وابن الأفلح سنة ٥٤٤١هـ ، والواحدى سنة ٥٤٨١هـ ،
وعبد القاهر الجرجاني سنة ٥٤٧١هـ ، والتبريزي سنة ٥٥٠٢هـ ، والعكبري سنة
٥٦١٦هـ ، ثم اليازجي ، والبرقوقي في عصرنا الحديث . كما نقد شعره كثير من
النقاد : كالعائمي ، وابن عباد ، والجرجاني ، وكان وكيع سنة ٣٦٣هـ في كتابه
« المنصف » ، في سرقات المتنبي الشعرية ، والثعالبي سنة ٤٢٩هـ في كتابه
« ينيمة الدهر » ، والواحدى في كتابه « الإبانة عن سرقات المتنبي » ، وابن
حسنون المصري في كتابه « نزهة الأدب في سرقات المتنبي من حبيب » ،
ومحمد بن أحمد المغربي راوية المتنبي في كتابيه « الانتصار المتنبي عن فضائل
المتنبي » ، و « التنبيه المتنبي عن رذائل المتنبي » ، إلى غير ذلك من الكثير في نقد
المتنبي وشعره ، وهذا فضلاً عن كتب عن حياة أبي الطيب أو عرض لشعره
من الكثير من رجال الأدب والنقد والبيان .

هذا هو شأن النقد الأدبي في القرن الرابع ، ولا شك أن ظهور قدامة

فى أول هذا القرن ، ورجوعه بالبيان إلى مناهج جديدة يضع بها أسس النقد الأدبى ، جاعلا لألوان النزف فى الأداء التى تمس الفكرة وتؤثر فى المعنى حظا كبيرا فى النقد ، كان تطورا جديدا فى بحوث النقد والبيان ، وكان عقل قدامة المنطق يغلب ذوقه الأدبى ، فزل أحيانا فى نقده ، من حيث قوم ذوق ابن العميد والصاحب بن عباد ، وأبى هلال العسكري أحكام عقولهم فى النقد والحكومة الأدبية ، وإن تبموا منهج قدامة ، وجروا فى فهم الشعر وتذوقه ونقده مجراه الذى أو ضمه فى كتابه « نقد الشعر » ، والذى يرجع إلى البحث فى عناصر الشعر الأساسية من : اللفظ والوزن والقافية والمعنى .

وجاء الآمدى فرسم منهجا جديدا فى النقد ، فجمل الطبع والسليقة العربية ومذاهب العرب فى البيان هى الحكم فى كل مشكاة والفاصل فى كل شبهة . ونقد قدامة فى كثير من آرائه ، بل ألف كتابا بين فيه أخطاءه فى « نقد الشعر » ، وأهداه لابن العميد ، وبالرغم من ذلك كله فقد تأثر كرها ببعض آراء قدامة ، تأثر به فى عناصر ميزان النقد الأدبى التى حللها حين نقد أبا تمام والبحترى فيما يتصل باللفظ وسلامته والمبنى وصحته والفرص واستقامته والأسلوب ومواءمته لأسلوب العرب فى الأداء والوزن ، وملاءمته لموسيقى الشعر وأرذانه ، وتأثر به فى تنسيق بحوثه وموضوعاته ، طارضا للموضوعات التى أثارها ابن المعتز وقدامة ، كبحوثه فى الجنس والطباق والاستعارة والتقسيم ، مدليا برأيه ، مع رجوعه إلى العربية وحدها فى المناقشة والنقد والحكم .

وجاء بعد الآمدى الصاحب بن عباد ، فسار على ضوء أستاذه ابن العميد فى فهم النقد وعناصره وأصوله ، مما استفصل الكلام فيه .

- ١ - قد استحال إلى علم له أصوله وقواعده ومبادئه .
- ٢ - كثرت المؤلفات فيه إلى حد كبير .
- ٣ - كانت الموازنات الأدبية أظهر فروع النقد في هذا القرن ، وأشهرها الموازنة للأمدى .
- ٤ - كثر النقد في هذا القرن وتعددت آراؤهم في النقد .
- ٥ - كانت مشكلات النقد تثار غالبا عند الحديث عنه . له شاعر ، أو الموازنة بين شاعر وآخر .
- ٦ - تطور النقد فبحث في إعجاز القرآن وأسراره ، ثم أخذ يتحدث عن أصول البيان العربي ، حتى استحال بعد ذلك إلى علم البلاغة الذي وضع أصوله عبد القاهر الجرجاني في كتابيه : الأسرار والدلائل ..

عمود الشعر العربي

كما اصطلاح عليه نقاد القرن الرابع

اصطلاح جديد ظهر في أوائل العصر العباسي ، وتداولته السنة النقاد في هذه الحقبة الحافلة بمختلف التيارات الأدبية والنقدية ، وأخذه عنهم من جاء بعدهم من النقاد حتى اليوم .

وكان أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى ٢٧١ هـ (٩٨٧ م) أشهر النقاد اللذين احتفلوا بعمود الشعر ، ورجعوا إليه ، وحكموه في قضايا النقد .

قال في كتابه « الموازنة بين الطائين » : سئل البحرى عن نفسه وعن أبي تمام ، فقال : « كان أغوص على المعاني منى ، وأنا أقوم بعمود الشعر » .

ولقد رجع الأمدى إلى شتى الأصول الأدبية والبيانية في الشعر ، فجعلها كل شيء أو أهم شيء في النقد ، في حكمه على شاعرية أبي تمام والبحرئى ، سواء رجعت إلى النهج العربى والدوق الأدبى والأساليب العربية في النظم والصياغة ، أم إلى الأفكار والمعاني والأخيلة ، أم إلى الوزن الشعرى ، أم إلى النهج الخاص في المجاز ، والاستعارة ، والكناية ، والتشبيه ، والتمثيل ، والوصف ، والطباق ، والمقابلة ، والجناس ، وغيرها . ذلك لأنها كلها مما يجب على الشاعر أن يسترشد به ، وينظم شعره على مثاله ومنواله ، في رأيه .

والنقاد يحملون هذه الأصول كلها ، ومراعاتها في الشعر : « عمود الشعر » وهو ، في أبسط معناه ، كل التقاليد الفنية التى التزمها القدماء في قصائدهم ، في الأفكار ، والمعاني ، والأخيلة ، والأغراض ، والألفاظ ، والأساليب ، والصور ، وغيرها . فهذه التقاليد هى « عمود الشعر » الذى حتم الكثير من

النقاد في القرن الرابع اتباعه والسير على منواله، وسموا ما جاء على نمطه من قصائد شعرية للقدماء وغيرهم « قصائد عمودية » ، وهي قصائد تلتزم عمود الشعر .

وكان اختلاف النقاد في قضايا الشعر في القرن الرابع الهجري حافزاً لهم إلى النحاكم إليه ، فضلاً عن أنهم لم يجدوا شيئاً سوى « عمود الشعر » يرجعون إليه ، أو يحكمونه في الخصومات النقدية ، وفيما أتى به المحدثون والمولدون من ذوى الثقافات الجديدة والشعر المحدث .

وحتى اليوم لانجد أصدق من تصويرنا لعمود الشعر ، الذى لانجد تعريفاً واضحاً له عند النقاد في القديم والحديث . ولعل كلام « المرزوق » عنه في « مقدمة شرحه لحجاسة أبى تمام هو التعريف الوحيد له فى كتب الأدب العربى وفى كتب النقد جميعها ، مع ما فيه من غموض وقصور . يقول المرزوق متحدثاً عن الشعراء القدماء : « كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته . والاصابة فى الوصف : والمقاربة فى التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والانسجام على تخيير من لذى الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاركة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية . فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر » .

ولقد كانت القصيدة التى ورثها الشعراء العباسيون أو المحدثون عن أسلافهم من الجاهليين والاسلاميين ، تبدو فى أروع نماذجها ، وهو قصيدة المعلقات أو القصيدة العمودية . . فكل تراثنا الشعرى يتمثل فيها ، وتمتاز بالآخيلة البديعة ، والتشبيهات النادرة ، والمعانى المتكررة ، والأغراض المنوعة ، والأساليب البليغة ، وللوسيق المأثورة . . إلى ما تمتاز به من شتى المقومات والعناصر الفنية .

ولقد أصبحت هذه التقاليد الفنية كلها جزءاً من كيان القصيدة ، وصارت تلك القيود الملزمة لانقوم القصيدة بدونها . بل صارت محبة إلى الشعراء

الأصلاء ، لأن الفن هو الفن ، ولا بد فيه من القيود ، والمثل الفرنسي يقول : لا يحيا الفن بدون قيود ، ومن خلالها تظهر عبقرية الشاعر وموهبته الأصلية ، وفطرته الشعرية للتميزة . . والحرية في الفن هي استعمال الشاعر الموهوب أقصى عبقرية من خلال تلك القيود ، ومن ثم تبسو عظمة الفن ، إذ أنه استقرأطى في التزامه لمناهج خاصة . وانباعه لقيود شديدة ، لا يتاح لكثيرين النفوذ منها إلى صميم التعبير عن الحياة والفكر فى أبسط وأصدق صورهما ومضامينهما .

ولا يستثنى من الحرص على هذه القيود ، فى أغلب الأمر ، مذهب من مذاهب الشعر ، ولا جماعة من جماعته ، محافظة أم مجردة . . ولا نعد ذلك استعبادا فنيا ، على ما كان يحاول الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، رائد مدرسة « أبولو » الشعرية ، أن يصوره به ، وتابعه فيه الناثرون على القصيدة العمودية وكان يذهب إلى أن الوزن التقليدى يجر الشاعر إلى استخدام أساليب وإيقاعات تضرب بجذورها فى أعماق عقله الباطن ، وتملى عليه الإيقاع والمعجم والأسلوب ، وتغلبه على إبداعه وشخصيته ، وتجعله غير قادر على التعبير عن كل الموضوعات والحالات الشعرية .

إننا لا ننتع الذين يرمون الصياغة الكلاسيكية بأنها تغلب الشاعر على إبداعه وشخصيته . فى رأينا أنها لا تحول بينه وبين الإبداع والشخصية والحرية الفنية ، وكان أبو شادى يكرر أنه يهدف إلى التحرر من قيود لا ضرورة لها ، لا إلى الخروج على القواعد الفنية جملة . على أن الشاعر الموهوب لا يتوقه أبدا قيود الوزن والقافية ، كما قال أبو شادى فى مقدمة ديوانه « اليبزج » .

ويجىء العصر العباسى فى أوج ازدهاره فى القرن الرابع ويظهر الشعراء ويأخذ المحدثون والمولدون فى التجديد وفى طرق أبوابه ، لأن ذلك جزء من حرية الشاعر الفنية ، ولا يتعارض فى رأيهم مع قيود الشعر المترمة .

نشأ المحدثون في ظلال حضارة العصر العباسي وثقافته والامتزاج القوي الذي حدث فيه بين العرب والأمم الأجنبية .. ومن المحدثين ، ظهر المولدون من الشعراء ، الذين نشأوا من آباء عرب وأمّهات أعجميات ، وبعضهم كانت أصولهم كلها أعجمية ، وإن أطلق لفظ المولدين على ما كان يطلق عليه لفظ المحدثين من شهود العصر العباسي وحضارته ، ومن اتساع أفق الافكار والخيال فيه .

وزاد المحدثون في معاني المتقدمين من الشعراء ، واهتدوا إلى معان جديدة ، وأتوا بأخيلة وتشبيهات مبتكرة ، في أغراض غير الأغراض القديمة في بعض الأحيان ، وزادوا من تسهيل الأسلوب وتطويع الوزن الشعري . وصبغت الثقافات الجديدة المولدين بأفكارها في طرافة التفكير والتقسيم والمعاني والخيال ، وإن اهتموا في أحيان بالمعاني الغامضة ، والاستعارات البعيدة ، والتشبيهات المتنافرة ، والبديع المتكلف ، وخرجوا من عاطفة الشاعر وغنايته إلى عقل المفكر ، وحكمه الحكيم ، فليج صالح وابن عبد القدوس ، وأبو العتاهية ، ومحمّد الوراق ، في الحكمة والمثل ، وذهب شعر العتاني في البديع ، وعلى مثاله كان يقول جميع من يتكلفه من المولدين كسمل ومنصور النمرى . ومسلم أول من تكلفه من المولدين ، ويشبه بزهير في صناعته الشعرية ، وكانت هذه الموجه كلها خروجاً على عمود الشعر في رأى كثير من النقاد .. وحول البديع قامت قضايا نقدية خطيرة في القرن الرابع الهجرى .

كان يشار بن برد ، هو أبا لمحدثين وأستاذهم ، ويعجب الأصمعي الرواية الناقد بشعره ويشبهه بالأعشى والنابة ، وينوه أبو عبيدة بفطنته وصحة قريحته وجودة ثقته للشعر . وكان ابن الرومي يقدمه ، ويزعم أنه أشعر الشعراء ..

ويرى الجاحظ أنه ما من مولد إلا وبشار أشعر منه ، وأن لامولـد بعد بشار أشعر من أبي نواس ، الذي عد ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى ، وكان أسير المحدثين شعراً .

وجدنا الكثير من صور التجديد في القصيدة عند المحدثين والمولدين . تجديد في الشكل والمضمون والمحتوى والثقافة والفكر ، وخروج على نمط الجاهليين في شتى عناصر القصيدة ، بما عالجوا فيه القدماء ، وأخلوا فيه بعمود الشعر .

ويتابع النقاد في أوائل العصر العباسي هذه الحركة الشعرية الجديدة ، ويبدون آراءهم في هذا الشعر المحدث ، الذي تحرر من عمود الشعر .

فأما أبو عمرو بن العلاء رائد المدرسة المحافظة فقد كان شديداً التعصب على المحدثين ، لخروجهم على عمود الشعر ، بل كان كذلك يتعصب على الشعراء الإسلاميين ، ولا يرى الشعر إلا للجاهليين ، وكان أشد الناس تسليماً لهم . لا يعد الشعر إلا ما كان صادراً منهم .

وقد قال عن المولدين : « ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم » . وما سمع يحتاج بيت إسلامي ، فضلاً عن أن يحتاج بشعر المحدثين ، وقال : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً .

وتابعه في الأراء المحدثين : ابن الأعرابي ، وأبو حاتم ، وأبو عبيدة . وكان المأمون يتعصب كذلك للأوائل من الشعراء ، ويقول : « اتقضى الشعر مع ملك بني أمية » . وكان اسحاق الموصلي شديد العصبية للقدماء ، فظمن على أبي نواس ، وأبي تمام ، وأبي العتاهية ، ولم يعتد بشار ، وكذلك كان زعيم مدرسة تنكر تغيير الغناء القديم .

بمثل ذلك التعصب للآداب القديمة موجود في الآداب الأوربية ،
فقد كان « هوراس » يرى أن أشعار الشعراء الاغريق هي النماذج التي يجب
أن تدرس ، وأن الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه . ونجد النقاد في
أوروبا في العصر الكلاسيكي ، جد مفتونين بالنماذج الاغريقية . وعصبية
« أبي عمرو » ومدرسته على المحدثين والمولدين ظاهرة ، وسببها ميلهم إلى
شعر الغريب والمعاني ، في رأى الباقلاني ، أو حاجتهم إلى الشاهد ، وقلة
ثقتهم بما يأتي به المولدون ، في رأى ابن رشيق وقد امتدت هذه العصبية إلى
بعض نقاد القرن الرابع . .

وأما خلف الأحمر فينصف المحدثين ، ويفضل بعض نماذجهم
على شعر الجاهليين ، فلامية مروان بن أبي حفصة أفضل عنده من
لامية الأعشى . وكان لا يشق له غبار في النقد ، ولا يجرى معه أحد في حلبة .
وتابعه في إنصافه للمحدثين : الجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، وابن المعتز ،
وآراؤهم في ذلك معروفة .

ثم يحى المحدثون من الشعراء من ذوى الثقافات الجديدة ، كآبي تمام
وابن الرومي ، ويخرج شعرهم على عمود الشعر خروجاً واضحاً ، ويلفت
حوطهم شعراء الطبقة الثانية من المحدثين ، وقد تبلذوا على شعراء الطبقة
الأولى : كبشار ، وأبي نواس ، وأبي العتاهية .

ويختلف النقاد في القرن الرابع فيهم اختلافاً بيناً : فرمى أبو تمام
بالخروج على عمود الشعر العربي من حيث دفع كثير من النقاد في هذا
القرن من منزلة ابن الرومي الذي أعجب به المعاصرون كثيراً ، كطه حسين ،
والعقاد ، والملازني ، وطرحه وغض من شعره نقاد آخرون ، كالفاضل
الجرجاني صاحب كتاب « الوساطة » وأهمله أبو الفرج في كتابه « الأغاني » ،
ولم يترجم له .

وعند هذا الحد يتضح لنا عمود الشعر ، وموقف النقاد في القرن الرابع

المجرب منه ، من بين متعصب على شعر المحدثين لخروجهم عليه ، ومنصفه في حكمه ، على شعرهم لأنهم وإن استجابوا لمقياس العمود الشعري ، يفهمونه على نحو أوسع .

ويجىء المعاصرون ، ويخرجون على الكلاسيكية القديمة والجديدة ، متحدين من الأوزان الموروثة مؤثرين الشعر الحر والمرسل ، بمعين في الخروج على عمود الشعر العربي ونبذه واسقاطه ، فلعمود الشعر والقصيدة العمودية عندهم معنى آخر غير المعنى الذى قصده أدهاب الشعر من الأقدمين .

من أجل نظرية جديدة في النقد

عند نقاد القرن الرابع

حاول النقاد العرب القدماء في القرن الرابع تقديم نظرية نقدية لتفسير العمل الأدبي والحكم عليه . . . وكانت محاولاتهم من أدفع ما بذلوه من جهود فكرية وأدبية وافوية وإنسانية ، على طول العصور . في القديم ابتكروا ووضعوا الأصول والأسس والمناهج . . . وجئنا في الحديث من بعدهم لنضيف وننظم ونحتذى . : فإفسير ذلك ، وما الخطوات التي سار أسلافنا فيها ، وسرنا من بعدهم في أثرهم ؟ . . .

سنحاول الجواب عن سير حركة إيجاد نظرية جديدة في النقد العربي القديم ، ونترك التفاصيل لبحث آخر ، ونعقب على ذلك فيما بعد بتوضيح الخطوط العامة لسير حركة النقد العربي حتى اليوم .

نعلم أن جماعات النقاد الأولين ، من مثل : حماد ، وأبي عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر ، وأبي زيد الأصبهني ، وابن سلام ، حاولت ربط النقد الأدبي بحكم الذوق الذاتي التأثري ، فوفقت في خطواتها الدائبة نحو إيجاد منهج نقدي أصيل توفيقاً مذكوراً ومشكوراً .

وجاء الجاحظ ، ليقدّم لنا - في إطار هذا المنهج التأثري الخاضع لأحكام الذوق - أفكاراً جديدة ، تدور حول فلسفة البيان وأصوله ، ووجوب مطابقتها لمقتضى الحال ، وتحقيقه لحاجات الفكر والأدب والمجتمع الملحة ، وللضرورات اللغوية والفنية التي لا بد من احتواء أي منهج أصيل عليها ،

وعلى أم عناصر الجمال الأدبي التي يرشد إليها الذوق، وقالت نظرية الجاحظ النقدية ذيوها واهتماما كبيرين من كل النقاد بعده.

ثم جاء ابن المعتز ليقدم لنا نظرية نقدية أخرى، تدور حول فكرته البديعية الجديدة، إذ رأى أن البديع يجب أن يكون هو المقياس النقدي الجديد الذي يخضع العمل الأدبي لأحكامه من ناحية، ويسمى النقد لتفسير النص على ضوءه من ناحية ثانية، وألف ابن المعتز كتابه المشهور «البديع»، وقد ضمنه كل أصول مذهبه، وعرض فيه للتشبيه والاستعارة والكناية، والطباق والجناس والمذهب الكلامي وغيرها من صور البيان، أو قل من صور البديع... ولقيت تلك النظرية في البديع عناية واهتماما شديدين، وأصبحت مناط تفسيرات كثيرة، وشروح واسعة، ومن البديهي أن قدامة بن جعفر (٥٣٣٧) في منهجه النقدي الموضوعي، الذي بسطه في كتابه «نقد الشعر»، لم يخرج عن أصول هذه النظرية إلا في القليل.

وأصبحت تفسيرات الأمدى (٥٣٧١) في كتابه المشهور «الموازنة»، والقاضى الجرجاني (٥٣٩٢) في كتابه «الوساطة»، للعمل النقدي ومناهجه، تحصل بكثير من آثار نظرية البديع، مع رجوع شديد إلى حكم الذوق، من حيث حكم أبو هلال العسكري (نحو ٥٣٩٥) في كتابه المشهور «الصناعتين»، العقل أكثر مما حكم الذوق.

وحيال هذه الأفكار والنظريات النقدية الكثيرة، التي لم تغل من أخطاء ولم يتركها الباحثون دون تعليق ونقد، جاء ابن جني ثم من بعده عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي: «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة»، فقدما لنا على أساس ضوء النظريات النقدية السابقة، نظرية جديدة، سمياها «نظرية النظم»، وأضاف إليها عبد القاهر كثيرا من التطبيقات النقدية - الرفيعة، وبنائها على

فلسفة يانية ذات أصول عربية تخالف الأسس التي بنيت عليها النظريات
العديدة السابقة ، وللدوق مكانه في هذه النظرية حكماً وحارساً للحكم الأدبي
الأصيل ، الذي يقصده أثراء الفكر ، واغناء اللغة ، والتجديد في فهم
البيان الأدبي ، وإدواء ظلمة المعرفة الانسانية للبحث والكشف عن مقومات
جديدة ، وقد وضع عبد القاهر في كتابه « دلائل الاعجاز » مدى الحاجة
الماسة إلى تقديم نظريته هذه في النظم ، فأبان أنه لا بد منها كمنهج نقدي
جديد ، للكشف بها عن أصول عظمة البلاغة العربية من جانب ، وعظمة
بلاغة القرآن الكريم واعجازه من جانب آخر وهو في ذلك يسير آراء
ابن جني في « الخصائص » والقاضي عبد الجبار في كتابه « المعنى » .

أكد عبد القاهر ضرورة محاولته للتجديد في فهم أصول البيان العربي والبلاغة
الأدبية ، كما أكد أهمية ما وصل إليه في هذا المضمار من أفكار ومناهج .

وعبد القاهر في هذه النظرية مبتكر حقاً ، ومجدد أصيل ، وواضع
لأهم نظرية في النقد وأصول البيان .

وعنده لافصل بين الألفاظ ومعناها ، ولا بين الصورة والمحتوى ،
ولا بين الشكل والمضمون في النص الأدبي .

وبالبلاغة عنده في النظم ، لا في الكلمة مفردة ، ولا في مجرد المعاني ،
والنظم في مذهبه مجموعة من العلاقات اللغوية ، بتعليق الكلم بعضها ببعض
وجعل بعضها بسبب من بعض ، حيث يقتضي فيها آثار المعاني وترتيبها حسب
ترتيب المعاني في النفس ، لأن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلمة المفردة مجردة
عن معاني الأسلوب وتوخيها فيها .

ويجمع اللغويون وكبار النقاد في كل اللغات على ذلك ، وعلى أن الكلمة
رمز لمعناها ، رمز لفكرة أو تجربة أو العاطفة أو المعنى ، وقيمتها فيما
ترمز إليه ، وليست البلاغة فيها وحدها ، وهذه هي نظرية رمزية اللغة التي
بحثها « فنت » الألمانى بعد عبد القاهر بقرون طوال . وعبد القاهر يتلاقى

معه في ذلك كل النقاد العالمين ، من القدامى والمحدثين ، فإذا قال أفلاطون من قبل ، « إن الكلمة إنما تعنى الفكرة ذاتها وحقيقتها الخارجية المتمثلة في صورة كلمة على السواء » فإن الكلمة عنده معناها الفكرة ، اطلاقاً وحين تعرض من الخارج ، فكل فكرة لا يمكن التعبير عنها تعبيراً دقيقاً إلا بكلمة واحدة ، فحيث إن كل كلمة لها ارتباطات خارجية تختلف حتى مع مرادفها اختلافاً ما فإنه يتبع ذلك أن استعمال سوى الكلمة التي ترتبط بفكرك يعد خطأ ، وتغير الكلمة معناه تغير في الفكرة (١) فكذلك نجد أرسطو يقول : « إن عملية النطق مستلزمة ضرورة للتفكير ، وإن الكلمات رموز للمعاني » . (٢) ويقول عبد القاهر : « إنك تطلب المعنى وإذا ظفرت به فاللفظ معك وإزاء ناظر (٣) » . ويقول « برجسون » بعده بزمان طويل : « إنما تفكر بالالفاظ » . ويقول « لاسل أبركرومبي » ، أستاذ النقد الانجليزي في جامعة لندن (٤) : « على الأديب أن يجعل ألفاظه محاكية لتجاربه ورمزاً لتلك التجارب ، وعليه أن يجمع بين مقدرته على التعبير عما في نفسه بذلك الرمز وبين مقدرة ذلك الرمز نفسه على نقل تجاربه إلى القراء ، فما وظيفة الألفاظ في الأدب إلا أن تكون رموزاً » . ويقول ميخائيل نعيمة في الغرغال : « لا قيمة للغة في ذاتها ونفسها ، بل قيمتها فيما ترمز إليه من فكر وعاطفة » . وقال متى بن يونس (٣٦٨ هـ) من قبل للسيرافي (٣٦٩ هـ) : « المعاني المدركة لا يتوصل إليها إلا باللغة ، كما يروى التوحيدى في كتابه « الامتاع والمؤانسة » .

(١) الأدب وفنونه ، عز الدين إسماعيل .

(٢) « الخطابة » لأرسطو .

(٣) دلائل الاعجاز .

(٤) قواعد النقد الأدبي ترجمة محمد عوض .

وآراء «فرديناندى سويسر» ، رائد علم اللسان الحديث ، و (أنطوان
حيسيه » هي آراء عبد القاهر ونظريته في العلاقات أو النظم ، فإنه من مجموع العلاقات
بين الألفاظ في النص الأدبي تتكون الصورة ، وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية
ويقول «سويسر» السويصرى : « إن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ ، بل
هي مجموعة من العلاقات » . واللغة عند عبد القاهر ومجموعة النقاد العالمين
المحدثين لا تصبح لغة شعرية إلا حين يستعملها الشاعر ، لأنها في ذاتها لها
هذه الخاصية ، ولكن لأنها خضعت للتجربة الشعرية في نفس الشاعر ،
ولمقتضيات التعبير عن هذه التجربة .

ويذهب الناقد الإيطالى «كروتشيه» (- ١٩٥٢) إلى أن الحقيقة الجمالية
لا تظهر في المضمون ، بل في الشكل الأدبي ، ومن ثم فقد اعتد بالصورة ،
وهو في هذا يتلاقى مع عبد القاهر الذى يظم من شأن الصورة تعظيما شديدا .
ويحدد «كروتشيه» المضمون بأنه الأحاسيس أو الناحية الانفعالية قبل
صقلها صقلا جماليا ، أما الشكل عنده فهو صقلها وإبرازها في تعبير عن طريق
النشاط الفكرى ، ولا قيمة عنده في الشكل للكلمات المفردة من حيث هي
مادة التعبير ، ولا من حيث الجرس والصوت منفصلين عن الفن والصورة .
وهذا كله هو صميم رأى عبد القاهر فى كتابه « دلائل الإعجاز » .

ويفصل النقاد العرب قبل عبد القاهر ، من مثل ابن قتيبة ، وقدامة ،
والعسكرى ، وغيرهم ، بين اللفظ والمعنى ، وبين الشكل والمضمون ، وبين
الصورة والمحتوى ، فهما عندهم عنصران مستقلان تمام الاستقلال ، ويؤكد
« ابن رشيق » - مخالفا لهم - أن اللفظ جسم وروحه المعنى ، فلا يمكن
الفصل بينهما ، فهما عنده متلازمان ، وكأن رأيه قريب من مذهب أرسطو
فى العلاقة بين اللفظ ، والمعنى ، وقد ربط عبد القاهر بين اللفظ والمعنى فى
النص ربطا شديدا ، فالصورة والمضمون عنده هما وجهان للفوق الأدبي ،
والفصل بينهما غير ممكن ، إذ ليس هناك صورة ومضمون ، بل هما شيء

واحد ، فإذة العمل الأدبي وصيرته لا يفتقران ، وهذه هي فلسفة الجمالين ، من حيث ذهب الكلاسيكيون إلى دفع شأن اللفظ ، واهتم الرومانسيون بالمعنى ، وحرر دعاء الفن للفن النص الأدبي من كل قيود المضمون مادام النص يغذى الحاسة الجمالية في القارىء . ودعا الرمزيون إلى الاهتمام بالنغم وما توجيه الصور والألفاظ من رموز ومجازات عن طريق موسيقاها وأصواتها ، وأكد الواقعيون اهتمامهم بالمضمون ومحتواه الاجتماعي . وهكذا قرر عبد القاهر في جرأة نقدية كبيرة وحدة العمل الأدبي ، وربط بين مضامينه وأشكاله برابط وثيق ، فاللفظ عنده يستمد بلاغته من أنه ظل للمعنى ، والمعنى يستمد مزينه من حيث إنه المادة الغفل التي يصوغها اللفظ (١) . وإذا كان الشعر صياغة عند الجاحظ ، ويؤكد عبد القاهر ، فإن « مالارميه » الفرنسي لا يخرج عن ذلك حين يقول : « الشعر لا يصنع من الأفكار ولكنه يصنع من الألفاظ » (٢) .

ولا يغفل عبد القاهر بعد تأكيد هذه لعلاقات النص ، ولرمزية اللغة وللجانب الجمالي في الصياغة — أهمية المعاني الثانوية في النص ودلالاتها الجمالية ، فهي التي تعطى الأسلوب دلالاته البلاغية ، وتمنحه قيمة الجمالية ، وكثير من المهارة الأدبية هو في إطلاق تلك المعاني الثانوية لتؤثر تأثيرها في الخيال وعبد القاهر يتلاقى معه في ذلك كل النقاد في مختلف الآداب . يقول « كرومي » : « المعنى الذي نجده في معاجم اللغة للكلمة ما هو إلا النواة التي يتجمع حولها طائفة من المعاني الثانوية ، وكثير من المهارة الأدبية عبارة عن إطلاق تلك المعاني الثانوية ، لتؤثر تأثيرها في الخيال » (٣) ، وهذه المعاني الثانوية ذات

(١) « النقد الأدبي » ، للدكتور شوقي ضيف .

(٢) « الأدب وفنونه » ، لعز الدين اسماعيل .

(٣) « قواعد النقد الأدبي » .

أصالة كبيرة في الصورة الأدبية ، (١) .

ومن كل هذه القيم صاغ عبد القاهر نظريته النقدية الجديدة ، أو فلسفته البلاغية والجمالية ، ونعجب عندما نتأمل كيف رد عبد القاهر المعاني إلى النظم بناء على مذهبه في رمزية اللغة ، وكيف نهج في نقد النصوص نهجا تأريخا موضوعيا لينتهى إلى الذرق الذي يدرك الحقائق ويحس بالفروق ووجوه الكلام وأسراره ، فالأدب عند عبد القاهر فن لغوي ، واخصاص الفكرة أو الاحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون . (٢)

وهذه النظرية الجديدة عند عبد القاهر ، بما اشتملت عليه من تطبيقات وشروح لم يعرض لها أحد قبله يمثل هذه النظرة العميقة ، والفهم النقدي الاصيل ، وبعض الباحثين يرجعون هذه النظرية إلى الجاحظ أو إلى الواسطي (٣٠٦ هـ) صاحب كتاب ، د اعجاز القرآن في نظمته ، د أو إلى د متى بن يونس ، في مناظرته د للسيرافي ، التي رواها التوحيدى في كتابه د الامتاع والمؤانسة ، ، وآخرون يرجعونها إلى أرسطو ، ولا شك أنهم أشد ظلما للحقيقة ولمكانة عبد القاهر ونظريته في مناهج النقد العربى والعالمى .

وإن كان عبد القاهر يسير فى ظل ابن جنى والقاضى عبد الجبار فى كتبهما : الخصائص ، والمغنى .

(١) د الشعر المعاصر ، للمحرق .

(٢) د الميزان الجديد ، للتدور .

عيار الشعر

لابن طباطبا

- ١ -

ابن طباطبا محمد بن أحمد العلوى الاصبهاني من أشهر نقاد اواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجرى ، ومن أعلام الأدب والشعر ، وكتابه « عيار الشعر » من أهم كتبنا التراثية فى النقد ، وهو مصد جليل فى الدراسات النقدية والبلاغية والأدبية .

ولابن طباطبا كتاب آخر مفقود يذكره فى كتابه « عيار الشعر » ، واسمه « تهذيب الطبع » ، وهو مختارات شعرية لأعلام الشعراء ، جمعها لتكون نبراسا لشباب الشعراء ، يهديهم إلى روائع الشعر ، ومناهج نظمه ، ومذاهب الشعراء فى معانيه وأساليبه .

وله كتاب آخر فى العروض يذكره ياقوت فى « معجم الأدباء » (١) ويقول : إنه لم يسبق إليه .

ومن « عيار الشعر » نسخة مخطوطة فى الاسكودريال ، يرجع تاريخ نسخها إلى عام ٧٧٠ هـ . وقد قام معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية فى القاهرة بتصويرها . وعن هذه المصورة نشر الكتاب عام ١٩٥٦ هـ الدكتوران طه الحاجرى ومحمد زغلول سلام ، وأصدرته المكتبة التجارية بالقاهرة .

وقد ولد ونشأ وعاش ابن طباطبا في أصبهان بعيداً عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية .

وكانت أصبهان من مراكز الثقافة والحضارة الإسلامية في إيران آنذاك (١) وفيها نشأ أبو الفرج الأصبهاني (٣٥٦ هـ) صاحب كتاب « الأغاني » ، وفي رحابها عاش الراغب الأصفهاني صاحب كتاب « محاضرات الأدباء » ، وأبو نعيم الأصبهاني صاحب كتاب « حلية الأولياء » . ومن علمائها : أبو عبد الله حمزة بن الحسن الأصبهاني صاحب كتاب أصبهان ، وعلي بن حمزة الأصبهاني ، وسوى هؤلاء الأعلام من الأدباء والشعراء والكتاب والمؤلفين .

ويرجع نسب ابن طباطبا إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما . وقد نشأ بأصبهان ولم يفارقها قط ، وأخذ عن علمائها ، ونفع في الكتابة والأدب والشعر والتأليف ، وكان بينه وبين أدباء عصره صلات أدبية وثيقة ، ومن

(١) أصبهان مدينة الحضارات والفنون في إيران الإسلامية ، وتبعد عن طهران بمقدار ٢٠٠ كم ، وفيها كثير من الآثار الإسلامية القديمة . ولوقعها الجغرافي الممتاز في وسط إيران وجوها المعتدل ، اختارها السلاجقة عاصمة لهم في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وفي القرنين العاشر والحادي عشر اتخذها الصفويون عاصمة لدولتهم ، فازدادت سعة وانتشاراً وعمراناً وازدهاراً ، وقد زارها الرحالة العرب القدامى ، ومنهم ابن بطوطة . ووصفوها بأنها مدينة عامرة تحيط بها البساتين والروج . وسكانها اليوم نحو السبعمائة ألف ، وتشتهر بالفنون وبعض الصناعات التقليدية . وفيها اليوم جامعة حديثة تعرف باسمها ..

بينهم ابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) وكان ابن المعتز طجعا بذكره ، مقدمة له على سائر أهله « من العلويين الشعراء » ، ويقول : ليس في ولد الحسن من يشبهه ، وكان ابن طباطبا طول أيامه مشتاقا إلى ابن المعتز ، متمنيا أن يلقاه ، أو يرى شعره . فأما لقاءه فلم يتفق له لأنه لم يفارق أصبهان ، وأما ظفروه بشعره ، فإنه اتفق له آخر أيامه كما يقول ياقوت في معجم الأدباء (١) .

وكان ابن طباطبا يعد من مشاهير أعلام أصبهان وشعرائها كما ذكره حمزة الاصبهاني في كتابه ونقله عنه الثعالبي في « يتيمة الدهر » (٢) . ويقول ياقوت عنه في « معجم الأدباء » : إنه « شاعر مفلح ، وعالم بحقق ، شائع الشعر ، نبه الذكر » .

- ٣ -

أما كتاب « عيار الشعر » فهو من أوائل الكتب التي ألقت في النقد ، ومنها : فحول الشعراء للاصمعي (٢١٦ هـ) ، وطبقات الشعراء لابن إسماعيل (٢٣١ هـ) ، الشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، والرسالة العذراء لابن المدبر (٢٧٩ هـ) وقواعد الشعر لثعلب (٢٩١ هـ) ، والبديع لابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر (٢٦٠ - ٣٣٧ هـ) .

وفي « عيار الشعر » صلات مشابهة بينه وبين مقدمة « الشعر والشعراء » لابن قتيبة . ويقول ابن طباطبا في فاتحة الكتاب .
« فهمت - حاطك الله - ما سألت أن أصفه لك من علم الشعر ، والسبب

(١) ١٧ : ١٥٠ وما بعدها - المرجع السابق .

(٢) ٣ : ٢٦٧ يتيمة الدهر للثعالبي نشر الصاوي - ١٩٣٤ القاهرة .

الذى يتوصل به إلى نظمه ، وتقريب ذلك على فهمك ، والتأتى لتيسير ما عسرته عليك ، وأنا مبين ما سألت عنه ، وقانع ما يستغلق عليك منه ، (١) .

- ٤ -

وفى الكتاب تناول ابن طباطبا قضايا أدبية وبلاغية ونقدية كثيرة .
فى القضايا الأدبية التى أثارها ابن طباطبا :

١ - تناول ضرورة الوزن ، الموسيقى ، للشعر ، وأن الطبع والذوق يغنيان فى ذلك عن العروض ، وأما من اضطرب عليه الذوق فهو لا يستغنى عنه (٢) .

٢ - ويرى أن الشعر إن عرى من معنى بديع فلا يصح أن يعمرى من حسن الديباجة ، وأن ما خالف هذا - أى خلا منهما معا - ليس بشعر (٣)
فالشعر جسد وروح ، فجسده النطق ، أى اللفظ ، وروحه المعنى (٤)
وهذا هو أساس نظرية ابن رشيق فى الصلة بين اللفظ والمعنى .

٣ - وتحدث عن أدوات الشعر : من التوسع فى اللغة والنحو ، والرواية لفنون الآداب ، والمعرفة بالآيام والأنساب ، والوقوف على مذاهب العرب فى الشعر ، ومناهجهم فى نظمه وأسلوبه ، وفى الصياغة ، والبلاغة ، لتكوين القصيدة بعد نظمها عملا فنيا جيدا ، ولتكون كالسيكة المفرغة ، والوشى المنعم ، والعقد المنظم ، فتسابق معانيها ألفاظها ، وألفاظها معانيها . وتكون الألفاظ متفاداة لما يراد له ، وغير مستكرهة ، وتكون القوافى كالقوالب للمعاني فيكون ما قبلها مسوقا لها ، ولا تكون هى مسوقة إليه (٥) .

(٢) ص ١٧ المرجع نفسه

(١) ص ٣ عيار الشعر

(٤) ص ٤ وه عيار الشعر

(٣) ص ١٢١ المرجع نفسه

(٥) ص ٦٥ المرجع نفسه .

٤ - وتكلم عن صناعة القصيدة وطريقة بنائها، وأن الشاعر في نظمها يجب أن يكون كالنساج الحاذق، وكالنفّاش الرفيق، وكناظم الجواهر الذي يؤلف بين النفيس واللين منها، ولا يشين عقوده بأن يفات بين جواهرها في نظمها ونسيقها (١). ويستطرد إلى ذلك أيضاً في آخر الكتاب، حيث يتحدث عن تأليف الشعر (٢)، كما يتحدث في أول الكتاب عن صناعة الشعر، وهنا يحتم على الشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها، لتنظم له معانيها، ويتصل كلامه (٣). ويحتم أن تكون القصيدة كلها كأنها مفرغة إفراغا واحداً، فلا تناقض في معانيها، ولا تفرق في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، بل تقتضى كل كلمة ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها (٤).
أوليس ذلك شبيهاً بما نغنيه الآن بوحدة القصيدة، أو الوحدة العضوية للقصيدة ؟

٥ - ويتحدث ابن طباطبا في كتابه عن شعراء المولدين وأنهم أتوا فيه بمجائب استفادوها من تقدمهم، ولطفوا في تناول أصولها منهم (٥) لأن المتقدمين قد سبقوهم إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح وخلاصة ساحرة (٦) وحتم عليهم ألا يظهروا شعرهم إلا بعد الثقة بجودته (٧)، وبأنه صار كالسبيكة المفرغة التي جمع فيها صاحبها كل بلاغات القدماء والمحدثين ومعانيهم الرائعة (٨).

٦ - ويقسم ابن طباطبا الشعر أنساباً :

(١) ص ١٢٤ المرجع نفسه	(٢) ١٢٤ عيار الشعر
(٣) ١٢٦ و ١٢٧ المرجع نفسه	(٤) ص ٨ المرجع نفسه
(٥) ص ٩ المرجع نفسه	(٦) ص ٩ عيار الشعر
(٧) ص ١٠ المرجع نفسه	(٨) ص ٧ المرجع نفسه

أ - فنه شعر محكم متقن أنيق اللفظ حكيم المعنى عجيب التأليف (١)، ويمثل لذلك الشعر (٢). ويذكره في موضع آخر بأنه المعنى البارع الذي برز في أحسن معرض وأرق لفظ (٣).

ب - شعر - إذا انتقد - مخرج المعنى ، مزيف اللفظ ، ليس له حلاوة (٤) ، فهو مستكره الالفاظ متفاوت النظم قبيح العبارة (٥) سواء بتعقيد الفاظه (٦) أم بالاغراق في المعنى (٧) ، ويمثل له بقصيدة كاملة للاعشى الشاعر الجاهلي المشهور ، تبلغ ستة وسبعين بيتا ، ويقول أولا إنه لا يعلم منها خمسة أبيات (٨) ، ثم يقول بعد أن ذكرها كلها : إن التكلف فيها ظاهر إلا في ستة أبيات يذكرها (٩) ، ثم يأتي بجزء من قصيدة أخرى للاعشى مثالا آخر لهذا اللون من الشعر (١٠) . ويذكر قصيدة أخرى عكس هذا اللون (١١) أي أنها من القسم الأول السابق .

ج - شعر حسن اللفظ واهى المعنى (١٢) .

د - شعر رث الصياغة صحيح المعنى (١٣) .

(١) ٤٩ - ٦٧ المرجع نفسه (٢) ٨٩ من المرجع نفسه

(٣) ص ٧ المرجع نفسه . (٤) ص ٤٠ المرجع نفسه

(٥) ص ٤٠ وما بعدها - المرجع نفسه

(٦) ص ٤٠ وما بعدها - المرجع نفسه

(٧) ص ٤٥ المرجع (٨) ٦٧ - ٧٤ المرجع

(٩) ص ٧٤ المرجع (١٠) ٧٤ و ٧٥ عيار الشعر

(١١) ص ٧٥ المرجع نفسه (١٢) ص ٨٣ - ٨٧ المرجع نفسه

(١٣) ٨٧ - ٨٩ المرجع نفسه

٥ - شعر لم يراع فيه المقام ، بل زادت فيه قريحة الشاعر - أى ملكته الشعرية - على عقله (١)

وذلك كله قريب إلى ما ذكره ابن قتيبة في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » ، من أن من الشعر ما حسن لفظه وجاد معناه ، ومنه ما قبح لفظه ومعناه ، ومنه ما قبح لفظه وحسن معناه ، وما حسن لفظه وقبح معناه .

وكلام ابن طباطبا هنا في أقسام الشعر لا يجمعه موضع واحد ، بل هو مفرق في جميع فصول الكتاب . ولسنا هنا وقد جمعناه من مواضع المتفرقة نستطيع أن نعرف مدى قربه من كلام ابن قتيبة وتأثره به .

- ٤ -

ومن القضايا البلاغية التى أثارها ابن طباطبا في كتابه « عيار الشعر » :

١ - قضية اللفظ والمعنى حيث عرض لها في إيجاز شديد ، ورأى أن للمعانى ألفاظا تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها (٢)

كما حتم العناية باللفظ وبلاغته ، وبالمعنى ودروعه وجدته ، ورأى أن الشعر لا يكون شعرا إلا إذا استكمل كل ذلك كما سبق .

٢ - وتناول بلاغة التشبيه ودوائمه وصوره وأقسامه بالتفصيل (٣)

٣ - وتحدث عن حسن التخلص (٤) .

(١) ص ٩١ - ٩٥ المرجع نفسه - ويذكر نماذج للشعر المعيب لفظا ومعنى (ص ٩٦) . وللشعر المستكره الألفاظ القلق القوافي الردىة النسيج (١٠٢) ، ولما كان عكسه (١٠٥ عيار الشعر) ، أى جاء سهلا سلسا ومثلا للشعر البعيد الاشارات ، أى المجازات والاستعارات والكنائيات البعيدة (ص ١٢٠) .

(٢) ص ٨ عيار الشعر (٣) ص ١٧ - ٢١ المرجع نفسه

(٤) ص ١١١ - ١١٩ المرجع نفسه .

٤ - وعن مطلع القصيدة أو ما يسميه البلاغيون « حسن الابتداء » (١) .

٥ - كما أشار في كتابه إلى مراعاة المقام ، أو ما نسميه مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، في مواضع كثيرة ، سبق أن أشرنا إلى بعضها .

٦ - كما أشار إلى الإفراط في المعنى أو الغلو أو المبالغة في مواضع كثيرة . وذلك كله يجعل كتاب « عيار الشعر » من الكتب الرائدة في بحوث البلاغة العربية . وأنه كان من المصادر الأولى للبلاغيين العرب الذين اهتموا في القرنين الرابع والخامس الهجري بآراء من سبقوهم في البلاغة العربية وقواعدها ، وبخاصة بما كتبه ابن طباطبا في « عيار الشعر » .

- ٥ -

ومن القضايا النقدية التي أثارها ابن طباطبا في كتابه « عيار الشعر » ما يلي :

١ - قضية للسراقات الشعرية التي تحدث عنها ابن طباطبا حديثا جيدا ، حيث رأى أن الشاعر إذا تناول المعاني التي قد سبق لإيها ، فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب ، بل وجب له فضل إحسانه ، ويمثل ابن طباطبا للسراقات الشعرية بمثل كثيرة (٢) . وينصح من يأخذ معنى لغيره بأن يتلطف في الحيلة ، ويدقق النظر في تناول المعنى واستعارته حتى يخفى على النقاد ، ويعدد طرق هذا الاخفاء ، وأهمها أن ينقله من الغرض الذي قاله فيه الشاعر الذي سبقه إلى غرض آخر بعيد عنه (٣) .

(١) ص ١٢٢ - ١٢٤ المرجع نفسه (٢) ٧٦ - ٨٣ عيار الشعر

(٣) ص ١٤ عيار الشعر

٢ - وفي الكتاب في مختلف فصوله نقد للشعر وللشعراء يدل على ذوق مرهف، وملكة نقدية محكمة .

٣ - ويتحدث ابن طباطبا عن « عيار الشعر » أى ميزانه الذى يوزن به فىرى أنه الذوق قبل كل شئ. فاقبله واصطفاه فهو جيد، وما عابه ونفاه فهو معيب (١) .

ويعمل لى قبول الذوق للشعر الجيد بأن النفس تسكن إلى كل ما وافق هواها ، وتقلق بما يخالفه (٢) ، وبأن هذا الشعر أجيد موافق للحال والمقام (٣) .

ويرى أنه إذا اجتمع للفهم - أى للذوق - اعتدال الوزن ، وصواب المعنى ، وحسن الالفاظ ، تم قبوله لهذا الشعر . وإن نقص جزء من أجزائه ، كان انكار الفهم - أى الذوق - له على قدر نقصان أجزائه (٤) .

وهذا الميزان شبيه إلى حد محدود بالميزان الذى وضعه قدامة حيث رأى أن عناصر الشعر أربعة وهى بما تتركب منها ثمانية . وحدد قدامة عناصر الجودة فى كل عنصر من عناصر الشعر ، اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، وما تتركب منها ، فرأى أن الشعر إذا كان محتويا عليها كان شعرا جيدا ، وإذا كان فى عناصر الشعر ما يناقض أسباب الجودة التى ذكرها كان رديئا .

إن الاحتكام إلى منهج فى النقد صار محمدا عند ابن طباطبا ، وهو عند

(٢) ص ١٥ عيار الشعر

(١) ص ١٤ عيار الشعر

(٤) ص ١٥ عيار الشعر

(٣) ص ١٦ عيار الشعر

قدامة أكثر وضوحاً ودقة وتحديداً ، مع اختلاف عناصر هذا المنهج عند
ناقدينا الكبيرين .

٤ - ويتحدث ابن طباطبا في كتابه عن ضرورة ملامة معاني الشعر
لمبانيه ، أى لألفاظه (١) .

إلى غير ذلك من قضايا النقد التى أثارها ، ويبدو فيها أنه كان يحاول
في أوائل القرن الرابع الهجرى فى أصبهان أو أصفهان وضع منهج نقدى
للشعر ، فى الوقت الذى كان قدامة يحاول فيه ذلك فى البصرة ، وكان الناشئ
الأكبر (٢٩٣ هـ) يحاول ذلك أيضاً فى القسطنطينية فى مصر .

- ٦ -

وبعد فإن كتاب « عيار الشعر » خطوة فى طريق الاهتداء إلى منهج نقدى
ثابت لنقد الشعر ، وهو بما يحتوى عليه من آراء السابقين فى الشعر ونقده
وصناعته ثروة نقدية ذات أهمية كبيرة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ،
وإن كان السابقون لابن طباطبا قد نجحوا فى السير بالنقد خطوات واسعة
فى طريق التعميد والتأصيل له ، ووضع أصول يرتكز عليها .

فالأصمعى وضع مقياساً لفحول الشعر وطبقه ، وابن سلام وضع
أساساً لطبقات الشعراء وأجاد تطبيقه ، وابن المعتز وضع أساساً لنظرية
البدیع فى النقد العربى ، وقدامة وضع أساساً للمنهج الموضوعى فى النقد
العربى ، وطبق ذلك فى كتابه ، وابن طباطبا وضع أساساً للنقد التأثرى وطبق
ذلك المنهج على الشعر والشعراء ، وجاء النقاد العرب الكبار ، فوضعوا
نظرية عمود الشعر العربى وطبقوا هذه النظرية على شعراء كثيرين ، وفى

(١) ص ١٢٠ عيار الشعر .

مقدمتهم أبو تمام (٢٣١ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ) ، وكان من أشهر مقدماتهم هذه النظرية بعد ابن طباطبا أبو الحسن الأمدى (٢٧١ هـ) صاحب كتاب الموازنة ، بين الطائيين ، . ولا نفى جهود الجاحظ من قبل في وضع أساس نظرية النظم وتطبيقها في النقد العربي ، حتى جاء عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) فتوسع في دراسة النظرية وفي تطبيقاتها ، وصارت نظرية نقدية وبلاغية بيرة ، كانت الركيزة الأولى في وضع قواعد البلاغة العربية هؤلاء علماؤنا ، وهذا تراثنا العظيم ، في النقد الذي تحول منذ القرن الثامن الهجري إلى نظريات ومذاهب أترى بها الفكر العربي في قديمنا الحالى ، من حيث وقف هذا الفكر بعدم يتلمس الطريق إلى التجديد ، حتى أتاح له الاتصال بالغرب أن يأخذ عنه ويتلذذ عليه في مذاهب النقد ، وشتان بين شخصيتنا القديمة الواضحة المستقلة في النقد وبين تبعيتنا الحاضرة المقلدة التي لا تهتدى إلى حقيقة جديدة في النقد ، بل تأخذ عن الغرب وتنقل عنه وتقلده في مذاهبه وأصوله ومدارسه .

وانى لأرجو أن تكون لنا مناهج مستقلة في النقد ، وأن تكون لنا شخصيتنا الواضحة فيه ، وما ذلك علينا وعلى الله يبيد .

نقد الشعر

لقدامة بن جعفر

- ٢ -

قدامة بن جعفر ٢٧٦ - ٣٢٧ هـ : ٨٨٩ - ٩٤٨ م ، من أشهر النقاد العرب ، الذين أثروا حركة النقد الأدبي في اللغة العربية ، ودفعوا بها إلى الأمام دفعات قوية ، ووجهوا النقد والنقاد وجهة جديدة استمر صداها على طول العصور . وكتابه « نقد الشعر » ، صار أصلاً لجميع الدراسات النقدية العربية ، لأنه استحدث مذهباً جديداً فيها صار قدامة صاحبه ، وله فضل الكشف عنه .

وكان لأراء قدامة في نقد الشعر صدى كبير عند النقاد القدماء ، بل بل لقد أحدثت ضجة كبيرة في وسطهم ، فالأمدي د - ٣٧١ هـ ، ألف كتاباً في تبين غلط قدامة في كتابه « نقد الشعر » ، وألف عبد اللطيف البغدادي - ٦٢٩ هـ ، كتاباً في شرح نقد الشعر لقدامة ، وكتاباً بعنوان « كشف للظلام عن قدامة » .

وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء كما يقول مؤرخوه . ونسب إليه كتاب « نقد النثر » الذي حققه الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادي . وقد وجدت نسخة خطية تامة من الكتاب نفسه في مكتبة تشستر بيتي برقم ٧٦٧ تحت عنوان « كتاب البرهان في وجوه البيان » ، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، فصحت نسبة الكتاب لابن وهب المعاصر لقدامة بعد ما ثار جدل كبير حول صحة نسبة كتاب « نقد النثر » إلى قدامة ، وكان الذي ظهر من الكتاب ، اعتماداً على نسخة الاسكوريال باسم « نقد النثر » ، وتحقيق الدكتورين طه حسين والعبادي هو نحو ذلك الكتاب . وقد نشر الكتاب كاملاً أخيراً الدكتور أحمد مطلوب في بغداد .

ولقدامة كتب كثيرة من مثل :سر البلاغة في الكتابة ، وصناعة الكتابة ، وكتاب الألفاظ ، وكتاب الخراج ، وغيرها ، وله كتاب آخر أشار إليه ياقوت في « معجم الادباء » وهو الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام .

وقدامة في مقدمة كتابه « نقد الشعر » يرى أن كتابه أول كتاب يؤلف في النقد ، فيقول في مقدمته : « ولما وجدت الأمر على ذلك ، وتبينت أن الكلام في هذا الأمر - أي النقد - أحصر بالشعر من سائر الأسباب . الآخر ، وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه رأيت أن اكتمل في ذلك بما يبلغه الوسع » .

وقدامة يغفل جهود العلماء السابقين في تأصيل قواعد للنقد من مثل : الأصمعي في كتابه « فحواله الشعراء » وابن سلام في كتابه « طبقات الشعراء » . والجاحظ فيما كتبه عن النقد في كتابيه « البيان والتبيين » ، والحويان وغيرهما ، وابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » . والمبرد في كتابه « قواعد الشعر » ، وتطلب في كتابه له بعنوان « قواعد الشعر » . أيضا ، وقد حققته وظهر مطبوعا عام ١٩٤٨ ، وابن المعتز في كتابه « البديع » ، وسوى هؤلاء الاعلام الخالدون في تراثنا العربي والنقدي .

وقد فصل قدامة في كتاب « نقد الشعر » مذهبه في النقد : فقسم الشعر إلى عناصره الأولى المفردة من اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، وإلى عناصر أربعة أخرى مركبة من هذه العناصر ، ويذكر أن الشعر قد يكون جيدا أو رديئا أو بين الأمرين وأنه صنعة ككل الصناعات يقصد إلى طرفها الأعلى . ويقول : إنه يذكر صفات الشعر التي تبلغ به غاية الجودة ، فإن وجد بضد هذه الحال كان شعرا في غلبة الرذالة ، وإلا فهو بين بين أي بين طرفي الجودة والرذالة ، بحسب مدى قربه من أي الطرفين أو توسطت بينهما .

فالعناصر الشعر عنده هي : اللفظ - المعنى - الوزن - القافية . ويتألف من هذه العناصر أربعة عناصر أخرى هي :

١ - اتئلاف اللفظ مع المعنى .

٢ - اتئلاف اللفظ مع الوزن .

٣ - اتئلاف المعنى مع الوزن .

٤ - اتئلاف المعنى مع القافية .

وصفات اللفظ الجيد عنده هي : سباحة اللفظ - سهولة مخارج الحروف - الخلو من البشاعة - الفصاحة .

وصفات الوزن الجيد هي : سهولة العروض - الترجيع .

وصفات القوافي الجيدة هي : عذوبة حرف القافية - سهولة مخرجها - التصريح في المطلع .

وصفات المعنى الجيد هي : الوفاء بالغرض المقصود . أما الغلو في المعنى فيؤثره قدامة على الاختصار على الحد الوسط ، ويقول : إنه عنده أجود المذهبين ، وإنه هو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وحديثا حتى قال بعضهم : دأب الشعر أكذبه ، وإنه مذهب فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لقتهم ، ويقصد بهم أرسطو صاحب أقدم مدرسة نقدية في التراث النقدي الأوربي . ويؤكد قدامة أن الغلو يعد من باب الخروج عن الموجود والدخول في باب المعلوم فالمراد به المثل وبلوغ النهاية في النعت . ولما كانت المعاني عند قدامة لا نهاية لها فقد عدد نعوت الشعر في أغراض الشعراء من مدح وهجاء وفخر ورثاء : ووصف الخ .

فنعت المدح الجيد عنده هو الصدق ، ويقسم الفضائل الانسانية إلى التقسيم الفلسفي المشهور ، العفة والشجاعة والعدل والعقل ، ويقول .

إن المدح الجيد يكون بهذه الصفات أو بعضها ، إن كان ذلك يعد قصورا .
وقد يصف الشاعر المدوحين ببلوغ الغاية في هذه الصفات من باب
الغلو والمبالغة .

والهجاء ضد المدح في رأيه . وصفاته مضادة لصفات المدح . ويقرر
أنه ليس بين المدحة والمريثة فرق إلا في اللفظ دون المعنى .. ومواجهة
غرضه هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المدح - ولعل عبد الصمد بن المعتز
د - ٢٣٠ هـ ، هو أول من قال بهذا الرأي حيث روى عنه ابن رشيق في
« العمدة » - ١٦ ص ١٠٣ - « إذا ثبت قلت : كنت » - ولانوافقه على ذلك
كله ..

ثم يذكر قدامة نعوت الوصف الجيد ، ويتحدث من أجل ذلك عن
التشبيه ، والغزل ويقول : إن هذه هي نعوت أغراض الشعر التي نحتها
الشعراء من المعاني . فأما ما يعم جميع المعاني من نعوت الشعر فهي : صحة
التقسيم - صحة المقابلة - صحة التفسير - التتميم - المبالغة - التكافؤ الالفاظ -
الاستغراب أو الطرافة .

ويستقصي قدامة نعوت ائتلاف اللفظ مع المعنى ، من : مساواة -
إرداف - كناية - إشارة - تمثيل - مطابق وبجائس .

ويذكر نعوت ائتلاف اللفظ مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع الوزن ،
ومع القافية من التوشيح والايغال .

ويذكر عيوب الشعر في اللفظ ، والمعنى ، والوزن ، والقافية ، وعيوب
ائتلاف اللفظ مع المعنى ، ومع الوزن ، وعيوب ائتلاف المعنى مع الوزن ،
ومع القافية ، وهي كلها يعكس ما ذكره في صفات الجودة ..

يكون هذا المنهج العقلي المحض في النقد مذهب قدامة النقدي ، الذي صار حديث النقاد في عصره إلى اليوم .

فقدامة يحكم عقله المنطقي في النقد إلى أبعد حد ، فالدبج الجيد عنده بذكر الفضائل الانسانية ، فإذا كان المدح بشرف الآباء كان معيبا ، لأنه ليس مدحا بالفضائل . والهجاء ببنى الحسب والنسب معيب ، ويقرر أنه ضد المدح ، والمرئية في رأيه هي المدح مع جعل الأسلوب ماضيا . وهذا خطأ في إغفال العاطفة والتجربة الشعرية ، وإغفال جوهر الموضوع الشعري نفسه . وحين يرى قدامة أن المبالغة أجود ، يعود فيقيدها بمنهج العرب ومألفهم ، ثم يقيدها بالأتمخرج إلى حد الممتنع الذي لا يكون . وقدامة مع تفضيلة للمبالغة يرى أن الشاعر كثير عزة في قوله لعبد الملك بن مروان :

على أبي العاصي دلاص حصينة

أبلغ وأجود من الأعشى الشاعر الجاهلي في قوله :

كنت المقدم غير لابس جنة

أي كنت المقدم في الحرب دون أن تكون لابسا دروعا وحديدا والضرب . وقدامة ينسى أن العرب قد تصف الرجل بالشجاعة ، وقد تصفه بالحذر والاحتراس من المخاطر بلبس الدروع ، وذلك أسلوبان من أساليب العرب في المدح .

ويجمل قدامة طرافة المعنى واختراعه ليست نعتا للشعر بل للشاعر . وذلك غريب في الفهم ، وقد يستجيد أبياتا ويعيب أخرى دون سبب

معروف ، وغالفا لأذواق النقاد . بل يجعل بيت ابن هرمة الشاعر المشهور
في الملح بالكرم :

تراه إذا ما أبصر الضيف قلبه

يكله من حبه وهو أعجم

تناقضا معيبا ، إذا كيف بكلم الكلب الضيف مع قوله « وهو أعجم »
ويعيب كذلك قول الشاعر في المدح :

كالغيث في كل ساعة يكف

لأنه - كما يقول - ليس في المعرود أن يهطل المطر كل ساعة . ويعيب
بيت زهير بدعوى التناقض :

قف بالذمار التي لم يعفها القدم

بلى وغيرها الأرواح والديم

لقد تأثر قدامة في كتابه بالثقافات العقلية التي كانت سائدة في البصرة
في عصره ، والتي تلتذ عليها ، وأخذ منها . ففي القرن الثالث ، الذي عاش
قدامة في آخره ، في البصرة بالذات ، انتفت الثقافات العربية الإسلامية
والمرجحة الدخيلة النقاء فكريا على نحو رائع ، ونشأت طبقة من المثقفين الذين
تثقفوا على هذا الفكر الانساني ، وكان في مقدمتهم المعتزلة ، الذين رجعوا
إلى المنطق اليوناني ، وقرأوا فلسفة أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ،
وترجموا آراء الأمم الأخرى في البيان ومناهجه . وترجموا - فيما ترجموه -
كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية ، فالخطابة ترجمه اسحق بن حنين
.. ٥٧٨ هـ ، وكتاب الشعر اختصه الكندي - ٢٥٣ هـ .

وأخذت هذه الطبقة تؤلف في صناعة الشعر ، وألف الإسكندري أول الفلاسفة العرب رسالة في صناعة الشعر ، ولأبي زيد البلخي كذلك كتاب بهذا العنوان أيضاً ، وكذلك لأبي هفان المعنزي راوية شعر أبي نواس كتاباً بالعنوان نفسه .

وكان متكلمو المعتزلة بتضلعمهم من الثقافة اليونانية أصحاب آراء كثيرة في النقد والبيان .

ومن البدهي أن يقرأ قدامة كل هذه الثقافات وأن يستفيد منها ويتأثر بها ، وقد استفاد قدامة من كتابي أرسطو : الخطابة ، والشعر ، وإن كان الدكتور طه حسين يرى إنه كان يجمل كتاب الشعر ، على أن تشريع الفلسفة للادب يظهر في رأي الدكتور طه لأول مرة في كتاب " نقد الشعر " ونظرية الفضائل وقيامها على أربع صفات ، وحديثه عن المقاربة في الاستعارة ، وعن الاستمادة اللفظية ، هي صورة مأخوذة من فلسفة أفلاطون وآراء أرسطو .

وقدامة بذلك يبين في منهجه منهج النقاد العرب الاصلاح ، من مثل الأصمعي وابن الأعرابي وابن سلام والجاحظ وابن المعتز وابن قتيبة وغيرهم .

وإن كان نهج قدامة العقلي يعد أكبر وأجراً خطوة نحو تدوين البلاغة العربية وأصول النقد والبيان .

وحسبنا أن ثلاثة من كبار النقاد العرب قد أولوا منهج قدامة في نقد الشعر عناية جلي ، وتأثروا به تأثراً عميقاً ، وهم :

١ - أبو هلال العسكري - ٥٣٩٥ هـ ، في كتابه " الصنائع " ،

٢ - ابن سنان الخوافي - ٥٤٦٦ هـ ، في كتابه " سر الفصاحة " ،

٣ - ابن رشيق القيرواني - ٥٤٦٠ هـ ، في كتابه " المعتمد " .

كما تأثر علماء البلاغة والبديع تأثراً شديداً بقدامة وآرائه في نقد الشعر ، ومن البدهى أن يستفيد قدامة من ابن المعتز - ٢٩٦ هـ ، ومن كتابه « البديع » ، فائدة كبيرة ، فكثير من أسباب الجودة عند قدامة هي مما ذكره ابن المعتز في البديع على أنها من صنعة الشعر ومحسناته الفنية .

وبلاغة التجنيس عند قدامة ، ونظرية قرب الشبه في الاستعارة ، والاستعارة من الضد ، وإبتناء الشعر على التخيل أى المحاكاة ، هي كلها مما قرره قدامة وأفاذ منه عبد القاهر الجرجاني - ٤٧١ هـ ، وغيره من النقاد والبلاغيين العرب من بعده .

- ٦ -

هذا هو منهج قدامة في النقد ، ولكن إلى أى مدى يمكن أن نقول : إن هذا المنهج تأثرى أو موضوعى ، وإلى أى الجانبين كان ينحاز قدامة ؟

لقد كان منهج قدامة النقدى يتفق وموضوعية النقد ، فهو يعتمد على مناهج موضوعية يحكم النقاد على أساسها . والنقد الموضوعى مر بأطوار كثيرة خلال عصور التاريخ الأدبى العالمى :

- فن نقد أرسطو الذى بنى على أصول فصلها فى كتابه « الشعر » ، والخطابة .

- إلى نقد قدامة المبني على قواعد ونظرية محددة .

- إلى نقد المدارس الحديثة التى ربطت النقد بعلوم النفس والجمال والاجتماع .

ويرفض الكثير من النقاد موضوعية النقد ، حيث ثاروا على قواعد [أرسطو ، كما ثار النقاد العرب على قواعد قدامة ، وثار المحدثون على

آراء المدارس الحديثة التي تؤمن بموضوعية النقد ، ومن بينهم طه حسين
ومندور والزيات .

ورقف جمهور من النقاد موقفاً وسطاً فدعروا إلى التخفيف من إخضاع
النقد للعلوم الحديثة ، ومنهم الدكتور التويهي وغيره .

وفي نقد نظرية إخضاع النقد للعلوم الحديثة يقول مندور : إن معنى
هذه النظرية الانصراف عن الأدب وتذوقه وفهمه إلى نظريات عامة لا فائدة
منها لأحد ، ورأى وجوب قصر المشتغلين بالنقد جهدهم على دراسة النص
الأدبي ، وبصرح لانسون عميد النقاد في فرنسا بأن التجربة قد حكمت
بفشل تلك المحاولات .

وقد جهد مندور في تقرير أن النقد ذاتي تأثري ويجب أن يظل كذلك
تأثيرياً يخضع للذوق وحده ١١٦٥ - ١٢٩ في الميزان الجديد لمندور ،^(١)

ويعتد ابن سلام والأمدى والقاضي الجرجاني بالذوق ، وكان
عبد القاهر الجرجاني شيخ النقاد العرب يرى أن النقد الأدبي يجب أن
يكون فناً طليقاً لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبي السليم ، وقد سبق
عبد القاهر بمذبه في النقد مدرسة الرومانتيكيين في فرنسا ، التي حاربت
نظرة الكلاسيكيين إلى النقد كعلم له أصوله وقواعده ومناهجه ، ورجعت
إلى الشعور والعاطفة . وإلى هذا نادى سانت بيغ في قوله : « ليس هناك
قواعد تخاق الكاتب الكلاسيكي » ، وقوله : « وقوله : « النقد لا يمكن
أن يصبح علماً موضوعياً ، وسبق دائماً قيقاً في يد من يحاولون استخدامه »
ويقول جول ليمتر : « إننا نحكم بالجودة على ما نحب ، أي أننا نرى حبنا
ما نحب ، وقد فطن الجاحظ والبحثري والصاحب بن عباد إلى أن النقد
شيء مستقل عن كل علم آخر ، وأن قوامه الذوق (١)

(١) النقد العربي الحديث ومذاهبه الخفاجي ،

ويجب أن نلاحظ أن الدكتور محمد مندور يرى أن «تقد الشعر» كتاب بلاغة لا كتاب نقد (١).

أما طه إبراهيم فيرى أن الكتاب دلالة الأولى أن قدامة أول ناقد أخذ الأدب بالتحكم النظرى الفلسفى .

وقد ابتكر قدامة بعض الفنون البلاغية بعد ابن المعتز، مما جعل الدارسين يجعلونه عالماً فى البلاغة لا ناقداً (٢).

ويجعل أحمد أمين الكتاب أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد (٣).

ونهب د . بدوى طبانة إلى أن قدامة يجمع بين النقد والبلاغة (٤).

وفى رأى أن من يقرأ الكتاب قراءة عميقة يحزم بأن قدامة ناقد ، وأن كتابه مؤلف نقدى جليل .

وقد أشاد بنقد قدامة د . إبراهيم سلامة وتحدث عن أثره فى نقل النقد من النزعة الذاتية إلى النزعة الموضوعية (٥).

ولاشك أن قدامة كان ذا ثقافة عربية واسعة وكتابه كذلك يحمل آثاراً من الفكر اليونانى ، فالكتاب مؤلف على طريقة المنطقيين لا على طريقة اللاتنيين .

(١) ٦٤ النقد المنهجى لمندور .

(٢) ١٣٨ و ١٣٩ تاريخ النقد الأدبى عند العرب .

(٣) ٤٤٥ النقد الأدبى لأحمد أمين .

(٤) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى لبدوى طبانة ، - ص ٣٦١ .

(٥) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٢٢٤ .

ويقول د. شكري عياد: إن قدامة أول ناقد عربي حاول أن ينتفع بكتاب الشعر لأرسطو ، وهو وإن كان لم يدخل المحاكاة في تعريف الشعر فقد طبق الأصل الفلسفي العام في المادة والصوت على مسألة كانت ذات أهمية خاصة عند الباحثين في البلاغة في عصره وهي صلة الشعر بالأخلاق فهل المعنى الشريف يرفع من قيمة الشعر ويخفض المعنى الخسيس من قيمته كذلك ؟ ولكن يبدو أن قدامة ، عند كلامه على نعمت الوصف قد كان ينوّه بالمحاكاة من حيث دلالتها على تصوير الشيء المحاكى وتمثله .

ويقول قدامة عند كلامه على الغلو : وكذلك يرى فلاسفة اليونانيين ، في الشعر على مذهب لغتهم ، وهو يريد أرسطو (١) .

وعلى أية حال فإن قدامة لم يستفد من أرسطو مادته النقدية بمقدار ما استفاد من المنهج (٢) .

- ٨ -

وبعد ، فلقد أحدث قدامة بمنهجية النقدى - الذى صورناه لك - فى كتابه " نقد الشعر " ، ثورة فكرية عميقة ، ظهر صداها فى تراثنا النقدى والبلاغى والبيانى ، وفيما ألف من كتب بعده فى البديع .

وصار قدامة حديث العلماء والنقاد فى عصره وبعد عصره ، ولا يزال صداه وفكره النقدى قويا وسائدا ومستمرا فى تراثنا حتى اليوم .

ومن الجدير بالذكر أن معاصره الناقد الناشئ الأكبر ، د. ٢٩٣ هـ ، ينسب إليه كثير من الدارسين أولية النقد ، وينسب آخرون هذه الأولوية

(١) ص ٢٥٧ كتاب الشعر لأرسطو تحقيق د. شكري عياد .

(٢) واجم ٣١٣ قدامة والنقد الأدنى .

إلى قدامة ، ومن حيث يشيد بعض القدماء بالناشئ ، يشيد آخرون بقدامة .
ومن بينهم « التوحيدى » ، فى بعض كتبه فقد ذكر للناشئ كتابا بعنوان
« نقد الشعر » ، وهو مفقود . ويقول التوحيدى عن الناشئ : ما أصبت أحدا .
تكلم فى نقد الشعر وشرحه أحسن مما أتى به الناشئ المتكلم وإن كلامه
ليزيد على كلام قدامة وغيره . ولا مجال هنا للمقارنة بين الناشئ وقدامة
لأن تراث الناشئ النقدى مفقود .

ويحاول بعض الباحثين أن يأخذ مما ذكره ابن رشيق فى كتابه
« العمدة » ، من بعض الآراء للفرقة ما يضىء سبيل البحث عن منهج نقدى
لِلناشئ . ولكنه الضوء الخافت الذى يمكن أن يكشف عن بعض الآثار
للقليلة لنقد الناشئ ، ولا يوصل إلى شئ .

وعلى الجملة فلا يزال قدامة وكتابه « نقد الشعر » ، ومنهج هذا الكتاب
هو صاحب المقام الكبير فى تراث العربية النقدى حتى الآن .

المراجع

(١) راجع ١٣٥ الموازنة للأمدى ، طبعة صبيح ، ومعجم الأدباء في ترجمة الأمدى وقد أهداه الأمدى لابن العميد وقرأ عليه عام ١٣٦٥ هـ .

(٢) ٧/٢ فوات الوفيات لابن شاكر . ولعبد اللطيف البغدادي كتاب قوافين البلاغة واختصر كتاب الصناعتين للمسكوى ، ٧/٢ و ٨ فوات ، - ويروى صاحب كشف الظنون ، إن للبغدادي كتابا اسمه ، تسكلة الصلة في شرح نقد الشعر لقدامة ، ٢٤٦/١ كشف الظنون ، ، وكتابا آخر اسمه ، كشف الظلامة عن قدامة ، ٤٠٠/٢ كشف الظنون ، . ولعل الكتاب الأول هو الاسم الكامل لشرح البغدادي لنقد الشعر . وينسب لابن رشيقي القيرواني كتاب بعنوان ، تزييف نقد قدامة ، ٨٨ تحرير التحبير لابن أبي الأصبح المصري - ١٠٥٤ هـ . ويرجح أنه ليس لابن رشيقي صاحب ، العمدة ، .

(٣) ٤٠٠/٢ كشف الظنون لحاجي خليفة .

(٤) ٣٠٢/٦ - ٢٠٥ معجم الأدباء لياقوت ، ١٨٨ الفهرست لابن التميمي ٣٤/٢ كشف الظنون ، تاريخ بغداد في ترجمة قدامة - قدامة بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طانة ، الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية - في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف .

(٥) نقد النثر بالاسكودريال مخطوط رقم ٢٤٣ .

(٦) ٢٠٤/٦ معجم الأدباء لياقوت .

(٧) طبع نقد الشعر لقدامة طبعات عديدة : فقد نشره س ، ١٠ بونياكر بمطبعة بريل في ليدن عام ١٩٥٦ ، ومن قبل طبع في الجوانب

عام ١٣٠٢ هـ وطبع في القاهرة طبعة أخرى عام ١٩٣٤ بشرح لمحمد عيسى .
منون وبشرح آخر لكمال مصطفى وظهر عن مكتبة الخانجي

(٨) يرى الكثير من الباحثين أن طبقات الشعراء ، أول مؤلف عربي .
في النقد ، راجع : النقد المنهجي لمندور ، ٧٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب .
لطف إبراهيم ، ١٠٨/٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان .

(٩) نقد الشعر لقدامة طبعة ١٩٣٤ بالقاهرة

(١٠) راجع ٢٢٨ - ٢٣١ الوساطة للقاضي الجرجاني - طبعة صبيح ..

(١١) ٢٥٩ الفهرست لابن النديم .

(١٢) ص ٧ مقدمة نقد النثر

(١٣) راجع : ٤١٧ - ٤١٨ طبقات الشعراء لابن المعتز ، ٢١٧ الفهرست .

لابن النديم ، ١٠/١٢ تاريخ بغداد ، ٢/٢٧٧ وفيات الأعيان . ٨٥ مراتب
للنحويين ، ٢/٢٢٨ انباه الرواة ، ٩/١٤٠ حسن المحاضرة ، تاريخ النقد
الأدبي عند العرب لآحسان عباس .

(١٤) ٢/٢٧٣ و ٢/٦١٩ البصائر والذخائر للتوحيدي ، ١٤٧ أصول النقد .

(١٥) ٢/١١٧ البصائر والذخائر .

(١٦) د . يوسف حسين بسكار - مجلة الأديب اللبنانية عدد يونيو ١٩٧٤

منهج الأمدى فى النقد

- ١ -

أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى الأصل ، البصرى النشأة ،
المتوفى عام ٣٧١ هـ ، وصاحب كتاب الموازنة ، بين أبى تمام والبحترى ، من
أعظم النقاد العرب ، وأضخمهم أثراً فى النقد الأدبى ، وأكبرهم توجيهاً
لحركة النقد والنقاد .

ولقد ولد بالبصرة ، واختلف إلى حلقاتها العلمية ، ولما بلغ سن الشباب
توجه إلى بغداد ، وتردد على مجالس العلماء ، يتلقى عنهم اللغة والنحو والشعر
والآداب . ثم عاد بعد حين إلى البصرة كاتباً للقضاة من بنى عبد الواحد ، وبرز
فى الآداب ، وطارت شهرته فى النقد ، وانتهت إليه رواية الشعر القديم
والأخبار فى آخر عمره ، وترك تراثاً كبيراً فى اللغة والنقد . وكان فوق
ذلك شاعراً مجيداً ، وتوفى بالبصرة عام ٣٧١ هـ (١) . ومن كتبه : الموازنة ،
المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء ، تفضيل امرئ القيس على الجاهليين ،
معانى شعر البحترى ، الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبى تمام ، فرق ما بين
الخاص والمشارك من معانى الشعر ، تبين غلط قدامة فى كتابه « نقد الشعر » ،
كتاب ما فى « عيار الشعر لابن طباطبائى من الخطأ .

كان الأمدى ذا ثقافة أدبية واسعة ، وكان يميل إلى الطبع والذوق .
الشعر عنده صحة تأليف ، وعذوبة لفظ ، ومحاكاة عبارة ، والبلاغة عنده .

(١) راجع ص ٧٥ - ٩٣ / ٨ معجم الأدباء لياقوت ، وقد ترجم إليه
السيوطى بإيجاز فى كتابه بنية الوعاة .

فى جمال اللفظ والأسلوب ، وموافقتهما لانهج العربى فى صحة التأليف وجودته ، أما المعانى وسهوها والحكمة وروعها والخيال وجدته ، فى ترف زائد عن الحاجة ، ولها نصيب من حسن الصنعة وبهائها ، ولكن لا تتوقف عليها البلاغة ، وكان يسير فى طريق الجاحظ فى ذلك كله ، فن قبل كان الجاحظ والنقاد يقولون : عليك أن تحتب السوق والوحش ، ولا تجعل همك فى تهذيب الالفاظ ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصاد بلاغ (١) من حيث كان قدامة بن جعفر يتادى بضرورة العناية بالمعنى بمقدار العناية باللفظ ، لأن اللفظ والمعنى عنده عنصران من عناصر الأدب ، وكان يجاهر بأن البلاغة فى شيتين : معنى مبتدع ، ونظم ساحر ، وهو لذلك يجعل مادة الشعر المعانى (٢) ، بعكس الأمدى الذى جعل مادة الشعر هى اللفظ . وكان الأمدى حريصاً على تحكيم النهج العربى فى النقد ، أى تحكيم عمود الشعر ، الذى هو فى أبسط صورة : كل القيم الفنية التى تتحكم فى بناء القصيدة ومن ثم نستطيع أن نقول : إن الأمدى هو أعظم النقاد العرب الذى احتسكوا إلى عمود الشعر ، وجعلوه هو الأساس الأول للنقد والموازنة فى الأدب العربى .

وكتاب « الموازنة » أثر ضخم خالد فى صرح ثقافتنا النقدية وقد ألفه الأمدى فى قرات متقطعة فهو يذكر فى آخر كل فصل أنه سيضيف إلى ما كتب ماسعثر عليه من أخطاء أو سرقات ، وسيلحقه بما كتب ، وهو يقر فى أول كتابه أنه سيوازن بين شعر الشاعرين فيما يتفقان فيه فى الموضوع .

(١) ١٨٢ و ١٨٣ الموازنة - طبع صبيح .

(٢) ص ١٤ سطر ١٦ نقد الشعر لقدامة .

والوزن والقافية واعرابها (١)، ثم يورد فيجمل الموضوع وحده هو أساس الموازنة (٢).

والموازنة من أمهات كتب النقد الأدبي وأصوله، وهي مصدر من أهم مصادر البيان العربي، ويعتمد عليها علماء البلاغة اعتماداً كبيراً، وإذا كانت هي مصدراً من مصادر البيان، فليس ذلك معناه أنها كتاب بلاغة كما زعم ابن الأثير في كتابه «المثل السائر»، حيث أخطأ في ذلك، ثم بنى على هذا الخطأ نقده للموازنة بأنها أغفلت كثيراً من مباحث علم البيان (٣).

والكتاب مقسم إلى خمسة أقسام أو خمسة أبواب:

١ - فالقسم الأول يورد فيه الأمدى آراء النقاد في شعر أبي تمام والبحترى، ويستقصى رأى المتعصبين لهذا أو لذلك:

٢ - والقسم الثاني يذكر فيه الأمدى أخطاء أبي تمام في اللفظ والأسلوب والمعنى.

٣ - القسم الثالث يذكر فيه استعارات أبي تمام المستهجنة، وما جاء في شعره من طباق مستكره ومن سوء نظم، وتعقيد تركيب، ووحش ألفاظ. وما وقع فيه من كثرة زحافات، مما جعل دعبلاً يقول فيه: «لأنه كلامه بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون».

٤ - والقسم الرابع يحلل فيه بايجاز عيوب شعر البحترى.

(١) ص ٢٣ الموازنة.

(٢) ص ١٨٤ الموازنة.

(٦) ص ٢ المثل السائر لابن الأثير.

هـ - والقسم الخامس يوازن فيه بين الشاعرين موازنات جادة في المعاني التي اتفق موضوعها في شعرهما . ويبدأ الموازنة بكلمة بين فيها صعوبة نقد الشعر ، وأن لهذا الميدان رجاله ممن عتوا بكثرة النظر في الشعر وطول الملابس له ، وأنه يجب أن يكون لهؤلاء المرجع في نقد الشعر وصناعته .

ويذكر رأيه في بلاغة الشعر وأنها لا تكون إلا في نظمه وأسلوبه وصحة طبعه . ويقول : إن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأن له من ذلك ما ليس لسوله وإن كانوا لا ينكرون على أبي تمام إجادته في المعاني ، وكثرة استنباطه لها ، واغرابه فيها ، ولا ينكرون كذلك مكانه البارز في حرمها .

ولكنهم يقولون . إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه مع كثرة غرامة بالجنان والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع ، مما ذهب بماء شعره ، فصار غير متشابه الأطراف ، ولا متألف الروح . فهم يسلون له كما يسل له أنصاره لطف المعاني وعمقها وتنوعها ، وبديع الوصف ، وجودة التشبيه والتمثيل ، وسمو الحكمة ، واغراق الخيال . وهي ضالة الشعراء جميعا ، والتي قدم بها امرؤ القيس في الجاهلية : ولكن خصوم أبي تمام يستكفون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعرا ، ويقولون له : فلنكن أن شئت حكيما أو فيلسوفا ، أما الشاعر فالبحترى . ويشرح مذهب البحترى في الشعر ، مقرأ أنه ليس الشعر ولا البلاغة إلا نظما وأسلوبا ، وأن أبرز عناصرهما النظم والأسلوب . ثم ينتقل بعد ذلك إلى الموازنة بين الشاعرين في بقاء الديار ووصف الاطلاع وفي موضوعات أخرى ، وكثيرا ما يقف بجانب البحترى منوها بشعره وبشاعريته إلى نهاية الكتاب .

إن الأمدى في معظم ما كتب كان نافداً محيطاً بكل أسرار اللغة ودقائق

البيان .. ولياقوت رأى في كتابه « الموازنة » ، فهو يقول : « كتاب الموازنة في عشرة أجزاء ، وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه ، ونسب إلى الميل مع البحرى فيما أورده ، والتعصب على أبي تمام فيما ذكره ، والناس فيه على فرقتين : فرقة قالت برأيه في البحرى وغلبة حهم لشعره ، وفرقة أسرفت في التقيح لتعصبه ، وأنه جد في طمس محاسن أبي تمام ، وتزيين مرذول شعر البحرى ، ولعمري إن الأمر كذلك .. وقد يكون لياقوت مصيباً في رأيه هذا إلى حد كبير .

فالأمدي يرجع إلى ذوقه ، فنقده تأثرى لا موضوعى ، وهو يحكم عمود الشعر في النقد ، فيرجع إلى مناهج القدماء في الأداء ويجعلها الحكم في تفضيل الشعراء .

ومع تأثره بآراء النقاد قبله : كالجاحظ وابن سلام وابن قتيبة والاصمعي وابن الأعرابي وخلف وأبي عمرو بن العلاء وسواهم ، فإن له شخصيته المستقلة في النقد ، ونهجه المعروف في الموازنة .

وأصول الكتاب ترجع إلى آراء نقاد القرن الثالث كما يقول طه إبراهيم في كتابه « تاريخ النقد الأدبي عند العرب » ، وقد صرح الأمدي بذلك في الموازنة ، ولكن له فضل التنسيق والإضافة والمنهج والتطبيق والشرح والتحليل والموازنة والحكم . وقد كانت اتجاهات النقاد في القرن الثالث تحكم الهج العربى في النص ، فهم يميزون جيد الشعر من رديئه بعرضه على ميزان الطبع وعلى عمود الشعر ، وكذلك فعل الأمدي ، فاللغة عنده هى كل شيء في النقد ، وللعرب طريق خاص فيما ينطقون من أساليب ، وفيما ينظمون عليه شعرهم من أوزان ، ولهم نهج خاص في مجازاتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وتمثيلاتهم وفي ألوان البديع التى يلون بها في كلامهم من مقابلة وطباق وجناس ، وما إلى ذلك كله . وذلك النهج هو ما يجب على الشاعر أن

يلتفت إليه ، ويتنبه له ، ويأتى بشعره على طريقته ، ويحتذى أسلوبه حذوه
وعلى مثاله ، وهذه هو مسمى بعمود الشعر ، وهو ميزان النقد وأساسه عند
صاحب « الموازنة » . ومن حيث حكم قدامة في نقده عقله حكم الأمدى .
ذوقه ، والنقد عند قدامة موضوعى وعند الأمدى تأثرى والعقل أساس
النقد عند قدامة ، أما الأمدى فأساسه عنده هو العمودية التى ترجع إلى الذوق .
لنستمد منه حكمه عند التطبيق .

ولقد كانت قضية النقد الأدبى فى القرن الرابع هى الموازنة بين الطائيين :
أبى تمام والبحتري ، والحكم كذلك على شاعرية أبى الطيب المتنبي وشعره ،
ومن أشهر نقاد هذا القرن : قدامة بن جعفر صاحب كتاب « نقد الشعر » ،
وقد توفى قدامة عام ٣٣٧ هـ ، والقاضى الجرجاني صاحب كتاب « الوساطة
بين المتنبي وخصومه » ، وقد توفى الجرجاني عام ٣٩٢ هـ على ما أرجحه ،
والحاتمى صاحب « الرسالة الحاتمية » فى نقد شعر المتنبي . . وقد توفى عام
٣٧٣ هـ ، وابن وئج التنيسى (٣٩٣ هـ) صاحب كتاب « المنصف فى سرقات
المتنبي » ، وأبو بكر الباقلاني (٤٠٣ هـ) صاحب كتاب « اعجاز القرآن » .
وعن لهم قدم راسخة فى النقد فى هذا القرن : أبو بكر الصولى (٣٢٦ هـ) .
مؤلف كتاب « أخبار أبى تمام » ، وكتاب « أخبار البحتري » ، وأبو الفرج
الاصفهانى (٣٥٦ هـ) مؤلف كتاب « الاغنى » ، والصاحب بن عباد الوزير
(٣٨٥ هـ) صاحب رسالة « الكشف عن مساوى شعر المتنبي » .

وهكذا نرى أن فريقا من نقاد هذا القرن عنوانا بقضية الموازنة بين
الطائيين ، وفريقا آخر عنوانا بقضية شاعرية المتنبي وميزانه فى الشعر .
ولا شك أن أبى تمام والبحتري والمتنبي هم أئمة الشعر العربى وأنهر أعلامه
فى القديم . وحول المتنبي ألقت كتب كثيرة ، وشرح ديوانه لحول العلماء

والنقاد : كإن جنى والمعري ومحمد الهروى ، وابن الافليلي ، والواحدى ،
وعبد القاهر الجرجاني ، والتبريزي ، والعسكري ثم اليازجي والبرقوقى فى
عصرنا الحديث ، وللشاعر العوضى الوكيل شروح على ديوان المتنبي وقد
حدد جزء منها .

وقد عرض الثمالى فى الجزء الأول من كتابه « بئمة الدهر » للمتنبي
وشعره بالدراسة والتحليل . ولمحمد بن أحمد المعتزلى راوية المتنبي كتابان عنه
هما : « الاقتصاد المنبى عن فضائل المتنبي » ، « التلبيه المنبى عن ذائل المتنبي »
ولابن حسنون المصرى كتاب « نزهة الأديب فى سرقات المتنبي من حبيب »
وليوسف البديعى المصرى كتاب « الصبح المنبى عن حبشية المتنبي » الذى
نشره المرحوم الأستاذ محمود مصطفى .

- ٥ -

ومهما كان الأمر فإن الأمدى والقاضى الجرجانى يحتلان فى النقد فى
القرن الرابع مكانة عليية لا تدانىها مكانة أحد ، بكتائيهما : الموازنة ،
والوساطة .

ويجعل القاضى الجرجانى الذوق الأدبى هو الحكم فى جميع مشكلات
النقد والبيان وقضاياهما ، ويرد إلى عمود الشعر كل ما اختلف النقد عليه
من مسائل النقد ومشكلاته . وقد جعل القاضى الجرجانى وساطته حوارا
بين أنصار المتنبي وخصومه ، كما جعل الأمدى موازنته حوارا بين أنصار
أبى تمام وأنصار البحتري ، ويصطبغ الحوار عند الأمدى بصبغة عقلية ،
كما يصطبغ الحوار عند الجرجانى بصبغة الذوق ، والغرض الأول عند الجرجانى
هو إصاف المتنبي من خصومه ومن أجل ذلك حتم فى أول كتابه تجريد
الحكم الأدبى على الشاعر وشعره من كل الاعتبارات الشخصية .

ولقد كلل الأمدى والقاضى الجرجاني هامة النقد الأدبى فى القرن الرابع
المجرى بأكايل المجد والعظمة ، وعبقريه الرجلين جعلت آراءهما فى النقد
ذات خطر كبير ، وأثر بعيد فى تطوره ونهضته وازدهاره ، كما كانت أقوالهما
النقدية بمثابة الحججة للنفاد عند احتصامهم فى قضايا الأدب والشعر والبيان .

وإن التراث العربى ليعتزل كل الاعتزاز هذين العبدىن والرائدين الجليلين .
الذين سارا بالنقد شوطا بعيدا فى طريق نهضته .

ويحمل كتاب الموازنة ، كما يحمل كتاب الوساطة بالكثير والجديد من
النظريات المتسكرة فى الأدب والشعر والبيان والنقد . . وذلك مما يرتفع
بأهمية الكتائين فى تراثنا النقدى إلى منزلة عالية .

فالموازنة مر أجل الكتب التى ظهرت فى النقد فى القرن الرابع .
وكذلك فى الموازنة الأدبية وقد وضع هذا الكتاب أساساً قويا لنقد الشعر
وللموازنة بين الشعراء . ويعد بحق من أمهات كتب النقد الأدبى وأصوله .
وهو كذلك مصدر من مصادر البيان والبلاغة فى تراثنا الأدبى . ونحن حين
تقول « إنه مصدر من مصادر البيان والبلاغة » لانتهى أنه كتاب بيان وبلاغة
كما زعم ابن الأثير ذلك فى كتابه المشهور « المثل السائر » ، فأخطأ ، ثم بقى
على هذا الخطأ نقده للكتاب بأن صاحبه قد أهمل كثيراً من مباحث علم البيان
لم يستوفى بحثها أو لم يذكرها أصلاً (١) .

ويؤكد الأمدى وكتابه أنه لا يرى بلاغة الشعر إلا فى نظمه وأسلوبه .
وصحة طبعه . مقررأ أن الذين قدموا البحرى إنما قدموه لأن له من ذلك
ما ليس لسواه ، وإن كانوا لا ينكرون على أبى تمام إجادته فى المعانى وكثرة

استنباطه لها واغرابه فيها ، ولكنهم يقولون : إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه ، مع كثرة غرامه بالجنانس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع ، بما ذهب بماء شعره ، فصار غير متشابه الأطراف ، فهم يسلون له ضالة الشعراء جميعاً من لطف المعاني وعمقها وتنوعها ، وبديع الوصف ، وجودة التشبيه والتخييل ، وسمو الحكمة ، واغراق الخيال ، وهي التي قدم بها امرؤ القيس في الجامعة .

ولكن خصوم أبي تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعراً ، ويقولون له : فلتكن إن شئت حكماً ، ولندعك أن أردت فيلسوفاً ، أما الشاعر فالبحتري ، وما دام الشعر عند الأمدى نظماً وأسلوباً فلا بد أن يكون البحتري هو المقدم عنده . وهو الشاعر الأثر لديه .

والأمدى مع بلاغة اللفظ والأسلوب والنظم فالبلاغة عنده وقف على ذلك أما المعاني والحكم والأخيلة فذلك القرف الزائد عن الحاجة ، والذي إن ألم به الشاعر أو الخليل فقد زاد في حسن صنعه وبهائها ، وإلا فالصنعة باقية قائمة بنفسها ومستغنية عما سراها ، كما يقول الأمدى في الموازنة . وهو في هذا متأثر بالجاحظ ومذهبه ، وكان الجاحظ يقول : « عليك أن تجنب السوق والوحش ، ولا تحمل همك في تهذيب الألفاظ ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني ، وفي الاقتصاد بلاغاً (١) ، ولكنه يبين قدامة ومنهجه الذي كان يتأدى بضرورة العناية بالمعنى كما نغنى باللفظ ، ويحاهر بأن البلاغة في شيتين : معنى مبتدع ، ونظم بليغ .

وكان ابن قتيبة يشارك كلا من اللفظ والمعنى في البلاغة ، ويجهلها

(١) ١٧٩ / ١ البيان والتبيين للجاحظ - تعليق السندوبى - طبع التجارية بالقاهرة .

عنصرين مستقلين استقلالاً تاماً ، من حيث مال قدامة إلى أن بلاغة كل منهما ضرورية في بلاغة النموذج الأدبي ، وجاء ابن طباطبا في « عيار الشعر » فذهب إلى أن للشعر جسداً وروحاً لجسده النطق - أى اللفظ ، وروحه المعنى (١) ، وهو ما ذهب إليه ابن رشيق في كتابه « العمدة » ، فليس اللفظ عندهما بمفصول عن المعنى ، ولا المعنى بمفصول عن اللفظ ، فبينهما وحدة ما في النص الأدبي ، وجاء عبد القاهر الجرجاني بعد فأكد أن اللفظ والمعنى هما وجهان لنموذج واحد . فلا يفهم اللفظ بدون معنى ، ولا يفهم المعنى بدون لفظ ، فبينهما وحدة عضوية كاملة ، وذلك ما شرحه شرحاً واسعاً في نظرية النظم التي أفاض في شرحها في كتابه « دلائل الإعجاز » .

إن الأمدى يطبق في النقد نظرية عمود الشعر العربي تطبيقاً كاملاً ، فالبحرئى عنده هو الشاعر لأنه يحرص على كل القيم الرفيعة التي شرعها وحرص عليها الشعراء القدماء ، من امرئ القيس إلى ابن هرمة وبشار ، في اللفظ والمعنى والأسلوب والخيال ، وفي اللغة والوزن والصورة الشعرية ، وغير ذلك ، لا يخرج عنها ، ولا يبعد عنها ، مع صحة الطبع ، وجوده السبك ، وقوة الملكة .

وفي موازنة الأمدى بين الشاعرين أبي تمام ، والبحرئى ، يطبق أبو القاسم الأمدى نظريته هذه (العمودية ، أو عمود الشعر) تطبيقاً واسعاً وجريئاً وثرياً على شعر الشاعرين ، فيرى البحرئى يسير مع القدماء في أدائهم وأساليبهم وأخبارهم ومعانيهم وصورهم ، ويرى أبا تمام يبعد عن القدماء في ذلك كله بعداً كثيراً ، وهو في كل ذلك خاضع لمنهج ، ومتأثر بنظرية ، ومطبق لمذهب ، ومن أجل ذلك اتى على البحرئى ، وقسا على أبي تمام ،

حتى لقد رمى بسببه بالتمصّب على أبي تمام والانتصار للبحرئ .

يقول الأمدى فى مطلع موازنته : « أكثر من شاهدته ورأيت من رواة أشعار المتأخرين يزعمون أن شعر أبى تمام ، حبيب بن أوس الطائى ، لا يتعلق بحميدة جيد أمثاله ، وردبته مطرح مرذول » فلماذا كان مختلفاً لايتشابه ، وأن شعر الوليد بن عبيد البحرئ صحيح السبك ، حسن الديباجة ، وليس فيه سفساف ولا ردى . ولا مطروح ، ولهذا صار مستويًا ، يشبه بعضه بعضًا .

ثم يقول بعد ذلك :

« ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشمر عندى لتباين الناس فى العلم ، واختلاف مذاهمهم فى الشعر . ولا أرى أن يفعل ذلك ، فاستهدف لذم أحد الفريقين ، لأن الناس لم يتفقوا على أى الأربعة أشعر : لافى امرئ القيس والنابعة وزهير والاعشى ، ولا فى جرير والفرزدق والاختل ، ولا فى بشار ومروان والسيد (١) ، ولا فى أبى نواس وأبى العتاهية ومسلم والعباس بن الأحنف : فإن كنت - أدام الله سلامتكم - بمن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك ، وحسن العبارة ، وحلو اللفظ ، وكثرة الماء . والرونق ، محالبحترى أشعر عندك ضرورة ، وإن كنت تميل إلى الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفسكرة ، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة . فأما أنا فلوست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولكن أوازن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية ، وبين معنى

(١) هنا نقص ، والكلام صحته : والرابعى ، ولا فى بشار ومروان والسيد وابن هرمة لأن الأربعة من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين والمولدين جميعاً فلا بد أن يكون هنا أربعة شعراء من كل طبقة من هؤلاء .

ومعنى، ثم أقول : بهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ، ثم أحكم أنت حينئذ إن شئت على جملة ما لكل واحد منهما ، إذا أحطت ههنا بالجيد والردى» (١) .

ويؤكد ذلك أيضاً فيقول :

« وأنا ابتدئ بذكر مساوى هذين الشاعرين ، لاختم بذكر محاسنهما ، واذكر طرفاً من سرقات أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره ، ومساوى البحترى في أخذ ما أخذه من معاني أبي تمام ، وغير ذلك من غلظه في بعض مما يهني ثم أوازن من شعريهما بين قصيدة وقصيدة ، إذا اتفقا في الوزن والقافية وأعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى ، فإن محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما ، فجوده ، من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه . وأفرد بالما وقع في شعريهما من التشبيه ، وبها الأمثال ، أختم بهما الرسالة . ثم أتبع ذلك بالاختيار المجرد من شعريهما » (٢) .

ومذهب الأمدى في الميل إلى بلاغة اللفظ وجودة السبك وصحة النظم جعله يرى أن الشاعر البحترى ، وأن أبا تمام والمتنبي واضراهما حكما . على أن الأمدى فيما سار عليه من مناهج في النقد والموازنة متأثر بأراء النقاد قبله فلم يكن يقدم إلا تحكيميا للعمودية وللهج العربي السليم فيما ينقدون ، فأبو عمرو بن العلاء وحماة وخلف الأصمعي وابن الاعرابي وسوام ، كانوا يعرضون ما ينقدونه على ميزان الطبع ويحكمون نهج العرب في بلاغتهم في الموازنة . وكذلك فعل الأمدى ، برجوعه إلى مناهج العرب في الأداء والأسلوب والنظم ، فيرد ما ترده ، ويقبل ما تقبله ، فللعرب طريق خاص فيما ينطقون به من أساليب ونظم ، ومن أفسكار ومعان وأخيلة وصور

(١) ١٠٦، ٥ الموازنة .

(٢) ١٠٧، ٧ الموازنة .

وأوزان . وذلك النهج العربي الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه ويسترشد به ، ويحتذى حذوه ، وينظم شعره على مثاله ، ثم هو ميزان النقد ، وهو عمود الشعر فالتأنيذ يرجع إليه في الحكم على الشعر ، وفي كل مشكلات الأسلوب والمعاني والأخيلة والصرد الشعرية . ولا شك في تأثير الأمدى بأراء النقاد قبله ، فهو يعتمد على آرائهم ، ويستدل بحكمهم في النقد ، حتى لقد قيل : إن كتاب « الموازنة » صورة لأراء النقاد قبل عصر الأمدى ، وأن أصول كتاب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن الثالث ومؤلفيه (١) ، وقد صرح الأمدى بما يدل على ذلك في أكثر من موضع من كتابه ، وفضل الأمدى إنما هو في تدوين هذه الآراء وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها .

وإذا كانت موازنات الأمدى بين الشعراء الخالدين ، أبي تمام والبحترى ، قد وضعت للموازنة وللنقد أصولاً جلييلة ، اهتمت بها النقاد على طول العصور ، فإنها كذلك وضعت أصولاً أخذها البلاغيون في القرن الخامس الهجري .

ولقد تأثر القاضي الجرجاني في كتابه « الواسطة » بمنهج الأمدى في كتابه « الموازنة » ، تأثراً كبيراً ، ولقد كانا معاصرين ، إذ توفي القاضي الجرجاني على ما ترجح في عام ٥٣٩٢ هـ ، وفي رواية في عام ٥٣٦٦ هـ ، وكان القاضي الجرجاني يعيش في جرجان ، بينما كان الأمدى في البصرة ، ولقد حكم القاضي الذوق في نقده كما حكمه الأمدى ، ومآل الحكم في النهاية عند الرجلين هو عمود الشعر ، ويجعل القاضي الجرجاني كتاب « الواسطة » حواراً أدبياً بين أنصار المتنبي وخصومه ، كما جعل الأمدى « الموازنة » حجاجاً عليها بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري . ويقدر هذان الناقدان

حبداً كبير الأهمية ، وهو أن الشاعر الجاهلي ، فضلاً عن الإسلامى والمحدث ،
يخطئ في شعرد .

كما نهجا منها واحداً في بحث السرقات الشعرية وبعض ألوان البديع .
وقد وفي الأمدى الموازنة حقها ، ففصل أخطاء الطائيين ، ومظاهر
إجادتهما ، ووائن بينهما في بسط وطول أناة ، وكان في ذلك أكثر بلوغاً
للغاية من صاحب الوساطة .

ولا يزال مذهب عمود الشعر ، عند الأمدى في النقد جديداً أو كالجديد
كما كانت نظرية البديع في النقد عند ابن المعتز ، ونظرية النظم عند
عبد القاهر وبذورها عند الجاحظ جديدة كل الجدة كذلك . . ومنذ القرن
الثاني الهجرى عرف الأصمى بمقايسه في فحولة الشاعر وابن سلام
بمقايسه في طبقة الشاعر ، وقدامة بمذهب في النقد الموضوعى ، وابن طباطبا
بمنهج في النقد التأري . . فإذا كان كل هؤلاء النقاد الكبار قد أسهموا في
وضع موازن علمية للنقد القرن الرابع الهجرى ، أرى بها الأدب ونقده
والبيان والبلاغة ، ثراء وأسما : فإن الأمدى ونظريته النقدية في عمود
الشعر لا يزالان يكتسيان بالجدة والابتكار والعبقرية .

والأمدى من الأعلام الخالدين ، في تراننا النقدى الأصيل ، ويقول
فيه الأستاذ السيد أحمد صقر محقق كتاب الموازنة : « إنه أعظم نقاد
الأدب العربى ، وإنه أمامهم الذى لا يضارع ، وإنه في تاريخ النقد أمة
وحده ، في دقة منهجه ، وعمق فكره ، وحسن عرضه ، ونصاعة
أسلوبه (١) .

ويعتد نقادنا المعاصرون من أمثال : الدكتور شوقي ضيف ، والدكتور

محمد مندور ، والدكتور بدوى طبانة ، والمرحوم الأستاذ طه إبراهيم فى كتابه « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » وأحمد أمين فى كتابه فى تاريخ النقد الأدبى ، وسوام ، بالأمدى وبكتابه « الموازنة » - اعتداداً كبيراً ..

وكان الأمدى من أظهر النقاد الذين توسعوا فى دراسة نظرية عمود الشعر العربى ، وتطبيقها تطبيقاً كاملاً على الشعراء أبو تمام والبحتري ، وذلك فى « الموازنة » . وكانت هذه النظرية بذرة صغيرة ألقى بها بعض الأدباء والنقاد فى القرن الثالث ، ومن بينهم الشاعر البحتري الذى أثار عنه قوله حين سئل عن نفسه وعن أبي تمام : « كان أغوص على المعانى منى ، وأنا أقوم بعمود الشعر » (١) .

القاضي الجرجاني وتراثه في النقد

- ١ -

عاش القاضي أبو الحسن الجرجاني ، على بن عبد العزيز ، في القرن الرابع الهجري ، في ظلان دولة بني بويه ، وفي عصر ابن العميد ، والصاحب ابن عباد ، والحرّازي ، وبديع الزمان الهمداني ، وأبي حيان التوحيدي ، والشريف الرضي ، وأبي الطيب المتنبي . وأبي فراس الحمداني وأبي دلف الخرجي مسعر بن مهمل ، وغيرهم من اعلام الفكر الإسلامي والأدب العربي . . . ولد في جرجان ، وهي موطن خالد بن موطان الثقافة الإسلامية في إيران ، وسلك السبيل التي كان يسلكها الشباب آنذاك في مثل هذه البيئة العلمية الحافلة ، فأخذ في دراسة علوم الدين واللغة والأدب ، وتنقل بين جرجان والري وبغداد والشام ، حتى نضجت ثقافته وعقليته ، ووطد العلم والأدب الصلات الفكرية بينه وبين الصاحب بن عباد الوزير ، فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلاً بعيداً في رفعة ، كما يقول الثعالبي في اليتيمة . ومدح الجرجاني صديقه الوزير بقصائد بليغة ، وقلده الصاحب قضاء جرجان ، ثم رفعه إلى منصب قاضي القضاة بالري عاصمة الملك الذي يسموه ابن عباد ، واستمر في القيام بأعبائه حتى بعد وفاة الصاحب عام ٣٨٥هـ وتوفي الجرجاني عام ٣٩٢هـ ويذكر الشيرازي في كتابه « طبقات الشافعية » مؤلفات عدة له في الفقه .

وينم شعر القاضي عن اعتزازه بنفسه ، واعتداده بشخصيته ، يقول فيها يقول :

وقالوا : توصل بالخضوع إلى النبي

وما علموا أن الخضوع هو الفخر

حويينى وبين المال بلان حرما
على الفنى : نفسى الاية والذهب

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه
مواقف خير من وقوفى بها العسر
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم
بنفس فقير كل أخلاقه وفر

كما ينم عن قبيل عواطفه ، وجمال طبعه ، وسعة ثقافته فى الأدب .
ترك البداوة التقليدية فى الشعر ، وأنس إلى رقة الأسلوب وعذوبته .
وله ديوان ذكره الشيرازى فى «طبقات الشافعية» ، وابن خلائكان فى «وفيات
الأعيان» ، ويقول الثعالبى فى القاضى الجرجانى : « كان يجمع خط ابن
مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى .

وعاصر الجرجانى حركة النقد التى قامت آنذاك حول شعر المتنبى .
ولما ظهرت رسالة صاحب بن عباد « الكشف عن مساوى المتنبى فى
شعره » رأى فيها جورا على الحق ، وامرأفا فى الخصومة ، وشططا فى النقد ،
فألف كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ينصف فيه المتنبى من خصومة
الصاحب وهذا الكتاب يعد سجلا أدبيا هاما لحركة النقد فى القرن الرابع ،
ولا يزال كما كان مصدرا من مصادر الثقافة الأدبية ...

- ٢ -

« الوساطة » أصل من كتب الأدب ، وكان لظهور هذا الكتاب دوى
شديد فى الأدب والشعر والنقد ، وحسبنا رأى الثعالبى وابن خلائكان فيه
... ويعدّه الباحثون من القدامى والمعاصرين من أروع المؤلفات فى
(٦ - الفكر النقدي والأدنى)

النقد . . وهو يدل على فهم عميق للشعر، وإلمام واسع بكل ثقافات
النقد والأدب .

يجعل الجرجاني الذوق الأدبي هو الحكم في مشكلات النقد والبيان ،
ويحدد عناصر منهجه النقدي فيقول : « وإنما تفاضل العرب بين الشعراء
في الجودة والحسن ، بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ،
وتسليم السبق فيه - أى في الشعر - لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ،
وبده فأغزر ، ولمن كثرت سواثر أمثاله ، وشوارد أبياته .

ويرجع الجرجاني في النقد إلى مذاهب الجاحظ والآمدى وأصحاب
الثقافات الأدبية الخالصة ، مؤثراً أحكام الفطرة والذوق الخالصين ، دون
اعتداد بمنهج قدامة في النقد ومنهج المقلدين لقوامه .

وفي الموازنة يعرض الجرجاني كل ما أجاد أو ذل فيه الشاعر ، ثم
يوازن ويفاضل ، مع الرجوع إلى حكم الذوق الذي تنفقه المران والبحث ،
وذلك ما سار عليه أئمة النقد والبيان ، فالنقد - في أهم مذاهبه - إلا دراسة
الاشياء وتفسيرها ، وتحليلها وموازنتها بما يشابه أو يقابلها ، ثم الحكم
عليها ببيان درجتها وقيمتها ، والنقد الأدبي عند المحدثين هو التقدير الصحيح
لأى أثر أدبي وبيان قيمته ودرجته بالنسبة إلى سواه .

سلك الجرجاني في الوساطة مسلك الأمدى في الموازنة ، فجعلها حواراً
بين خصوم المتنبي وأنصاره ، كما جعل الأمدى كتابه « الموازنة » حواراً
بين أصحاب الطائيين - أبي تمام والبيهقي - والعرض الأول للجرجاني
في الوساطة انصاف المتنبي من خصومه ، لذلك حتم في أول كتابه تجريد
الحكم الأدبي على الشاعر من الاعتبارات الخاصة .

وكما اعتد الأمدى في الموازنة ، بعمود الشعر وحكمه في مسائل النقد -

واستفاته في معرض الموازنة ، صنع مثل ذلك أيضاً القاضي الجرجاني في « الوساطة » .

ويذكر الجرجاني المتعصبين للنتى وعليه ، وعقوب الفريقين له أو للدب فيه ، ويوجب الاعتراف بالفضل لذويه ، معذراً للشعراء عما يقعون فيه من أخطاء ، فأى شاعر كان بمنجاة من الخطأ ؟ وهل سلم منه شاعر من الجاهليين أو الإسلاميين ؟ وما دام الشعر علماً من علوم العربية قوامه الإحسان فيه ، من الطبع والرواية والمران والذكاء ، فأى مانع من تفاوت ملكات الشعراء ، وتباين منازلهم فيه ؟ أيا كانوا ، وفي أى عصر يعيشون . وإن كان للبيئات الأدبية العامة والخاصة أثرها في تلوين الشعر بالوان تختلف جزالة ورقة ، فالشعر الجاهلي في قوته وجزالته . وشعر المحدثين في رفته وعذوبته ، يخضع كل منهما لما يخضع له الآخر من تأثير بعوامل البيئة والزمن . وما الرقة التي تراها أحياناً في الشعر الجاهلي إلا صورة لاختلاف الأخلاق والطباع والأذواق وتركيب الخلق ولون المعيشة ، وهي أكثر ما تأنيك من قبل العاشق المنتم ، والغزل المهالك ، ويدعو الجرجاني المحدثين إلى الرقة والعذوبة ، وإلى تزييل الجزالة والرقة منازلهما بحسب المعاني والأغراض والموضوعات ، كما يدعوهم إلى ترك التكلف ، والاسترسال مع الطبع . ويشيد بشعر البحترى وطبعه ، وبما يشاكله من نسيب جرير في الإسلاميين وأمرى القيس في الجاهليين . وي طرح الجرجاني الاعتداد بالبديع . أو جملة أساساً لجودة الشاعر في شعره ، فهو لا يبالى بالبديع ، ولا يجتفل بالصنعة ، التي ألم بها القدامى ، وطلبها المحدثون ، ويناقش الجرجاني خصوم المتنبي . ثم يوازن بينه وبين سواء من المحدثين : كابن الرومي وأبى نواس وأبى تمام ، موازنات رائعة جميلة . ويتحدث عن السرقات الشعرية . وعما ينكره خصوم المتنبي عليه في المعاني والألفاظ والأساليب ، وفي مذاهب الشعر : أحاديث رائعة عميقة ساحرة .

وموقف الجرجاني من السرقات الشعرية ، التي رى بها المتنبي خصومه
والحافدون عليه ، من أنها لا تغض من شعر المحدثين ، لسبق المتقدمين إلى
المعاني ، ولكثر ما توارد خواطرم مع خواطر السابقين ، ولا خفائهم
أمر السرقة بشئ الأساليب لزيادتهم عليهم في أحيان كثيرة ، بما يأتون به
من زيادة وتأكيد وتعريض وتصريح واحتجاج وتعليل ، موقف جميل
ويرى وجوب الأناة في رى شاعر السرقة ، حتى لا يخرج الناقد عن
مجال الأنصاف .

وموقفه بما ينكره خصوم المتنبي عليه من أخطاء في المعاني والألفاظ
والأساليب ، وفي مذاهب الشعر وأغراضه ، موقف الناقد المعتدل ، الذي
يبحث ويتأنى ، ويدقق ويعرض ، وينصف الشاعر من خصومه وأنصاره
على السواء .

ناقش خصوم المتنبي فيما رموه به من التقصير واستهلاك المعنى ،
وغموض المراد ، مما يرجع إلى بعد الاستعارة والأفراط في الصنعة ،
ورأى أنه لن يكون أكثر من الفرزدق تعقيداً وغموضاً .

وناقشهم فيما رموه به من المبالغة والأفراط ، ورأى أن ذلك مذهب
عام في المحدثين ، فهذا الأفراط عيب مشترك ، وذهب مقتسم ، وموقع
أبي الطيب منه موقع أى رجل من المحدثين .

وناقشهم كذلك فيما اتهموه به من إبعاد الاستعارة ، والاعراب فيها ،
ورأى أن عذر المتنبي في ذلك هو عذر سواء من الشعراء ، الذين أبعدها
في الاستعارة إبعاده ، وعلينا أن نحمل ما يحىء من كلامه وكلام المحدثين على
وجوه تقرهم من الأصابه ، وأن نلتبس لهم شئ المعاذير .

وناقش الجرجاني خصوم أبي الطيب فيما غابوه به من أخطاء أخرى
مناقشة نقدية عميقة بالغة غاية الروعة والجمال ..

فما أنكروه عليه قوله :

أعط عنك تشبيها بما وكأنه

فا أحد فوق ولا أحد مثلي

قالوا : إن دما ، ليست للتشبيه ، وقد سئل أبو الطيب في ذلك فذكر
أن دما ، تأتي لتحقيق التشبيه ، نحو ما هو إلا الأسد .. وبرد صاحب
الوساطة على أبي الطيب فيقول : إن التشبيه بما حال ، ودما ، لم تعد
موضعا من التني ، وليست للتشبيه ولا لتأكيد .

وقد ينكرون على أبي الطيب قوله : دفا أحد فوق ولا أحد مثلي ، ،
ولكن هذا يدل على شعور المتنبي بالعظمة ، البالغة ، وهو يعبر عن تجربته
هذه خير تعبير .

وينكرون على أبي الطيب قوله في كافور :

يفضح الشمس كلما زرت الشمس

بشمس منيرة سوداء

لأن الشمس لا تكون سوداء ، والافادة تضاد السواد ، فيرد عليهم
الجرجاني بأنه لم يجعله شمسا في لونه حتى يستحيل عليه السواد ، وقد يكون
شبه بالشمس في العلو والرفعة ونباهة الشأن ، أو في النفع والجلالة ..
ثم يقول في انصاف : غير أن في الأسلوب بشاعة وبعداً عن القبول .

وهكذا يناقش القاضى الجرجاني وينقد ويحكم .

هذا هو القاضى الجرجاني ، ناقداً امتد أثره فى كل ما ظهر بعده من كتب
فى النقد والبيان ، واديباً ارتفع بذوقه إلى منزلة عالية فى الأدب ، وكان
مناراً للادباء من بعده .

إن لكتاباه ، الواسطة ، الكثير من المزايا التى لا توجد فى كتاب آخر
ففى كتاب الواسطة تصوير جيد لوجوه التفاوت بين القداى
والمحدثين ، وعرض لكثير من مشكلات الأدب والبيان ، وحديث جيد
عن النقد ومذاهبه ومناهجه وتياراته .

عرض الجرجاني فى الكتاب للجزالة والركة متأراً فى ذلك بالجاحظ
فى كتابه ، البيان والبيان ، كل التأثر .

وعرض للبديع وشمراته وألوانه ، وللسرقات الشعرية وألوانها .

وأفاض فى الكلام على المبالغة والاغراق ، وبخاصة فى شعر المحدثين .
ورأى أن الغلو مذهب عام للمحدثين ، وأنهم لا يؤاخذون به ، وذلك
جنوح إلى رأى قدامة فى نقد الشعر الذى يستحسن الغلو ويفضله .

ويذكر الغموض فى الشعر ، ويأخذ الفرزدق وأبا تمام والمنتبى به ،
ويشرح أسبابه ، ويفرق بينه وبين ما ينشأ عن غرابة الكلام وتوحش
اللفظ من غموض .

ويذكر أسلوب الالتفات ، والحشو ، والفصل بين الكلام ، وأسلوب
القلب ، كما تحدث عن التكلف والتعقيد اللفظى حديثاً وعمماً . ويندد بعصبية
الرواة على المحدثين ، ويشيد بمكانتهم فى الشعر ، إلى غير ذلك من مختلف
مسائل النقد والبيان ، التى عرض لها ، وتحدث فيها ، وناقش مختلف الآراء
حولها . وحديثه عن السرقات الشعرية حديث رافع عميق .

وفى الوساطة تحامل على أبي نوانس وأبي تمام وابن الرومي ..
ومحاولة لانصاف أبي الطيب من جور خصومه وعصية أنصاره .

وإذا كان القاضي الجرجاني قد نقد بيت أبي الطيب :

ما بقوى شرفت بل شرفوا بي

وبنفي شمرت لا بجدودي

ذاكراً أنه هجاء لا مدح، فإن ذلك الرأي بحاجة إلى المعاودة والمراجعة،
ولعل القاضي الجرجاني لو أعاد النظر إلى البيت لأدرك مدى جماله وسر
دوعته ووثيق صلته بطموح الشاعر وشعوره بالعظمة في نفسه .

ولا ريب أن مصادر كتاب الوساطة تعود في مجملها وأهمها إلى كتاب
« البيان والتبيين » لأبي عثمان الجاحظ ، ، وإلى « الموازنة » التي ألفها الأمدى
والتي تأثر بها القاضي الجرجاني تأثراً شديداً ، وإن كانت « الوساطة » تغلب
عليها صبغة البيان ، و« الموازنة » تغلب عليها صبغة النقد ، على أن « الموازنة »
تتماز بموضوعيتها وتتمام المنهج النقدي فيها . أما الوساطة فهي لم تستوف
بحوث النقد التي كان يجب أن يلم بها في معرض الحكم على المتنبي
وشعره ..

على أن القاضي الجرجاني لم يغفل مصدراً من مصادر الأدب والنقد
والشعر ، فقد رجع إلى كل كتاب سبقه ، وأقاد منه .

وبعد ، فإن القاضي الجرجاني من أعلام النقد العربي ، ومن قممه
السامقة ، وهو حري بأن يعرف له مكانه في النقد ، ومنزله في الأدب .
وحسبه نقرأ أن كتابه أصبح مصدراً أصيلاً من مصادر الموازنة والنقد
والبيان والأدب .

مراجع

- (١) ٢٨٣ : ٣ بئمة الدهر للثعالبي - تحقيق محمد محي الدين - .
- (٢) ١٧١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف .
- (٣) ٩٠ - ١٠٠ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .
- (٤) الوساطة « طبعة صبيح » .
- (٥) أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب .
- (٦) ٣٥ - ٣٨ نقد الشعر لقدامة تحقيق « مذنون » .
- (٧) ٢٧٧ الوساطة .
- (٨) النقد الممجى لمندور .
- (٩) أصول النقد للمؤلف .
- (١٠) حكومة القاضى الجرجاني فى النقد للمؤلف .

إعجاز القرآن للباقلاني

- ١ -

من أصول كتب النقد التي ألقت في القرن الرابع الهجري ، هذا الكتاب القيم ، إعجاز القرآن ، ، الذي ألفه أبو بكر محمد بن الطيب الباقلافي ، المتوفى عام ٥٤٠٣ : ١٠١٣ م في بغداد دار السلام .

ويقول مصطفى صادق الرافعي في الكتاب : إنه استبد بهذا الفرع من التصنيف في الإعجاز ، واحتمل المؤونة فيه بمجملتها من الكلام والعريية والنقد ، حتى عدوه الكتاب وحده لا يشرك العلماء معه كتابا آخر في خطره ومنزله وبعد غوره وإحكام ترتيبه وقوة حجته وبسط عبارته وتوثيق سرده (١) .

ويجمل الدكتور زكي مبارك الكتاب صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع الهجري (٢) .

ولقد كان للباقلاني مذهب في النقد يرجع إلى فهم الأثر الأدبي جملة ، وتحليل خصائصه ، والموازنة بينه وبين غيره من الآثار الأدبية ، ويان منزله البيانية والأدبية والفكرية مما يظهر بوضوح في كتابه ، إعجاز القرآن ، ، الذي ترك آثاراً كبيرة في النقد الأدبي ، ولا زال معدوداً من مصادر النقد وأصوله ، وبخاصة منهجه في نقد الشعراء في قصائد الطوال ، حيث لا ينقد بيتاً أو أبياتاً من قصيدة ، ولكنه ينقد القصيدة كاملة ، ويبين

(١) ٢٠٠ إعجاز القرآن للرافعي .

(٢) راجع ١٥ وما بعدها ج ٢ النثر الفني لزكي مبارك .

بوضوح رأيه فيها وفي شاعرية صاحبها ، وبخاصة القصائد الأولى المنفق على رفعة علمها ، وصحة نظمها . وجودة معانيها ، وسحر بلاغتها ، وإبداع صاحبها فيها ، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة ، والمعروفين بالحدق والبراعة والتفوق في البلاغة . . وقد سار على هذا النهج في نقده لشعر امرئ القيس ، والأعشى وأبي نواس والبحرئى .

- ٢ -

والباقلانى من أعلام القرن الرابع الهجرى ، ويقول عنه الحافظ البغدادى فى كتابه « تاريخ بغداد » : إنه كان أحسن الناس خاطرا ، وأجودهم لسانا وأوضحهم بيانا ، وأصنهم عبارة (١) .

ويقول عنه ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » : كان فى علمه أوحد زمانه ، وانتهت إليه الرئاسة فى مذهبه وكان موصوفا بحب الاستنباط ، وسرعة الجواب (٢) .

وقال عنه معاصره الملك عضد الدولة البويهى المتوفى عام ٣٧٢ هـ : ما فى علمكئى مثله ، ولا للمسلمين فى عصره مثله . . وكان الصاحب بن عباد الوزير البويهى المشهور المتوفى عام ٣٨٥ هـ يصفه بأنه بحر معرق .

ووصفه الذهبي فى كتابه « سير أعلام النبلاء » ، بالإمام العلامة ، ووصفه ابن العماد فى « شذرات الذهب » (٣) بأنه مجدد الدين على رأس المائة

(١) ٢٧٩ / ٥ تاريخ بغداد .

(٢) ٢٧٨ / ٢ وفيات الأعيان طبعة ١٣٩٩ هـ .

(٣) ١٦٨ / ٣ شذرات الذهب .

الرابعة . وكتب عنه ابن تيمية (١) بأنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعرى ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده .

وقال عنه ابن خلدون في المقدمة (٢) تصدر للإمامة في طريقتهم - طريقة الأشاعرة - وهذها . ووضح المقدمات العقلية ، التي تثوق عليها الأدلة والأفكار ، وذلك مثل اثبات الجواهر الفرد ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وأنه لا يبق زمانين .

ولقد ولد الباقلاني في البصرة ، وانتقل منها شاباً إلى بغداد حيث أقام في الكرخ ، وصارت له حلقة علمية كبيرة يجلس فيها تلاميذه والمستفيدون من فضله وعلمه وأدبه ، وما أكثرهم . ثم ألف الكتب الجليلة ، وتصدر مجالس العلم وحلقاته وطلبه الملك البويهي عضد الدولة فقصده في شيراز عاصمة الملك ، وناظر المعتزلة في مجلس عضد الدولة وأفحمهم ، فقلت منزلته عند الملك البويهي ، وبعث به عام ٣٧١ هـ إلى ملك الروم باسيلوس الثاني . الذي تولى الملك مدة طويلة وذلك في سفارة سياسية .

وتوفي عضد الدولة في شوال عام ٣٧٢ هـ ، وقام بالأمر بعده ابنه صمصام الدولة ، وكان الباقلاني أستاذاً من أساتذته ، وألف له كتاب « التمهيد » فقلت منزلته في البلاط البويهي ، وكان من فقهاء المذهب المالكي وإليه انتهت رياسته ، وعظمت منزلته في عصره ، حتى توفاه الله إلى رحمته (٣)

(١) ص ٧٦ رسالة الفتوى الحوية الكبرى .

(٢) ص ٤٦٥ المقدمة - فصل علم الكلام .

(٣) راجع في ترجمته أيضاً : روضات الجنات ج ٤ ص ٦١٦ - الديباج

لابن فرحون ص ٢٦٧ - عيون التواريخ لابن شاكر ج ١٢ ص ٢٦٣ .

للعل والنحل للشهرستاني (٢ ص ١٢٩) طبقات الشافعية للسبكي ج ٢ ص

٢٥٥ - ٢٥٦ - وراجع مقدمة إعجاز القرآن بتحقيقى - ومقدمته

بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر .

ولقد ألف في نظم القرآن : الجاحظ ، وأبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني (١) .

وألف أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي كتاباً عنوانه : إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه ، كما ألف في الاعجاز الروماني والخطابي .

وتجمعت في القرن الرابع آراء ومذاهب كثيرة في إعجاز القرآن الكريم ، بعضها يذهب إلى أن الاعجاز يكمن في البلاغة العالمية التي جاء عليها نظم القرآن الكريم ، وبعضها الآخر يذهب إلى أن سببه الصرفة ، وهي صرف الملمح عن معارضة كتاب الله ، وبعضها يذهب إلى أن سببه ما تضمنه الكتاب الحكيم من الأخبار عن أحداث الزمان التي تقع في المستقبل ، أو من الأخبار عن أحداث وقعت في الماضي السحيق أو غير ذلك .

وإبلاقلاني في كتابه لا يخرج في قضية الاعجاز القرآني وأسبابها عن ذلك ، ولا يأتى فيها بأمر جديد ، بعد إضافة ظاهرة .

فهو في كتابه يتحدث عن وجوه إعجاز القرآن الكريم ، ويركز الكلام على بلاغة القرآن ، فيذكر مظاهر هذه البلاغة ووجوهاً وبنى أن تكون معرفة الإعجاز بسبب من البديع ، ويوازن بين بلاغة القرآن وبلاغة رسول الله ﷺ .

تم يوازن بين بلاغة مختارات من الشعر العربي وبلاغة كتاب الله ..

(١) هو ابن صاحب د سنن أبي داود ، سليمان أبي داود السجستاني الإمام (٢٠٣ - ٣٧٥ هـ) أحد تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل (راجع ١٧٥ - ١٧٧ ج ١) المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد - مطبعة المدني بمصر .

وفي هذه الموازنات الرائعة التي يبلغ فيها الباقلاني الغاية في سمو المنهج النقدي، فليس عمق الفهم لاسكل ما يتصل بالنقد من أحكام وموازين ومناهج فهو ينقد معلقة امرئ القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

كلها نقداً دقيقاً يقول : إن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في ألياتها تتفاوتاً بيناً في الجودة والرداءة ، والسلامة والانعقاد ، والسلامة والانحلال والتمكن والاستصعاب . والتمهل والاسترسال ، والتوحش والاستحراء ، وله شركاء في نظائرها ، ومنازعون في محاسنها ، ومعارضون في بدائعها ، ولا سواء كلام ينحت من الصخرة تارة ، ويذوب تارة ، وقول يجري في سبكة على نظام ، وفي رصفه على منهاج ، مختلفة مؤتلف ، ومؤتلفة متحد ومتباعدة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد (١) .

ثم يقول (٢) : وكنا أردنا أن نتصرف في قصائد مشهورة ، فتسكلم عليها ، وننقل على معانيها ومحاسنها . . ثم رأينا هذا خارجاً عن غرض كتابنا ، والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعبارة ، ولذلك كتب وإن لم تكن مستوفاة ، وتصانيف وإن لم تكن مستقصاة . . ولم نحب أن ننسخ لك مأسطره الأدباء في خطأ امرئ القيس في العروض والنحو والمعاني وما عابوه عليه في أشعاره وتسكلموا به على ديوانه (٣) .

(١) ص ٢٠٩ إعجاز القرآن بتحقيق صاحب هذا البحث — طبع

القاهرة ١٩٥١ .

(٢) ٢٠٩ ، ٢١٠ المرجع نفسه .

(٣) ٢١٠ المرجع السابق .

وينقد شعر امرئ القيس والتأنيف والأعشى وغيرهم نقداً لازعاً .. ثم
ينتقل إلى البحترى فيقول : (١) أنت تعلم أن من يقول بتقديم البحترى في
الصنعة به من الشغل في تفضيله على ابن الرومي ، أو تسوية ما بينهما ما لا يطمع
معه في تقديمه على امرئ القيس ومن في طبقة ، وكذلك أبو نواس ، .
إنما يعدل شعره بشعر أشكاله ، ويقابل كلامه بكلام أضرابه . من أهل
عصره ، وإنما يقع بينهم التباين اليسير ، والتفاوت القليل .

ويقول عن امرئ القيس (٢) : وهو كبيرهم - أي كبير الشعراء - الذي
يقرون بتقديمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضله ، وقائدهم - الذي يأتون
به ، وإمامهم الذي يرجعون إليه .

ويقول عن البحترى (٣) : وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على
كل كلام ، ويقدمون رأيه في البلاغة على كل رأى .

وعن أبي نواس (٤) : وكذلك نجد لأبي نواس من بهجة اللفظ ،
ودقيق المعنى ، ما يتحير فيه أهل اللفظ ، ويقدمه الشطار والظراف على كل
شاعر وپروها لنظم غيره .

ويعرض الباقلاني للموازنة بين قول ابن الضحاك :

كلأه - نضب كأبه - قر x يكوع في بعض أنجم الطلك

وقول أبي نواس :

إذا عب فيما شارب القوم خلته

يقبل في داج من الليل كوكبا

(١) ص ٢٤١ المرجع نفسه .

(٢) ٢٤١ المرجع نفسه .

(٣) ٢٤٠ المرجع نفسه .

(٤) ٢٤٠ المرجع نفسه .

فيذهب إلى أن الخليج - الحسين بن الضحك - أبدع في المعنى ، فأمله
العبارات قائماً ليست على ما ظنه . لأن لفظ (يكرع) عنده ليس بصحيح ،
وفيه ثقل بين « وتغلبت » وفيه إخلال لأن القمر لا يصح تصور أن يكرع
في نجم .

وأما قول أبي نواس « إذا عاب فيها » فكلمة قد قصد فيها المنان ، وكان
سبيله أن يختار سواها من الفاظ الشراب ، ولو فعل ذلك كان أملح ، وقوله
« شارب القوم » فيه ضرب من التكلف الذي لا بد له منه ، أو من مثله ،
لإقامة الوزن ، ثم قوله « خلته يقبل في داج من الليل كوكباً » تشبيه
بحالة واحدة من أحواله وهي أن يشرب حيث لا ضوء هناك ، وإنما تناوله
ليلاه ، فليس بتشبيه مستوفى ، وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه
وأملح وأبدع :

أبصرته واليكاس بين فم
منه وبين أناسل خصى

وكانها وكان شاربها
قر يقبل عارض الشمس (١)

وبمرض الباقلاقي لقصيدة البحترى المشهورة « أملأ بذلكم الخيال
المقبل » ، وهي التي كان يقول ابن العميد فيها :

إنها أجود شعر البحترى ، وكان البحترى يسمي بعض أبياتها : عروق
الذهب .. فيتقدما الباقلاقي تقدماً شديداً (٢) .

(١) ٢٤٢ و ٢٤٣ إعجاز القرآن .

(٢) ٢٤٢ - ٢٦٤ المرجع نفسه .

ويفضل البحترى على أبي تمام وابن الرومي بدياجة شعره ، وتقدمه بحسن عبادته ، وسلاسة كلامه ، وعذوبة ألفاظه ، وقلة تعقّد قوله (١) .
ويستجيد من شعر ابن المعتز الفخر (٢) ويرفع من منزلته فيه حتى ليقول :
فانظر في القصيدة كلها ، ثم في جميع شعره ، تعلم أنه ملك الشعر ، وأنه يليق به من الفخر خاصة ، ثم بما يتبعه مما يتعاطاه ، ما لا يليق بغيره . بل ينفر عن سواه .

ويميز شعر المتنبي في الشجاعة وأبي فراس في الفخر ، وأبي نواس في الشطارة (٣) ، وفدى الرمة في وصف المهامه والبوادي (٤) .

- ٤ -

وكتاب « إعجاز القرآن » يحتوي على الكثير من آراء النقاد في الحكم على الشعر والشعراء .

والحديث في الإعجاز يستنبع الحديث في النقد في أغلب الأمر ، إذ يضطر المتحدث إلى عرض النماذج من البلاغة المعجزة في القرآن الكريم وبلاغة الشعراء في الشعر العربي ، وكثيراً ما تضطره المناسبة إلى الموازنة بين شعر وشعر وشاعر وشاعر ، إلى غير ذلك من الأحكام النقدية ، التي يسوقه الحديث لإيها ، والكلام فيها .

والكتاب يعد من أصول كتب الأدب والنقد ، وما أروع حديثه

(١) ٢٦٥ - ٢٦٦ المرجع نفسه .

(٢) ٢٩١ ، ٢٩٢ المرجع نفسه .

(٣) ٢٩٢ المرجع نفسه .

(٤) ٢٩١ - ٢٩٣ المرجع .

عن الفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الشعر . والباقلاني دقيق المطنة
بها الشعر ، والبصر بيلاعته .

والباقلاني ينقد أسلوب الجاحظ ، ويراها خلوا من الروعة ، ويسكاد
يفضل ابن العميد عليه ، وهو في ذلك يحاذي الصواب ، ويتعد عن المحجة ،
ويقع في الخطأ .

وقد حكم الباقلاني في كتابه في كثير من القضايا الأدبية والبيانية ، كما
حكم في قضايا نقدية كبيرة .

وآراؤه في البلاغة ، وفي البديع ، وفي السجع ، وفي الأسلوب .. كلها
تتبع من ذوق مرهف ، دقيق الحس ببلغة الكلام ، وبما يحتوى عليه
من خصائص في الصياغة والسبك .

ونقول أخيراً : إن هذا الكتاب ثمرة ذوق رفيع ، وبوهة عالية ،
وثقافة واسعة ، وإطلاع عميق .

أبو هلال العسكري

وكتابه الصناعتين

— ١ —

كتاب الصناعتين من أشهر مؤلفات أبي هلال ، وأكثرها ذبوعاً وشهرة . وهو من أهم مصادر كتب الأدب والنقد والبلاغة ، ويجمع العلماء والنقاد على فضله ، وعظيم أثره على الثقافة الأدبية ، منذ ألف الكتاب حتى اليوم .

وقد طبع الكتاب عدة طبعات ، في الجوانب ، وفي القاهرة ، حيث نشرته مكتبة صبيح ، وأخيراً مكتبة دار إحياء الكتب العربية . .

ويقول أبو هلال في صدر الكتاب : إن أحق العلوم بالتعلم علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله .

ثم يستمر في بيان أهمية علم البلاغة إلى أن يقول : وقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبيل ، ووجدت الحاجة إليه ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وأشهرها البيان والتبيين ، لأبي عثمان الجاحظ ، فهو كثير الفوائد لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والأخبار الرائعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلاء إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة ، مبنوثة في تضاعيفه ، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام ، نثره ونظمه ، وأجمله عشرة أبواب ، مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً .

فأبواب الأول : في الإبانة عن موضوع البلاغة .

والثاني : في تمييز الكلام جيده من رديته .

والثالث : فى معرفة صناعة الكلام .

والرابع : فى حسن السبك .

والخامس : فى الایجاز والاطناب .

والسادس : فى جودة الأخذ وردائه .

والسابع : فى التشبيه .

والثامن : فى السجع والازدواج .

والتاسع : فى البديع

والعاشر : فى مقاطع الكلام ومبادئه .

والبلاغة عند أبى هلال : هى كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع ، فتمكنه
فى نفسه ، وتمكنه فى نفسه ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن .

ويؤكد أبو هلال فى الكتاب أن مذهبه فى البلاغة والأدب مذهب
الأدباء من شعراء وكتاب ، لا مذهب المتكلمين - ص ١١ الصناعتين -
طبعة صبيح -

وبما ذكره أبو هلال يتضح لنا أن كتاب الصناعتين يبحث عن موازين
النقد والبلاغة ، التى يحكمها النقاد والبلاغيون فى الأسلوب . ليمكنهم الحكم
على كلام البلغاء ، وأساليب الأدباء ، بالجودة أو الرداءة .

وقد نشأ أبو هلال فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، وهو
عصر نهض الثقافة الادبية فى الشرق الإسلامى .

وتلذذ على كثير من رجال الفكر والأدب فى عصره ، وكان أظهر
أساتذته خاله أبو أحمد العسكري (المتوفى عام ٤٢٢ هـ) ، وينقل عنه كثيراً
من شتى الروايات فى الأدب والبيان .

واتصل أبو هلال برجال الفكر والأدب في عصره ، وفي مقدمة من
أتصل بهم : صاحب بن عباد الوزير (المتوفى عام ٣٨٥ هـ ، وتأثيره ساء
رأى أبي هلال في المتنبي ، حيث غاب شعره وذمه في مواضع كثيرة من
الكتاب .

وأبو هلال كثير الاشارة بالصاحب بن عباد في كتابه ، وهو يستجيد أدبه
وله قصائد في مدحه ، وكان مجلس الصاحب يجمع أدهاء العصر من شعراء
وكتاب ، ولياليه كانت ندوات أدبية رائعة أزدان بها العصر البويهى .

وكان من معاصريه القاضي الجرجاني صاحب كتاب د الوساطة بين
المتنبي وخصومه ، .. وقد اتصل أبو هلال بالقاضي الجرجاني في مجلس
الصاحب بن عباد . . وعاشا أصدقاء ، ومع ذلك اختلف موقفهما الأدبي .
اختلافا شديداً .

أبو هلال ساءط على المتنبي ، فأقده له ، مبعض لشعره .. والقاضي
الجرجاني جعل كتابه د الوساطة ، حكومة أدبية حول شعر المتنبي ، وروح
كتابه الدفاع عن المتنبي ، والانتصار له ..

كتاب الصنائع ألف عام ٣٩٤ هـ كما ذكر أبو هلال في كتابه - ص ٤٥٥ -
طبعة صبيح - أما د الوساطة ، فأرجح أن تكون قد ألقت بعد وفاة الصاحب
الوزير أى بعد عام ٣٨٥ هـ ، كما أرجح أن تكون وفاة القاضي الجرجاني عام
٣٩٢ هـ ، لا عام ٣٦٦ هـ الذى يذكره كثير من المؤرخين له .

أبو هلال متأثراً بقدامة وابن العميد والصاحب تلمزاً شديداً ، ومذهبه ،
الأدبي هو مذهبهم ، من حيث العناية بالمعنى .. والقاضي الجرجاني يرجع
إلى الأسلوب العربى البليغ ، ويحكم عمود الشعر ، ويختار البلاغة القديمة
أساساً للحكم على الشعراء ويجعلها ميزانا للكلام .

ولكن المنافسة بين الرجنين كان لها أثرها عليهما ، حتى إن أبا هلال لم يشر في كتابه « الصنائع » أية إشارة إلى كتاب الوساطة مع أهميته في البحث حول النقد والبلاغة اللذين هما محور كتاب « الصنائع » . بل إن أبا هلال سخر في كتابه بالوساطة وبمؤلفها على سبيل الرمز والتلميح ، لا النص والتصرح ، مع أن أبا هلال استجاد كثيراً من شعر القاضي الجرجاني ونوه به في كتابه « ديران المعاني » .

ومع ذلك فنحن نجد في الصنائع هذا النص الذي يجب أن نقف عنده يقول أبو هلال : هو يعدد أنواع البديع :

هذه أنواع البديع ، التي ادعى من لا رواية له ، ولا دراية عنده ، أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين .

فهذه النظرية التي يشير إليها أبو هلال هي نظرية القاضي الجرجاني في كتابه « الوساطة بين المتنبئ وخصومه » .

فالجرجاني هو الذي نوه في وساطته بالمحدثين ، وأشاد بهم ، وذهب إلى أن وقوعهم في الخطأ لا يحط من منزلاتهم .. وهو الذي يرى أن المحدثين فطنوا لجمال ألوان البديع ، وهم اللذين مهدوا سبيلها .

ولكن أبا هلال تحامل في كلمته هذه على القاضي الجرجاني بعد وفاته تحاملاً شديداً ، فاسرف في رمية إياه بأنه لا رواية له ولا دراية عنده ، وفهم من إعجاب الجرجاني بالمحدثين أن ذلك تعصب لهم ، كما فهم من كلام الجرجاني عن البديع وفضل المحدثين في الفطنة إليه أنه يرى أن القدماء لم يعرفوه .

وأبو هلال إذن كان يتتبع حياة القاضي الجرجاني وإنتاجه ، وينظر

إليه بعين المنافسة ، قد قرأ ، الوساطة ، ، ولكنه لم يعمل عليها ، ولم يتخذها أحد المصادر في كتابه . الصناعتين ، ولذلك لا نجد لها ظلًا ولا ذكرًا في الكتاب ، حتى البحوث المشتركة في السكتابين نجد فوارق كبيرة في طريقة تناولها ، فيزان النقد عند أبي هلال مخالف له عند الجرجاني ، وآراء أبي هلال في الاستعارة والتشبيه ليس فيها أى أثر للوساطة ، وكذلك بحوثه في السرقات الأدبية ليس فيها أثر خاص لآراء الجرجاني .

- ٣ -

إن كتاب «الصناعتين» يدل على عقلية صاحبه الأدبية الكبيرة ، وعلى علمه الغزير وفهمه الواسع باللغة والأدب وهو كتاب تطبيقي على قواعد البيان ، يمتاز بكثرة شروحه مع الحرص على جودة الاختيار ، وسلامة الطبع ، مما يرشد إلى لون من ثقافة أبي هلال ، حتى لقد حار الكثير من الأدباء في كتابه : هل هو كتاب أدب أو كتاب نقد ، أو كتاب بلاغة وبيان .

إن الآراء التي جمعت في الكتاب حول النقد هي خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع ومادة الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث ودارس للأدب والنقد والبيان .

وقد نحا فيه أبو هلال منحى جديداً ، فتكلم على البلاغة ، ورسم المذاهب الأدبية والبيانية في عصره ، مما تأثر فيه بالمحافظ ومذهبه الأدبي في العناية بالأسلوب ونظمه وبلاغته عناية شديدة .

على أن علماء الأدب القرن الرابع كانوا يكتبون في مطلع هذا القرن في الأدب والنقد والبيان ، كما فعل قدماء في نقد الشعر ، . . والصولي في كتاب «أخبار أبي تمام» . ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان ، كما فعل الأمدى في

« الموازنة » ، والجرجاني في كتاب « الوساطة » ، ثم أقادوا من ذلك كله في بحوث البيان وأصول البلاغة ، فظهر أول كتاب كامل في موضوع البيان ، ووافى في بحوث البلاغة ، مع الإيجاز وقرب الفكرة ووضوح الرؤية النقدية وهو كتاب « الصناعتين »

- ٤ -

ومصادر « الصناعتين » كثيرة ، وفي مقدمتها كتب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، والحويان ، وكتاب « البديع » لابن المعتز ، ونقد الشعر لقدامة ابن جعفر . . إلى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، وكتب أخرى كثيرة .

ومن مصادر أبي هلال نعرف أن ما وصل إليه البيان حتى عصر أبي هلال هو بحوث موجزة ، تتصل بمشكلات البيان اتصالاً وثيقاً.. وكذلك كان النقد في هذا العصر ..

والبديع عند أبي هلال ألوان طريفة مستحسنة تزيد الكلام حسناً ، وقد ابتكر أبو هلال منها ثمانية عشر لونا ذكرها في كتابه ، إلى الألوان الأخرى التي ذكرها النقاد كقدامة ، ومن قبله .

- ٥ -

وغلو أبي هلال في المتنبي معروف ومما قاله فيه في كتابه « الصناعتين » : « ولا أعرف أحداً كان يتبع العيوب فيما فيها غير مكثرت ، إلا المتنبي ، فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ، ما عدم شيئاً منها ، حتى تخطى إلى هذا النوع فقال :

ويسعدني في عمرة بعد غمرة

سبوح لها منها عليها شواهد

فأتى من الاستكراه بما لا يطق غرابة - ص ١٥٣ الصناعتين - صبيح .
وهكذا يذكر أبو هلال أبا الطيب في كتابه ، ذكر اسمه في أربعة مواضع
فقط منها هذا الموضع ، وذكر شعراً للمتنبي عابه وازدري عليه في خمسة مواضع
دون أن يصرح باسمه ، وكل ذلك كان من إلهام الصاحب بن عباد لأبي هلال ،
رحمهم الله .

وبعد فكتاب الصناعتين ، يمثل تياراً في الأدب في عصر أبي هلال ،
ويمثل اختلاف الكتاب إحراق الأسلوب ، وبلاغته ، وهل ترجع البلاغة
إلى اللفظ أم إلى المعنى ، وأيهما أولى بالعناية ، ويمثل كذلك الاختلاف حول
قضايا الأدب الكبرى وآراء النقاد في تلك القضايا .. إلى غير ذلك كله من
مشكلات الأدب والنقد والبيان . ومن ثم فالحرص على قراءة الكتاب ،
والعناية بفهمه . وتدبره ، ضروريان لمن يريد فهماً في النقد ، وفهماً لأصول
الأدب ، ولمن يريد أن ينمي ملكة الأدب في نفسه وبحسبنا أنه من أمهات
كتب الأدب ومصادره ، وأنه ركن ركين للثقافة الأدبية اللازمة لأجيال
الشباب ومن هم وراء الشباب .

القسم الثاني

الفكر الأدبي في القرن الرابع

تمهيد — ١

يمثل الفكر الأدبي في القرن الرابع تيارات ساخنة قامت حول شاعرية
أعلام شعراء هذا العصر ، ومدارس شعرية قوية قامت في مصر والشام
والعراق والري كما قامت في القيروان فاس وقرطبة وإشبيلية .

في الشام مدرسة شعرية ازدهرت برعاية سيف الدولة الحمداني ، الذي
كان صاحب همة عالية في تشجيع الأدب والشعر والثقافة ، ورغبة قوية في
تجديد آداب العربية وعلومها وثقافتها ، ومع قصر مدة حكمه ، وأن أيامه
كلها مضت في حروب متصلة بينه وبين الروم الذين كانوا يشنون الحروب
كلما سبغت لهم الفرصة على الثغور الإسلامية ، ومن بينها على الخصوص
ثغور الشام ومع أن موارد دوائه المالية كانت كلها أو جلها موجهة للدفاع
عن الإسلام ولنفقات الحروب الطاحنة التي عاها إلا أن عمده ازدان بهنضة
أدبية رفيعة كادت تعيد مجد الأدب والشعر أيام هارون الرشيد ، وابنه
المأمون ، فجمع بساطه كوكبه من أعلام الأدباء والشعراء من بينهم المتنبي ،
الذي عاش وظلال سيف الدولة تسع سنين ، وتصدر سدة الشعر في هذا القرن
وكذلك كان من بينهم أبو فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة ، وصاحب
القصائد الروميات المشهورة ، وكذلك السري الرفاء أشعر الوصافين في
عصره ، وأبو العباس الثامي وأبو الفرج البغداد ، وابن نباتة السعدي ،
والشاعران الخليليان والوأياء الدمشقي ، وغيرهم .

ومن اتصل بسيف الدولة : أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتابه الاغانى ،
وقد أهدى إليه الكتاب ، فوصله بألف دينار ، وكذلك المعلم الثاني أبو نصر
الفارابي الفيلسوف ، وابن خالويه اللغوي .

ولقد كان أبو الجايب عاصمة هبت على الشعر في القرن الرابع الهجري ،

وكان محدوداً في شعره ، لم يسعد شاعر بما سعد به من عناية النقاد واهتمام
الدارسين ، واحترام المتذوقين ، ومن عكوف أئمة الأدب والشعر
والنقد على شعره نقداً وشرحاً ودراسة . . . وظهر المتنبي في عصر كان فيه
ومن أعلامه : أبو فراس والشريف الرضي ومهيار ، والسرى الرقاء ،
والخالديان ، والوأواء دمشقي ، وابن هاني ، وتحميم بن المعز وأضرابهم .

وكان المتنبي يحظى بنبوغ شعري نادر ، وبعقوبة موهوبة عزت على
سواه ، فله الملكة القادرة ، والموهبة النادرة والأصالة الشعرية القاهرة ،
وله الموسيقى الحلوة الأسيرة ، التي لا يجاريه فيها أحد .

وكانت إجادته للديح ، ولوصف المعارك الحربية ، ولشغى المشاعر النفسية
الذاتية ، وللغفر والحكمة والهجاء ، وللعتاب والشكوى والأمل
والحنين ، شيئاً فوق طاقة معاصريه من الشعراء : وكانت الرمزية تغلف معانيه
وأسلوبه بالصور الشعرية الضبابية الأخاذة الفاتنة .

كانت آماله أكبر من قدرته ، وكان اعتزازه بنفسه وبشخصيته أكبر من
كل اعتزاز . وكان في عصره كأنما ألقم كل الشعراء أحجاراً فلا يستطيعون
أن يقولوا ، ولا أن يدعوا ، وكان حسد معاصريه له شديداً ، يقول
في ذلك :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني
فلا أعاتبه صفحاً وإمروانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني
إن النفيس غريب حينما كانا
عسد الفضل مكفوب على أترى
ألقى السكى . ويلقاني إذا خانا

لا أشرب إلى ما لم يفت طمعا
ولا أبيت على ما فات حسراتنا
ولا أسرب ما غيري الحيد به
ولو حملت إلى الدهر ملأنا
حوما أدورع ما قال المتنبي في شعره :

وعندي لك الشرد السأرا
ن لا يختصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن عن مقولى
وثين الجال وخضن البحارا
ولى فيك ما لم يقل قائل
وما لم يسر قر حيث سارا
ويقول فيه :

إن هذا الشعر في الشعر ملك
سار فهو الشمس والدنيا فلك
ويقول فيه :

حوما الدهر إلا من رواة قصائدى
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منذاً
فسار به من لا يسير مشعرا
وغنى به من لا يغنى مغردا
أجزئى إذا أنشدت شعرا فإنما
يشعري أنك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتي فأبني
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

ومحسب المتنبي قصيدته في كافور :

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجد
أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت لي يدا دونها بيد

إن موسيقى المتنبي في شعره لا مثيل لها في موسيقى الشعر العربي -
وعنه الموسيقى تجعل شعره أقرب إلى الغناء ، له كان يحمل واديت الشعر
العربي في كل العصور حتى عصره ، ويحمل ملكاً وموهبة وعبقريّة عزت
نظائرها على الشعراء وغيرهم .

واقف نهض الشعر والأدب في عهد سيف الدولة ، وبلغ بهما خدبه -
مكانه عالية ، وتوفي سيف الدولة عام ٢٥٦ هـ عن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك
بعد وفاة المتنبي بعامين .

وفي الشام كذلك عاش أبو العلاء المعري في القرن الرابع شطراً من
حياته ، واحتل مكانه الخالد بين شعراء العربية الكبار ، بعد أبي الطيب
المتنبي .

وفي بغداد عاش الشريف الرضي ، وغيره من كبار الشعراء يملأون
الدنيا شراً .

وفي العراق والري عاش ابن العميد الوزير (٣٠٠ - ٣٦٠ هـ) وبرع
في طلال دولة بني بويه في الأدب والبلاغة ، وذاع أمره في النثر ، في

الكتابة ، واتبع الناس طريقته ، وانتشر أسلوبه في كل مكان وكان مذهبه في الكتابة يعرف بمذهب ابن العميد ، وله المنزلة العالية في كل مكان ، حتى لقد قيل فيه : بدت الكتابة بعد الحميد ، وختمت بان العميد .

وفي دولة البويهيين نشأ البديع الهمداني ، وأبو بكر الخوارزمي ، والصاحب بن عباد ، وأبو حيان التوحيدى ، والشماعى صاحب ديتمة الدهر ، وأبودلف وابن مسكويه المتوفى عام (٢١١ هـ) صاحب كتاب دتجارب الأمم ، وسوام .

وفي القاهرة كان تميم بن المعز شاعر القرن الرابع في مصر يؤكد ازدهار دولة الشعر والأدب في مصر في عصر الفاطميين... وفي القرن الرابع في القاهرة وضع أساس كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو أشهر كتاب في القصة العربية القديمة وقد تحدث المسعودى (المتوفى عام ٣٤٦ هـ) ، وابن النديم في كتابه والفهرست ، عن أصول هذا الكتاب الفارسية .

وفي قرطبة في القرن الرابع عاش أبو على القالى صاحب كتاب الأمالى المشهور . وعاش في اشبيلية فترة من الزمان ابن هازم متنى المغرب ثم هاجر إلى المهدية ، وأقام فيها . ولما توفى عام ٢٦٢ هـ حزن عليه المعز الفاطمى حزناً شديداً . وقال : د لنا نريد أن تفاخر به شعراء المشرق فلم يقدرنا ذلك ،

* * *

إن مدارس الأدب والشعر في القرن الرابع كانت قوية خصبة مؤثرة وكانت النهضة الأدبية والشعرية مزدهرة في أنحاء العالم العربى الاسلامى ، وكان أعلام الأدباء والشعراء يملأون الساحة الأدبية في كل مكان من مشرق العالم الاسلامى إلى مغربه .

وكان الفكر الادبى في القرن الرابع يتحتمل في قيام مدارس في الأدب والشعر في كل مكان من العالم العربى ، ولكل مدرسة مذهبها واتجاهها

وأعلامها ، وتمثل كذلك في نهضة أدبية وشعرية طالية ، كان لها أثرها في حياة الأدب والشعر واللغة العربية ، وتمثل كذلك في تأثير هذا الفكر على الحضارة الإسلامية العربية في هذا القرن ، وفي ظهور أعلام كبار كان لهم شأنهم في كل مكان من العالم الاسلامى والعربى .

* * *

وهناك قضيتان تظهران عند أدها القرنين الثالث والرابع ، هما قضية اللفظ والمعنى ، وقضية الطبع والصنعة .

فالقضية الاولى : تبرز دائماً في كتابات نقاد القرن الثالث والرابع ، نجدها عند الجاحظ وابن قتيبة ، كما نجدها عند ابن طباطبا وقدامة والآمدى . والجرجاني وأبي هلال وسوام . فاد الجاحظ ، لا يهمل المعنى ، وإنما يجب هذه رعايته ، وأن يأتي اللفظ على قدره ، فالمعنى إذن هو الأصل ، واللفظ تبع له أو ظال له ، يقول الجاحظ ، (١) : « إن المعاني إذا كسبت ألفاظاً كريمة ، واكسبت أوصافاً رفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت وزخرفت ، فقد صارت الالفاظ في معاني المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجوارى ، » .

ويقول أيضاً : « إذا اكتمى المعنى لفظاً حسناً ، وأعاهه البليغ عرجاً سهلاً ، ومنحه المتكلم دلاً متعشقا ، صار في قتلك أحلى ، وبصورك أملاً . »

ويقول إذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال ، ومصوناً عن التشكف ، صنع في القلوب ما يصنع الغيث في التربة الكريمة ، ومنى فصلت الحكمة على هذه

الشريطة . وتمتد من قائمها على هذه الصفة ، أصحها الله من الترفيق ، ومنحها .
من التأيد ، مالا يمنع معه من تعظيمها به صدور الجبارة ، ولا يذمل عن فهمها .
معه عقول اجملة .

ويقول : كذلك المعاني مبسطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية .
والألفاظ مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة ، وهي التي تكشف لك عن
أعيان المعاني في الجملة ، وعن حقائقها في التفسير ، وعن أجناسها ، وأقذارها ،
وعامها ، وعامها ، وعن طبقها في السار والضار ، وعما يكون لغواً يهرجا
وساقطاً مطرحاً (١) .

وهكذا نجد الجاحظ يحتفل باللفظ والمعنى ، لا باللفظ وحده . وإن
كان احتفاله باللفظ أبين وأظهر ، وقد ذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أنه
يهتم باللفظ ويهمل المعنى ، وذلك مالا يتضح من كلام الجاحظ بحال من الأحوال
وإذا قال الجاحظ : : المعاني مطروحة في الطريق ، فأنما يريد أن المعاني
الجيدة تنأى للخاصة ، وتنأى للعامة ، وإنما تظهر البلاغة بصناعة العبارة
عن هذه المعاني ، وفي هذه الصناعة يتفاضل المنشئون والبلغاء .

وان قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) يطرح قضية اللفظ والمعنى ،
ويجعل الشعر أقسام أربعة :

١ - ضرب حسن لفظه ، وجاد معناه . ومثل له بأمثلة ، منها : قول
داود بن حجر ، :

أيها النفس : أجملي جزعا

إن الذي تحذرين قد وقعا

(١) المرجع نفسه ٢٨٧/١ وما بعدها .

وقول «أبي ذؤيب الهذلي» :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

٢ - وضرب حسن لفظه وحلا، فإذا فحشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ومثل له بالآيات المنسوبة إلى «كثير عزة» :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالآركان من هو ماسح
وشدت على حذب المأزى ركابنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فهذه الآيات - فى رأيه - ألفاظها أحسن شئ «مخارج ومطالع ومقاطع» : وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته لا يخرج عن هذه العارة : «لما قطعنا أيام منى ، واستلينا الأركان ، وطالينا لبنا الأنضاء . ومضى الناس لا ينظر غادهم رائحهم ، بدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح ، ... وقد رد ابن جنى فى الخصائص ، وعبد القاهر فى «أسرار البلاغة» على ابن قتبية فى ذلك وشرحاً الصورة الشعرية الرائعة التى تحملها هذه الآيات :

٣ - وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه . ومثل له بقول «ليبد ابن ربيعة» :

ما عاذب المرء الكريم نفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح
فالبيت فى رأيه جيد المعنى والسبك ، قليل الماء والرواق .

٤ - وضرب تأخر معناه ولفظه معاً ، ومثل له بأمثلة «ها قول الخليل ابن أحمد» :

إن الخليط تصدع فطر بدائمك ، أو قم

لولا جوار حنان ، حرور المدامع . أربع
أم البنين ، وأسماء . ، والرباب ، وبوزع
لقلت للراحل : ارحل إذا بدا لك ، أو دع

فهذا في رأى ابن قتيبة شعر بين التكلف ، ردى الصنعة ، كأشعار العلماء
التي لا تنأى عن إسماح وسهولة .

وإن كان ابن قتيبة ، يذكر أن ليس كل الشعر يحفظ من أجل جودة
اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يحفظ لأسباب آخر ، منها :

— الاصابة في التشبيه ، كما قيل في معنى ردى الصوت :

كأن أبا الشموس إذا تغنى يحاكي عاطسا في عين شمس
يلوك بلحيه طورا ، وطورا كأن بلحيه ضربان ضرس

جمال الروى ، كقول النائل يذكر حاله مع محبوبته :

ولو أرسلت من حيك مبهمة تأ من الصين

لوافيتك قبل الصبح أو حين تصلين

والمبهوت الطير الذى يكلف الطيران قبل قدرته عليه .

أن قائله لم يقل غيره ، أو لأن شعره قليل عزيز ، كقول عبد الله بن أبيه
سلول ، المناق :

متى ما يبكى مولاك خصمك لا تنزل نذل ، وبعوك الذين تصارع

وهل ينهض البازى بغير جناحه

وإن قص يوما ريشه فهو واقع

— غرابة المعنى ، كقول أحدهم :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار
- منزلة قائله ، كقول « الرشيد » ،

النفس تطمع ، والأسباب عاجزة والنفس تهلك بين اليأس والطمع (١)
ونقاد القرن الرابع جميعاً يهتمون بهذه القضية ، ويتحدثون عنها ،
ويفيض كل منهم في ترجيح جانب من جوانبها ، من ابن طباطبا إلى قدامة
والأمدى والجرجاني وأبي هلال وغيرهم .

والقضية الثانية هي قضية الطبع والصنعة :

ويعرف « ابن قتيبة » المطبوع من الشعراء بأنه : « من سمح بالشعر ،
واقترد على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي قاتمته قافيته ،
وتبدلت على شعره رونق الطبع ، ووشى القرينة ، وإذا امتحن لم يتلعم ،
ولم يتزحزح » (٢) .

وهكذا كل من يرجع إلى السجية والطبيعة ، حيث لا يكون تكلف
أو تصنع أو افتعال ، وإنما يأتي الشعر سمحاً سهلاً ، يترتب آخره على أوله ،
ولا يتوقف فيه قائله ، لا تقطاع نفسه « أو تضوب معينه » .

ويرى « ابن قتيبة » أن الشعراء مختلفون في الطبع ، فمنهم من يسهل
عليه المديح ويسر على الهجاء ، ومنهم من يتيسر له الرثاء ويتعذر عليه
الغزل ، ويذكر مثالا مما قيل للمجاشع : إنك لا تحسن الهجاء ، فقال : إن لنا
أحلاماً تمنعنا من أن نكون ظالمين وأحساباً تمنعنا من أن نكون مظلومين ،

(١) الشعر والشعراء ١ / ٩٠ وما بعدها طبعة دار المعارف ١٩٦٦ م .

(٢) ٤ ، مراجعات في النقد - محمد السعدى فرهود - طبعة القاهرة ١٩٧٤

وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم . ويخالف د ابن قتيبة ، ذلك إذ يقول :
« وليس هذا كما ذكر العجاج ولا المثل الذي ضربه للهجا والمديح بشكل ،
لأن المديح بناء والهجاء بناء وليس كل بان يضرب بانياً بغيره . ونحن نجد هذا
بعينه في أشعارهم كثيراً ، فهذا ذو الرمة ، أحسن الناس تشبيهاً وأجودهم
تشبيهاً ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى
المديح والهجاء خانه الطبع ، فقالوا : في شعره أبعاد غزلان ونقط عروس .
وكان الفرزدق ذيرنساء وصاحب غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب
وكان جرير عفيفاً عازقاً عن النساء ، وهو مع ذلك أحسن النساء تشبيهاً ،
وكان الفرزدق يقول : ما أحوجه - مع عفته - إلى صلابة شعري ،
وما أحوجني إلى رقة شعره ، لما ترون . » (١)

ويرى نقاد القرن الرابع أن الأقدمين لم يختصوا وحدهم بالطبع إذ
يختص الله بصفاء الطبع قوماً دون قوم ولا عصرأ دون عصر والأصالة
والطبع موجودان في كل عصر .

أما الشعراء المولودون فأما يستحسن منهم لطيف ما يوردونه من
الأشعار وبديع ما يقربونه من المعاني ، وبلغ ما ينظمونه من الألفاظ ،
ومضحك ما يسوقونه من النوادر ، وأنيق ما ينسجون من الوشى ، دون
حقائق ما يشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون القولية ، فأشعار
المولدين متكلفة ، غير صادرة عن طبع صحيح ، كأشعار العرب التي
سبيلهم في منظرها سيلاهم في منشور كلامهم الذي لا مشقة عليهم فيه .

(١) الشعر والشعراء : ٩٠/١ وما بعدها طبعة دار المعارف ١٩٦٦ م .

ويرى نقاد القرن الرابع أن الأقدمين من الشعراء سبقوا بالطبع وقازوا به . فيقول : ابن طباطبا ، في أشعار المولدين (١) : فيها عجائب أفادها المولدون ، تقدمهم ، ولطفوا في تناول أصولها منهم ، وليكن المحنة في هذه الأشعار أن الأقدمين سبقوا إلى كل معنى بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة ، فإن أتى المولدون بما يقصر عن معاني الأقدمين ولا يربى عليها مل المولدون واطرحوا ، فلقد كان من قبلنا في الجاهلية وفي صدر الإسلام يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها : مديحا ، وهجاء ، واقتخارا ، ووصفا ، وترغيا ، وترهيبا .

وكان أفلاطون يرى الشعر الهاما وطيبا ، وخالفه أرسطو ، فنابى بأن الشعر صنعة وجرد ومعاناة .

على أن الصنعة لا تستغنى عن الطبع ، وإنما ترجع القدرة في الصنعة والبراعة فيها إلى الأصالة والصدق ، وهذان من الأمور التي تستند إلى الطبيعة والاستعداد ، وإس في الامكان تصور صنعة في الفن لا ترتد إلى حس مرهف وقلب حي وعقل نابض ، إلا أن تكون صنعة باهتة ، وقشور طلاء ، وعرضاً من أعراض الجواهر ، وكل ذلك يزول بعد حين ولا يبقى إلا بمقدار اللذة منه ، وهي لذة موقوتة ، لا يقدر لها أن تعيش في أعماق الزمان .. وبوضع الفارابي ، - في كتاب الشعر - صلة ما بين الطبع والصنعة في تقسيمه الشعراء إلى ثلاث ثبات :

١ - ذوو الطبيعة المتميزة لقول الشعر ، والمعرفة بطرق صناعته على ما ينبغي ، فهم يجيدون فيما يتأتى لهم من تشبيه ، وتمثيل ، وتخيلات ، وفيما يتاح لهم من أنواع الشعر .

٢ - الذين يقتصرون على جودة طباعهم وتأنيهم لمهام ميسرون له ، ولا يكونون على معرفة بصناعة الشعر ، وهؤلاء لا تتم لهم آلة الشعر ولا يتفوقون فيه .

٣ - الذين يقلدون هاتين الفئتين فيحفظون عنهما مقالهما ، ويحتدون في التشبيه والمثيل والنخيل حذوهم ، من غير أن تكون لهم طباع شعرية ولا وقوف على قوانين الصناعة ، وهؤلاء أكثر زللا وخطأ .

وقد شرح المرزوقي ، في تقديمه لشرح ديوان الحامسة - الكلام عن طرائق الغرب ومذاهبهم في الصنعة ، حين أشار إلى أسس اختيار الأشعار ، فعد هذه للطرائق والمذاهب ثلاثة :

أولها - طريقة التكافؤ بين اللفظ والمعنى ، دون انحياز إلى أيهما ، فتكون الصنعة قد اكتمل لها استواء اللفظ بجماله ، وحسن تأليفه ، وخلوه مما يكدر ويشوه من المعنى والخطأ في اللغة والإعراب ، وابتعد عن جنف التأليف ، حتى جاء مستساغا سلسا ، فيقع بتلك الصفات موقعه الحسن في السمع . فليتذبه فإذا تم له صواب المعنى حسن تقبل العقل له ، وقبله الفهم . وبذلك يكون قد تم له جانب البلاغة .

وثانيها - طريقة أصحاب البديع ، ومن لم يرض بالوقوف عند هذا الحد ، فتجاوزه ، والتزم من الزيادة عليه : تتميم المقطع ، وتلطيف المطلع ، وعطف الأواخر على الأوائل ، ودلالة الوارد على الصادر ، وتناسب الفصول والوصول ، وتعادل الأقسام والأوزان ، والكشف عن قناع المعنى بلفظ هو في الاختيار أولى ، حتى يطابق المعنى اللفظ ، ويسابق فيه الفهم السمع . ومن أصحاب البديع من لم تقنعه هذه التكاليف في البلاغة ، فطلب الصنعة في الترصيع والتسجيع ، واهتم بمعارض المعاني - أي الألفاظ وزينتها وكسوتها . فهو يجلوها ويرقصها ، كائناً ما كان محتواها .

وثالثها - طريقة أصحاب المعاني ، وهم أبو تمام ومن تأثره ، طلبوا
المعانى المعجبة من خواص أماكنها ، وانتزعوها جزاة ، عذبة ، حكيمة ،
طريقة أو رائقة ، باعة ، فاضلة ، كاملة ، لطيفة ، شريفة ، زاهرة ، فاخرة ،
وجعلوا رسومها أن تكون قريبة التشبيه ، لائقة الاستعارة ، صادقة
الأوصاف ، لائحة الأوضاع ، خلاصة في الاستعطاف ، عطافة لدى الاستئثار ،
مستوفية لحظوظها عند الاستفهام ، من أبواب : التحريض ، والتعريض ،
والإطناب ، والتقصير ، والجد والهزل ، والخشونة ، والليان ، والإباء ،
والسباح ، من غير تفاوت يظفر في خلال أطباقها ، ولا فصور ينزع من أثناء
أعماقها ، تعطيك مرادك إن ربيت بها ، وتمنعك جانبها إن عنفت معها .

أبو الطيب المتنبي شاعر العربية

٣٠٣ - ٥٣٥٤ : ٩١٦ - ٩٦٥ م

حياة أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي قصة رائعة من قصص البطولة ، ورواية حافلة بألوان الطموح إلى المجد ، والنزوع إلى الرفعة ، وصدى مدو لما كانت تمنيه النفر الكبيرة من آمال ، وما كانت تجيش به الهمة العالية من رغائب .

ولد بالكوفة من أبوين فقيرين ، ثم تنقل بينها وبين بلاد الشام ، يسلم نفسه إلى المكاتب ، ويتردد في القبائل ، ويسرح في الدوايد ، حتى إنه قضى زمنا طويلا في بادية السماوة يتلقى عن الأعراب ويشافئ أرباب الفصاحة . ولعل هذا هو السر في تمكنه من اللغة وإحاطته بأمرارها ، وهو في هذه البيئات الأدبية يشب على الفصاحة ، ويكرع من حياض البلاغة . وغنايله تنطق بما ينتظره من مجد ، وتبشر بإمامته في دولة البيان .

أقبل في طفولته على الدراسة والعلم ياتهمها التهاما في مكاتب الكوفة ومساجدها وحلقات العلم فيها ، واختلف إلى مجالس الأدب ومكاتب الوراقين ، اختلفه إلى أعراب البادية ، حتى تم له ما أراد من نضج الثقافة واكتمال الشاعرية .

والكوفة بمساجدها ومكاتبها وحلقات العلم فيها ، وبأتمتها في الدين واللغة والأدب والبيان والشعر ، أحفل بيئة في ذلك العصر ، وكأنها جامعة كبيرة تخرج الشباب إلى الحياة مزودين بشتى الثقافات ، فتلقفهم مصر والشام وبغداد وغيرها من العواصم تهمة لهم سبل المجد في قصور الخلفاء والأمراء .. والكوفة بعد ذلك مسرح لصراع عنيف بين شتى الأحزاب

والفرق الإسلامية ، من شيعة ، وخوارج ومعتزلة ومرجئة وغيرها ،
وفىها الراية العباسية تظلمنا حيناً ، وتعتصف بها ثورات القرامطة ، ودعوات
الاسماعيليين أحياناً أخرى ، وفى هذه البيئة وأصل أو الطيب دراسته ،
متصلاً برجالات البكورة كآبى الفضل الكوفى وسواه ، معللاً نفسه
بكبائر الآمال ، وعذاب الآمانى ، يردد ما فى قصائد من شعر الشباب تنضح
بشعوره وطموحه وأحلامه ، متخذاً من سمو حسبه . فى نسبه ، مفخراً
له فى الحياة .. يفتخر بآبائه وأسرته فخره بنفسه وعصاميته ، متطلعاً إلى
سبل المجد يسلكها بعزيمة وقوة وتضحية .

وطارده شبح الطموح والمجد حين ضاقت الحال به فى وطنه فهاجر منه فى
سن السادسة عشرة إلى الشام ، وفى صدره ثؤاد يدفع آلام الحياة بجميع
الآمال ، وبين جنبيه نفس كبيرة فضجت ثقافتها ، ونبتت شخصيتها ،
وتفجرت شاعريتها . فتطلعت إلى مجد أدبى كبير ومستقبل سياسى خطير .
تلمس هذا الطموح البعيد فى آلياته :

أى عمل أرتقى أى عظيم أتقى

وكل ما خلق الله وما لم يخلق

محترق فى همى كشجرة فى مفرق

وتنقل الشب بين بوادى الشام وحواضرها ، ولكن الحياة لم تمنحه
السعادة المرموقة ولا الآمال المرجاة ، فامتألت نفسه ثورة ، وصمم على أن
ينهج سبيلاً جديدة :

ضاق صدرى وطاب فى طلب الرزق ق قيامى وقل عنه قومدى

أبدأ أقطع البلاد ونجمى فى نحوس وهمى فى صهود

عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن للقنا وخفق البنود

فرووس الرماح أذهب للفيظ وأشنى اغل صدر الحقود
وانتهى به المطاف إلى اللاذية ، فأقام يذبح فيها آراء مسرفة في السخط
على الولاة الذين ملأوا البلاد جوراً ، وفي التبشير بإمارة جديدة يقام
فيها على يديه للحق صرح جديد يكون منارة العدالة في ظلمات الحياة
الاجتماعية إذ ذاك .

وسار أبو الطيب بدعوته - التي مزج فيها السياسة بالدين ، على نهج
الدعوات التي شاهد القرامطة يقومون بها في السكوفة - في طريق التنفيذ ،
فخرج إلى أرض من إقليم حمص ، ايعلن فيها الثورة بتأييد بعض أنصاره
ومريديه ، ولكن بقظة لؤلؤ والى حمص جعلته يشعر بمرامي أبي الطيب
فاعتقله ، ولبث في السجن بضع سنين ، وهكذا قذف به الطموح إلى
تضحية ليس بعدها من نهاية ، وإن كان أبو الطيب لا يالئ بأية تضحية
يبيذلها في سبيل آماله :

فاطلب العز في نظى وذو الذل ولو كان في جنان الخلود
واستشفع الشاعر إلى الوالى بقصائد كثيرة نعى عنه فيها كل تهمة وأخذ
يردها إلى وشاية الحاقدين ودعاية الناقين :

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت منى كحبل الوريد
دعوتك لما برانى البلى وأوحى رجلى ثقل الحديد
فما لك تقبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبان بمحك اليهود
وكن فارقا بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأور بميد
وأخيراً أطلق سراح الشاعر فتجددت في نفسه آماله ، وأخذ يناضل
في سبيلها بسلاح من عاطفته وفنه وإلهامه ، بعد أن فل سيفه وكل رجه
في محاولاته وثوراته ، ونشد الشاعر الإمارة والولاية في ظلال الملوك

والأمراء فسعى إليهم بمواجهه الشعرية القوية الأسباب الرائعة الشاعرية ، طالباً لنفسه المجد والامارة وأسباب الحياة ، فانصل بعلي بن المنصور الحاجب وبدر بن عماد من ولاية الشام ثم صار إلى أبي العشار وإلى أنطاكية من قبل سيف الدولة فامتدحه ، وأكرم أبو العشار مثواه .

ووثق به أسبابه ، وفتح له باب الأمل على مصراعيه من جديد ، حتى قدمه إلى سيف الدولة حين قدم أنطاكية سنة ٨٣٣٧ وأثنى عليه عنده وعرف منزلته في الشعر والأدب ، فضمه الأمير إليه ، وحسن موقعه عنده وعليه الفروسية والطراد وأفعم وطابه .

نعم المتنبي في ظلال سيف الدولة ، يد أن نفسه أبت عليه أن يكون مظهره مظهر رجال الحاشية الذين يفنون شخصياتهم في شخصية الأمير ، فنسب عليه أن يهفيه من قيود التقاليد وأعباء المراسيم فلا يكاف تقبيل الأرض بين يديه ولا أن ينشد شعره قائماً في مجلسه وألا ينظر إليه إلا نظرتة إلى الصديق الحميم ، وقبل سيف الدولة ، فأقام أبو الطيب في ظله تسع سنين ، لم ينس فيها أمانيه ، وكان يرى نفسه خلالها صديق الأمير ومستشاره والعزير المسكين لديه ، فلازمه في سلمه وحربه ، وجده ولحوه ، وحله وترحاله ، ينفحه الأمير بالصلوات ، ويهيه الشاعر مجد الأدب وعز الأبد . ففي كل مناسبة خطيرة ينشد الشاعر الأمير قصيدة يسجل فيها عواطفه ومشاعره وآماله ويرسم فيها شخصيته ونفسيته ، ويذكر فيها ما تستدعيه هذه المناسبة الحافزة من معان تدور حول الإشادة بالأمير والثناء عليه وذكر بلائه في الحروب وسياسته للدولة وفتكه بالأعداء وبطشه بالعابثين ورحمته للعافين ، وقد لازيد هذه القصائد في العام على ثلاث . وكانت هذه الحقبة أخصب طور في حياة الشاعر وشاعريته ، ففيها حاش يحلب في بلاط سيف الدولة ، الذي تنسم العرش بعد والده من (٣٢٣ - ٣٥٦) فأسكن للفن ووطد دعائم الملك ، ورد عادية أعداء الدولة من الروم والأخشيديين والفاطمييين وسوامم وعاصر

أبو الطيب النهضة الأدبية واللغوية التي دعاها سيف الدولة، والتي كان من رجالها أبو فراس ابن عم الأمير والسرى الرقاد والسلامي وأبو العباس النامي^(١) وكشاجم والخالديان وأبو الفتح البيهقي وابن نباتة السعدي، وسواهم من الشعراء .

وانتصل به ابن نباتة الخطيب وابن خالويه النحوي وأبو الطيب اللغوي الأديب والفارابي الفيلسوف وسواهم من رجال الدولة وزعمائها في الدين والأدب وفي الفكر والثقافة وفي السياسة والاجتماع، مما كان له أثره الفكري والأدبي في نفس أبي الطيب، وفيها رأى الشاعر عيون النقد والمنافسين تنوب إليه وأسماعهم تصغى له فأذكت المنافسة عاطفته، وهاجت شاعريته، وفيها كانت تبحش في صدره كل حوافز الشعر ودواعيه من الشباب الناضر والمجد الباهر، والشاعرية الطامحة، مما كان يحفز به إلى الجودة في القول والابداع في القصيد، حتى إنه لما فارق الأمير فقد الكثير من هذه الحوافز والأسباب فتجوز في قوله وأعفا طبعه واعتنم الراحة كما يقول المتنبي نفسه .

ولم يكن أبو الطيب في شئ انصلااته « تاجراً من تجار الأدب »^(٢)، كما ظن بعض الباحثين الذين جهلوا نفسية أبي الطيب وغاياته فرموه بالجنون حين التجأ إلى أمير بعد أن كان يطلب لنفسه الإمارة، وبالتجارة بالأدب بعد أن كان يطمح إلى أسمى ما يطمح إليه الطامحون، وليتهم علموا أن قصائد أبي الطيب التي كان يهديها إلى الملوك والأمراء، إنما كانت وسيلة إلى المجد، ولم تكن مدائح بالمعنى الضيق المحدود . إنما كان أغلبها تصويراً لتزعات الشاعر واتجاهاته وآرائه في الحياة، وإشادة بنفسه هو قبل كل.

(١) توفي عام ٣٩٩ عن تسعين عاماً ١/٤٦ ابن خلكان .

(٢) راجع ص ١١٩٤ إلى ١١٩٩ العدد العاشر من الهلال عام ١٩٣٥ .

شئ ، وقد عاش رجال الفن والأدب في كل العصور على اتصال برجال
السياسة ، ووجدت أمثال هذه الصلات في الغرب كما وجدت في الشرق : ورعاية
أصحاب العروش للنهضات الفكرية والأدبية ولرجال هذه النهضة لم
يزر بها ناقد عربي ، وكان لها أثرها الخير في توجيه الحياة الإنسانية في شتى
مناحها ونزعاتها .

وغيرت الحوادث قلب الصديقين : الشاعر والأمير ، فكبرياء المثني ،
وكثرة منافسيه ، وشاياتهم به - لاسيما أبو فراس الأمير - وثورة النقد
والخصومة بين أبي الطيب وابن خالويه في مجلس الأمير ، وطموح المثني
وعدم وصوله في ظل سيف الدولة إلى كل ما كان يفتشه من آمال كبار
كل ذلك كان له أثره في هذا التطور الجديد ، وسكن الشاعر سكون من
يتبين اتجاهات الأمور وعواقبها ، ولكنه لم يجد يجد في الأمير صديقه
الوفى ، ولا صداقة العزيزة لديه ، وقاتل الله غربة الرجل في وطنه :

شر البلاد مكان لصديق به وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وأخذ الشاعر يلوح له بما في نفسه وبالتأنيج الدامية التي تعقب هذا
الجهاد :

يا أعدائ الناس إلا معاملتي	فيك الخصام وأقوت الخصم والحكم
ما كان أخلفنا منكم بتكرمة .	لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان ضررك ما قال حاسدنا	فما لجرح إذا أرضاكم ألم
ويعتدنا لو رعيتم ذاك معرفة	إن المعارف في أهل الله ذمم
أرى النوى تقتضيني كل مرحلة	لأنستقل بها الوعاظ الرسم
لئن تركت ضميراً عن ميامننا	ليحدثن لمن ودعتهم ندم

وما ضمير إلا جبل عن عين السائر في الطريق من الشام إلى مصر فهو
يصرح له بأنه إذا اضطر إلى الخروج من بلده فسيقدم لأنه لا بد ذاهب
إلى أعدائه الإخشيديين .

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراجلون هم

* * *

وأخذ أبو الطيب يحمل حملاته العنيفة على خصومه ومنافسيه فلم يبق
أمل في الوثاق ، ففرج أبو الطيب من حلب إلى دمشق حيث زين له أحد
أتباع كافور أن يرحل إليه بمصر فيمم وجهه شطر مصر قاصداً بلاط بني
الإخشيد ، وكفت صلات الصداقة القديمة الباقية الشاعر عن أن يرى الأمير
بداهية من لسانه وآبده من شعره .

ولكن سيف الدولة لم يترك الشاعر حذاراً من لسانه ومن أن يطلع
أعدائه على أسرار دولته بأرسل إثره الجنود ليردوه فرجعوا خائبين ، وكانت
هذه مئة أمين بها الشاعر بعد على كافور .

قلوب لم تسكن في مصر ما سرت نحوها قلب المشوق المستهام المتيم
ولا نجت خيلي كلاب قبائل كأن لها في دياجي الليل حملات ديلم
ولا اتبعت آثارنا عين قائف فلم تر إلا حافراً فوق منسم
وسمنا بها البيداء حتى تفجرت من النيل واستدرت بظل المقطم

* * *

واستظل الشاعر بظل المقطم كما يقول ، فنزل في فناء كافور عام ٣٤٦هـ ،
وكانت الخلافة العباسية آنذ في ضعف سياسي ، وولاية الأقاليم في شبه
استقلال عن الخلافة وعهد الخليفة الراضي إلى محمد بن طنج الإخشيدى في

القيام بأعباء الحكم في مصر عام ٣١٣هـ فاستقل بها استقلالاً داخلياً ، وأخذ يوسع حدود بلاده شمالاً في ملك الحمدانيين ، وكان كافور مولى الأمير آنس فيه الكفاءة ، وحسن التدبير ، ونضوج الثقافة ، فعمد إليه بتربية ولي عهده ثم عينه عام ٣٣٣ قاضياً للجيش الذي أرسله لصد هجمات الحمدانيين على على دمشق وحمص ، ولكن الأجل أمرع ابن طغج إلى لقاء ربه فأعلن كافور ولاية العرش وأقام نفسه مقام الوصي عليه يدبر الأمور ويسوس الدولة ، ومات الملك الطفل بعد بلوغ سن الرشد بقليل فانفرد كافور بالأمر وظل يحكم مصر ثلاثاً وعشرين عاماً (٣٢٤ - ٣٥٧) ، وكان اسم أبي الطيب وشاعريته قد ذاعا في أرجاء العالم العربي إذ ذاك ، ثم علم كافور أن الثرى قد جف بين الشاعر وسيف الدولة ففاوضه ليتوجه إلى مصر فتم له ما أراد ، ولقد ترك أبو الطيب لنا صورة رائعة لتفسيده العميقة النائرة حين فارق سيف الدولة في قصيدة يقول فيها الرواة إن أبا الطيب نظرهما لما بلغه وهو في مصر أنه نسي في مجلس سيف الدولة ، وهي قصيدة رائعة فيها عتاب مرير وهجاء ثائر لسيف الدولة وأبياتها كلها موجهة إليه ، وتعرض به كما يقول العسكري (١/١٣٦) ولعل فيها سمات من الألم العنيف تجناه الحوادث التي حالت بين الشاعر والوفاء لصديقه الأمير ، فهو يقول فيها إنه لا يصون العرض جاره ولا يدبر على مرعاه اللابن وأنه ينقم على من نال دفته ، والغريب لا يجازيه إلا مللاً ، والمحب لا يجازيه إلا فتوراً ، وإنه اضطر إلى هذه الهجرة تضحية براحة وطمانينته في سبيل كرامته وعزته ، وإن ذكريات الصداقة بين الشاعر والأمير قد أخذت تتلاشى من مخيلته ، وأنه يعيش في طور جديد من التجربة لكافور ومطلع هذه القصيدة :

بم التعلل ، لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

وهنا :

يا من نعت علي بعد مجلسه كل بما زعم الناعون مرتين
كم قد قتلت ونم قدمت عنكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن
رايتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرطكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل عيب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفقكم حتى يعاقبه التفتيص والملل
ياي أصحاب حلمي وهو بي كرم ولا أصحاب حلمي وهو بي جبن
ولا أقيم على مال أذل به ولا أذل بما عرضي به درن
سهرت بعد رحلي وحشة لكم ثم استمر مريري وارعوى النوسن
وإن بليت بود مثل ودكم فإني بفراق مثله قن
وسام الشاعر طموحه آلام هذه التجربة الجديدة التي عصي في الدخول
بني غمارها آراء أصدقائه ومشيريه ، كما صنع كافور في تقريب الشاعر مخالفا
رأى وذيرة ابن الفرات ..

وأبلغ بعضي باختصاصي مشيره عصيت بقصديه مشيري ولوى
ولم تكن هذه الهجرة الجديدة في سبيل مال بل كانت في سبيل الملك
والدولة كما يقول الشاعر نفسه في كافور :

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشايب
إلى الذي نهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب
وأخذ الشاعر يدعو الأمير إلى تحقيق آماله فهو وإن كان شاعراً إلا أنه
قد خلق للسياسة والملك :

فأرم بي ما أردت مني فإني أسد القلب آدمي الرواء
وغواذي من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشمره
(٩ - الفسك النقدي والأدبي)

وانتظر الشاعر في الوطن الجديد وعد كافور انتظار المستبطين، المترقبين :
أها المسك أرجو منك نصراً على العدا وأمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقام التنعم
وألح عليه يطالبه عاجل وعده فالعمر يضيق عن طول الانتظار :
ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها وصيرت ثلثها انتظارك فاعلم
ولكن ما يعضى من العمر فائق فجدي لي يحظ البادر المتخضم
ويتأخر عن الشاعر وعد الأمير فلا تن آماله :

وإن تأخر عني بعض موعده فما تأخر آمالي ولا تمن
وطال مطال كافور لأنه كان يحذر على نفسه وعرشه من أبي الطيب
وكانت الوشائيات تملأ صدره بالحقد عليه ، وكان وزيره ابن الفرات الذي
ترفع أبو الطيب عن مدحه يحول بينه وبين المرء بما وعد . وكان وجود أبي
الطيب في قصره مجال الحديث ، ومنبع الوشائيات من رجال الحاشية ورجال
السياسة والآداب فأخذ أبو الطيب يعرض لسكاور بأمانيه وآماله :

أها المسك هل في السكاس فضل أناله فإني أغنى منذ حين وتطرب
إذا لم تنط بي ضعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب
ثم أخذ يلح في الطلب والتعريض :

أرى لي بقربي منك عينا قررة وإن كان قرباً بالبعد يشاب
وهل نافعني أن ترمع الججب بيتنا ودون الذي أملت منك حجاب ؟
وما أنا بالباغي على الحب رشوة ضعيف هو يبغي عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي على أن رأي في هواك صواب
وأعلم قوما خالفوني فشرقوا وغرت أني قد ظفرت وخابوا

ثم أخذ يكرر الطلب والرجاء :
 إذا اكتسب الناس المعالي في الندى فإياك تعطى في ندادك المعالي
 وغير بعيد أن يزورك راجل فيرجع مسلماً للمراقين (١) وإيا
 وعلم أبو الطيب بالوشايات ، فطلب من كافور أن يتخذة والياً ولو على
 سبيل التجربة والاختبار :

فكن في اصطناعي محسناً كجرب بين لك تقريب الجواد وشده
 إذا كنت في شك من السيف قابله فأما تنفيه وإما تعده
 وأعلن إليه رغبته في السلطان لا حاجته إلى المال :
 وما رغبتي في عسجد أستفيده ولكنه في مفخر أستجده
 وأنه سيحمده على ما فعل حمداً يفوق كل حمد :
 يحمده به من يفضح الجود جوده ويحمده من يفضح الحمد حمده
 ولكنه أخيراً فقد الأمل وعز عليه الرجاء :
 أقت في أرض مصر فلا ورائي تخب بي المطى ولا أمامي
 قليل عاتدي سقم فراشي كثير حاسدي صعب مرامي
 وما صعوبة مرأته إلا لما يطلبه من الملك والامارة كما يقول
 شارح ديوانه (١٤٥/٤ المبكرى) ، فأخذ أبو الطيب يسخر بكافور ويتهكم
 به سخرية المعلن في الإغراب فحيناً عمدته بسواد لونه مع عليه أن ذكر
 السواد على مسامع كافور أمر من الموت كما قال التوحيدى (٢) - زاعماً أنه
 طون المسك :

وبمسك يسكنى به ليس بالمسك ولكنه أريج الشناه
 وأن يياض الجلد خير منه يياض الفؤاد :

(١) الكوفة والبصرة .

(٢) ٤٦ الصبح المنبى .

إنما الجلد ملبس وإيضاض النفس خير من ايضاض القلب وحينئذ
يبالغ في التهمك والاستخفاف :

وما طربني أبى رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب
حتى قال ابن جني لصديقه الشاعر لم يزد علي أن جعلته قردا (٦٥ الصبح)
وفي هذه القصيدة بيت بلغ مبلغ الإعجاز في التهمك والسخرية :

وأظلم أهل الظلم من باب حاسدا لمن باب في نعمائه يتقلب
يريد أن كافورا يحسده ظالما وعدوانا على ما يتقلب فيه من نعمة هي من
يد كافور ولكنه أخفى غرضه بصياغة البيت صياغة فنية رائعة ذات معان
كثيرة ، وهكذا تقرأ له في كافور :

وشه سر في عـلاك وإنما كلام العدا ضرب من الهديان
وسامت علاقة أبي الطيب بكافور فوضعت عليه رقابة شديدة دقيقة
استطاع المتنبي أن يفلت منها هاربا يوم عرفة عام ٣٥٠ هـ بعد أن ينس
من الحياة ومن مجد الفخ واتخاذ الشعر وسيلة لمجد الحكيم والسلطان :

حتى رجعت وأفلامي قوائل لي المجود للسيف ليس المجود للقلم
ونظم الشاعر في رحيله قصيدته :

عيد بأية حال عـدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟
التي وسم بها وبسواها من قصائده كافورا بميسم الذلة والهنوان إلى الأبد :
وأكفر يا كافور حين تلوح لي فقارقت مذقارتك الشرك والكفرا

* * *

ويعم الشاعر وجه نحو الكوفة وأقام بها حيناً تردد خلاله على بغداد
وسواها من مدن العراق ، تسومه نفسه الكبيرة عذاب العبقرية :

ولذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام
 ويطارده دهره في سبيل العظمة وحيداً غريباً :
 أم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارده
 وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد
 وسأله كثير من الناس في عجب عن غايته البعده التي لا تنهى إلى غاية :
 يقولون ما أنت في كل بلدة وما تبغني؟ ما تبغني جل أن يسمى
 وعاش كذلك قريباً من ثلاث سنوات في هدنة بينه وبين نفسه بعدها
 لعظم الأمور .

وأخيراً قذف به في طموحه إلى بغداد مرة أخرى عام ٣٥٢ هـ فقاوضه
 رجالاتها كالصابي الكاتب والمهلب الوزير وسوام على أن يتوجهم بثنائه
 فاعتقد وانظر معز الدولة الملك والخليفة العباسي أن يعيش أبو الطيب في
 ظلالهم أو أن يشيد بدولتهم ولكنه لم يفعل ، وأثار وجود المتنبي في بغداد
 مشكلات سياسية وأدبية ، فأغرى به رجالات الدولة بعض أدباء بغداد
 كالحاتمي وبعض الشعراء كالحنبلج وابن سكرة والحسن بن لشكك البصري
 وسوام ، وعقدت مناظرة أدبية بين الحاتمي الأدب والمتنبي الشاعر ،
 دونها الحاتمي بعد حين (١) ، وهجاء شعراء بغداد والبصرة حتى قال فيه
 بعض الشعراء :

أى اضل اشاعر يطلب الفضل ل من الناس بكرة وعشيا ؟
 طاش حيننا يبيع بالكوفة الماء وحيننا يبيع ماء الحيا

(١) راجع المناظرة الحاتمية في ٢/٣٢٢ ابن خلدكان ، ٧١ - ٨٠ الصبح .
 المنبى ٥٥٦/٦١٤ قوت ، ٢/١١٤ النثر الفنى .

ولكن طموح المتنبي كان يشغله عن هذه الترهات ، فترجعه إلى إيران
ميمها وجهه شطر عضد الدولة بشيراز ، وطمع الصاحب بن عباد في زيارته
بأصفهان وكتب إليه يرحب بقدمه ويعلن استعدادة لمشاطرته جميع ماله فأبى
أن يسير شعره في شاب كالصاحب ، فكان ذلك باعثاً على عداوة ابن عباد
له ونقده إياه (١) ، وعلى حمله الأدباء والكتاب كأبي هلال العسكري وأبي
بكر الخوارزمي ، على ثلبه ومهاجمته بسلاح النقد . وعرج الشاعر على
ابن العميد بأرجان في أوائل سنة ٣٥٤ هـ وأقام عنده يشيد به ويطلب منه
الولايات لا الصلات ؟

إن لم نغتنق خيله وسلاحه فتنى أفود إلى الاعادى عسكرياً ؟

وبعد قليل شخص إلى شيراز حيث عضد الدولة ، لنفس ظمائه لارغبة
في إشباع شهواته :

وفي السلاطين من تولاهما والجا إليه تكن حدياها

يقول : كل أمر السلاطين إلى من يتولى أمرهم واعتمد عليه في آمالك
تكن واحداً منهم كما يقول شارح ديوانه (٢) . وفي قصر عضد الدولة وثقت
صلات الأدب بينه وبين أبي علي الفارسي وأبي الفتح ابن جني ، وأغدق
عليه عضد الدولة عطائه . ولكن الشاعر استأذن في الرحيل بعد قليل على
أمل أن يعود :

لعل الله يجعله رحيلاً يعين على الإقامة في ذراكا

وودع الشاعر الملك ، وسار ، وفي طريقه إلى بغداد اتى أبو الطيب

(١) راجع الكشف عن مساوى المتنبي للصاحب .

(٢) ٢٨٠/٤ عكبرى .

حتفه على يد فانتك ابن أبي جهل في رمضان عام ٢٥٤، وكان يحق على المتنبي لهجته ابن أخته ضبة كما يقولون، وأرى أنه كان مدفوعاً مع ذلك بيد السياسة الحاققة على أبي الطيب. وغربت العبقرية الطامحة، وانطفأت شعلة القريض الساحر، وفيض الشاعرية لئس، وكما يقول صديقه ابن جني في رثائه :

غاص القريض وأودت نضرة الأرب وصوحت بعد رى دوحة السكب

وهذه هي قصة طموح المتنبي وتضحياته التي ملأت كل طور من أطوار حياته عظمة وخلوداً، وأبو الطيب في طفولته وفي شبابه المثقف المتطلع إلى مجد السياسة، بعد أن ملأ جعبته من شتى ألوان الثقافة، وفي رجولته حين شعر بالاختفاق ومرارة الفشل فيما قام به من محاولات كان يرجو من وراثتها العز والجاه، والأمانة والملك، فسعى إلى سيف الدولة، ثم إلى كافور، ثم إلى عضد الدولة. لعله ينال في ظلهم ما ينشده من مجد وما يطمح إليه من جاه. هو هو الطامح إلى أبعد حدود الطموح، الساعى لعظيمة الأمور، مهما كلفه هذا السعى وذلك الطموح من تضحية وألم، وهو الذي شق بطموحه، وسامته نفسه عذاب المجد وجحيم العبقرية، فأب بعد طوافه بالفشل والحرامان .

ولكن أحقاً أبا الطيب قد ادعى النبوة فاستحق هذا اللقب ؟ أم أنها فرية نبذه بها أعداؤه الحاسدون له الحاقدون عليه ؟ إن الكتاب والأدباء يختلفون في ذلك ويذهبون مذاهب شتى في الاستنتاج والتعليل .

والحق الذي يمكن أن نستسيغه أنها نبوة أدبية، وأن الناس لا يطلقون عليه ذلك إلا من باب التشبيه : تشبيه الرسالة الأدبية بالرسالة الدينية، وأن أبا الطيب كان صاحب دعوة سياسية، كان يطلب الملك ويعني نفسه به، وبعد

العدة له ، ويطوف بالبوادى ويسجتمع للرثبة . ومهما يكن من أمره ، فقد أراد أن يترك الشعر إلى السياسة فردته الأيام من السياسة إلى الشعر ، وهكذا يخطئ أبو الطيب من حيث يصيب القدر ، فما المجد السياسى القانى إلى جانب مجده الأدبى الخالد .

هذا ما نقبله فى حق أبى الطيب ، أما ادعاؤه النبوة فلا نستطيع أن نتقبله فى سر مهما قيل فى الظروف التى كانت تهيئ لذلك فى عصره من كثرة الدعوات الدينية والسياسية ، وإلا فكيف كان أبو الطيب يأمن على نفسه من الناس وهو كثير الطواف والتردد عليهم ، وكيف يمكن أن يصح هذا عنه وهو المثقف الواسع الآمل الناقد البصيرة .

إنما نستبعد ذلك ونستعرض الأمور الآتية دليلاً لآئنا .

(أ) سئل المتنبي نفسه : على من تنبأ ؟ فقال : على الشعراء فقيل له : إن لكل نبي معجزة فما معجزتك ؟ فقال : معجرتى هذا البيت :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد (١)

وكان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة أى المرتفع من الأرض فهو يفسرها : حينما بما كان فى نفسه من كبرياء وعظمة واعتزاز بشخصيته ، وحينما باعجاز فنه وسحر قريضه .

(ب) وكذلك صديقه وتلميذه ابن جنى م سنة ٣٩٢ فقد قال فى تعليقه على بيت أبى الطيب :

أنا فى أمة تداركها الله غرب كصالح فى نمود

« وهذا البيت لقب المتنبي (١) . فهو يرجعها إلى أن المتنبي كان يشبهه بالأنبياء ويردد ذلك في شعره » :

(ج) وكذلك رأى الثعالبي م ٤٢٩ هـ حيث يقول في بيتته : « إن المتنبي بلغ من كبر نفسه وبعدهمته أن دعا إلى بعة . فوما من رائني نله وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه (٢) ، ثم قال : « ويحكى أنه تنبأ في جبال ، ومن شذمة بقوة أدبه وحسن كلامه (٣) ، إلى أن يقول : « وما زال في برد صباه إلى أن أخلق برد ثيابه ، يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضر من كامن وسواسه في الخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك (٣) . . . وذلك في ترجمة الثعالبي المتنبي (٤) .

(د) وكذلك رأى الواحدى (٥٤٦٨ هـ) إذ يقول متبعاً رأى ابن جنى في شرحه لبیت المتنبي :

مامقامى بأرصر نخلة إلا ك مقام المسيح بين اليهود
وهذا البيت لقب المتنبي لتشبيهه نفسه بعيسى في هذا البيت وبصالح في بيت آخر (٥)

(هـ) وكما رأى الشعراء المعاصرون لأبي الطيب ، أبو القاسم المظفر الطبستى الشاعر يقول في دثانه :

ما رأى الناس ثانى المتنبي أى ثان يرى لبكر الزمان ؟

(١) ١/٣٢٤ عكبرى (٢) ١/٩٢ اليتيمة .

(٣) ١/٩٢ المرحع (٤) ٩٠ - ١/١٩٠ البتمة

(٥) ١/٣١٩ العكبرى

كان من نفسه الكبيرة في جود ش وفي الكبرياء ذا سلطان
هو في شعره نبى ولكن ظهرت مميزات في الممانى
(د) ورأى عبد الكريم النهشلى أن أبا الطيب إنما سمي متنبئاً لعظمته ،
وقال غيره : بل قال : أنا أول من تنبأ بالشعر (١) .

(ز) وقد عرض المعرى ٤٤٩ هـ لنبوة المتنبي ، نقل الأساطير التي رددت
في ذلك وأدلى برأيه فيها في أسلوب دقيق من أساليب المعرى التي خفى وجهها
على كثير من الباحثين ، قال أبو العلاء :

وما صح أن ذلك الرجل - المتنبي - حبس بالعراق ، فأما حبسه
بالشام فمشهور ، وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال هو من
النبوة أى المرتفع من الأرض ، وكان قد طمع في شيء طمع فيه من دونه ،
وإنما هي مقادير ، وقد دلت أشياء في ديوانه ، أنه كان متألها ، ومثل غيره
من الناس متألها ، فمن ذلك قوله :

تقرب لا مستحظما سوى نفسه ولا قابلا إلا لحاقه حكا
وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبيء عن اعتقاد الإنسان ،
لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل القول
تدينا ، وإنما يجعل ذلك تزيينا (٢)

وقد أخطأ العقاد في فهم رأى أبي العلاء حيث قرر في مطالعته أن
أبا العلاء وقف موقف الشاك المردد في فهم ما نسب إلى المتنبي من دعوى
النبوة ، وإذا كان هذا الحافظ الثقة القريب العهد بالمتنبي يشك ويتردد فغاية

(١) ١/٥٩ العمدة .

(٢) ١٩ و ٢٠ / ٢ رسالة الغفران - كيلاني ، ٢٢ و ٢٣ صبح .

جهد الأدب والتاريخ أن يفتأ هذا الموقف (١) ، والمقداد بعد ذلك لا يستبعد دعوى النبوة على المتنبي ولا يجدها غريبة منه ، لأن نشأة المتنبي ، وحالة عصره ، وشعره . وترجمته ، كلها يؤيد مع المذد المشتبه وبوائمه مقتضيات الدعوى التي نسبت إليه . فنشأته في السكوة منع الفتن وثورات القرامطة التي خالطها دعوات الاسماعيلية ، ولوكة الذي يظهره صاحب مطامع دنيوية ، ونظرة في كتب الفلاسفة ، واستعراضه بعض آرائهم ، وغيظ المتنبي من كان يذكر له دعوى النبوة ، ورغبته في دفن هذا الحديث ، من كل ذلك نرى أنه ليس غريبا عنه أن يطلب المجد من طريق الدين ، ولكن هل فعل الرجل ذلك فادعى النبوة ؟ هذا ما لا سنيل إلى البت فيه برأى قاطع ، ولكننا بين قولين : أرجحهما أنه فعل وادعى ، والمرجوح منهما أنه لقب ، على أنني أرجح الأول ترجيحاً قوياً حتى أكاد أرفض الاحتمال هذا الثاني . هذا هو رأي العتماد (٢) .

وإذا رجعنا إلى رأى أبي العلاء وجدناه يقرر :

- ١ - أن أبا الطيب لم يحبس بالعراق ، إنما كان حبسه بالشام ولامر بعيد عن النبوة ودعواها ، وهو أمر يتصل بطموحه إلى الملك والولاية .
- ٢ - أن في شعر المتنبي ما يدل على نزعات دينية تناقض نزعة ادعاء النبوة .
- ٣ - وأبو العلاء يشك في دلالة الأدب على حقيقة ما نجس به النفس الإنسانية من شك أو يقين .

(أ) فأما أن حبسه كان بأسباب طموحه إلى الملك فهذا ما رأيناه من دراسة نفسية المتنبي وشعره وبسطنا فيه القول في كلامنا على طموحه وما أبداه ثقات الباحثين .

(١) ١٨ . مطالعات .

(٢) ١١٨ - ١٢٣ المرجع .

(ب) وأما أن أبا الطيب لم يخامر شك في العقيدة كما يدل على ذلك أشياء في ديوانه فذلك ما اختلف فيه الباحثون اختلافاً كثيراً . فكثير من النقاد شك في عقيدة المتنبي ونقد آياته البعيدة عن روح التقديس للعقيدة : كالصاحب (١) وكالشمالي (٢) والبديعي (٣) ، وكذلك رأى باحث معاصر أن المتنبي كان ضعيف العاطفة الدينية ، وأن في شعره إشارات كثيرة تختلف وضوحاً وخفاءً . ثم عن وهن العقيدة ، وضعف الإيمان ، وشأنه في ذلك شأن شكسبير ، وأن المتنبي آثر أن يسلك طريق الفن وحده ولئن كان نصيبه من الدين قليلاً فلقد فاز من الفن . أعظم نصيب (٤) ، وكذلك ذهب العقاد في مطالعته فرأى أن نشأة المتنبي وحالة عصره وبيئته وجلة ترجمته كلها دليل على ذلك (٥) ، وغير هؤلاء من الباحثين . وقد نعى القاضي الجرجاني م ٣٩٢ هـ في وساطته على من أزرى بالمتنبي لأبيات وجدها في شعره ، تدل على ضعف العقيدة ، وقرر أن منزلة الشاعر الأدبية لا يبوته إياها إلا خصائص شعره الفنية وحدها (٦) . . أما أبو العلاء فقد رأى أن المتنبي كان كغيره قوى العقيدة عميق الإيمان ، ورأى أن أبا العلاء كان مصيباً فيما يقول ، وأنه يجب أن نفرق بين شيئين : جنون العظمة والكبرياء في نفس المتنبي ، وروح المتنبي الدينية ، وأن نرد إلى كل مصدر منهما مظاهره الفنية والنفسية في شعر المتنبي وأدبه . فالمتنبي شاعر طموح ، ساخط حيناً وراض حيناً آخر ، وهو يمثل في شعره عواطف سخطة ورضاه ، في ثورة وقوة وفي حرية واسعة في التفكير وفي التعبير ، وفي

(١) ١٩ و ٢٠ رسالة صاحب

(٢) ١٤٢ / ١ / النبعة .

(٣) ٢٣١ و ٢٣٢ الصبح .

(٤) ١٢٠٤ - ١٢٠٨ هـ لال أغسطس ١٩٢٥ -

(٦) ٦١ الوساطة .

(٥) ١١٩ مطالعات

حياة معرفة في الابتداع والخيال والتصوير ، وليس ما يأخذه عليه الباحثون
عندى ضعفا في إيمان الشاعر وعواطفه الدينية ، إنما هو جنون الطموح
وحرية الفكر وإلهام الفن وثورة الحياة في سخطها ورضاها
والمها وأملها ، وأبو الطيب في أعماق نفسه وقرارة فؤاده متدين كل الدين مثاله
نغاية التأله ، وحنون الطموح والكبرياء يقترنان غالبا بروح قوية من الإيمان
في نفس الرجل العظيم ، على أن ما أخذ على المتنبي في هذه الناحية لم يدع
أحدًا من المنصفين إلى القول بأن أبا الطيب كان في عقيدته وهن ، فإذا
قال أبو الطيب في معرض المدح :

مذل الأعزاء المحز وإن يحى به يتمم قالموتم الجابر اليتيم
له رحمة تحمي العظام وغضبة بها فضلة للجرم عن صاحب الجرم
فليس ذلك ضعفا في إيمانه وإنما هو الاغراق في التصوير يدفعه كبرياء
في نفس الشاعر . وإذا قال في كافور :

ألا قتي بورد الهندي هامته كيما تزول شكوك النامر والتم
فإنه حجة يؤذى القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم
فإنما هو هادم المظاهر الاجتماعية التي يجعلها الشاكون من جور
القضاء وفوضى الحياة . وإذا استعان برجال لا يرون للدين قداسه
كما يقول :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستبح دم الحجاج في الحرم
فإنما هو غرور الكبرياء ، وثورة الغضب على من يعيشون في الأرض
فسادًا تحت ستار واه من العقيدة . وإذا وقف من خلود الروح موقف
الضال :

تخاف الناس حتى لا انفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب

فقل تخاص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين المعجز والعطب
فليس من رقة دين ، بل من اعتقاد جازم بصعوبة الوصول إلى رأى
حاسم في هذه المشكلات العقلية والفلسفية ، وليس هناك من إيمان بمذاهب
مادية في قوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من ترابه
بل هو ذهاب إلى الروح نفحة من السماء كما أن الجسد قطعة من الأرض ،
فالروح داعية الخير ، والجسم باعث الشر والهوى ، وإذا قال :

أبني أبيتنا نحن أهل منازل أبداً غراب البين فيها ينطق
فليس ذلك لأنه تطالعه أشباح الفناء من كل واد ، وإنما هو إعجاب
عما يراه من لجاج الموت في طلب البشر . وإذا قال :

نمنع من رقاد أو سهاد ولا نأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالك الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمتام
فذلك ليس إنكاراً للموت ، ومن ذا الذى يشك في الموت ، إنما هو
تفاوض بالسلامة من الحى ، وتفريق بين آلام المرض : في الرقاد والسهاد ،
وآلام الموت في الضجعة الأخيرة . وليس سخرية بآدم ما يقول :

يقول بشعب بوان حصانى أعن مذايسار إلى الطعان؟
أبوكم آدم سن المعاصى عليكم مفارقة الجنان
إنما هو إيمان بالشفاء المقروض على جبين الناس فرضاً ، والذى لاقى
أبو الطيب منه نصيباً مفروضاً ، وإذا شبه نفسه بالأنبياء في قوله :

ما مقامى بأرض غلة إلا كقمام المسيح بين اليهود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود
فليس انتهاء بمقامهم العظيم الكريم ، إمعاهو بلوغه بنفسه - فى
تكبرياء - إلى أسمى الدرجات الروحية . وكذلك ما كان فى قوله :
لو كان صادق رأس عازر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل جبينه بما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء يمينه عبت فكان العالمون بجوسا
تناول لمعجزات الأنبياء بالتهوين ، إنما هو لإغراق فى المدح والتعبير .
وليس عدولا عن العقيدة ما يقول فى ابن العميد :

لما مذهب العباد فى ترك غيره وإتيانه نبقى الرغائب بالزهد
رجونا الذى يرجون فى كل جنة بأرجان حتى ما يؤسنا من الخلد
إنما هو تصوير بالغ لما فى أرجان من دنية وترف حتى كأنها جنة ،
وكان العيش فيها حياة فى دار الخلود . وإذا جعل أبو الطيب سلافة الرضاب
أحلى من روحية التوحيد :

يترشفن من فى رشقات هن فيه أحلى من التوحيد
أو جعل شرف من مدحه من العلويين فخرا لجدده الأعلى الرسول (ص) :
وأكبر آيات النهاى أنه أبوكم وأجدى ما لكم من مناقب
أو دفع بمدوحه إلى المقام الأسمى :
تتناصر الأروام عن إدراكه مثل الذى الأملاك فيه والدنا
أو دفعه إلى رتبة الرسالة :
لو كان عليك بالإله مقسما فى الناس ما بعث الإله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل القرآن والتوراة والإنجيل
أو جعله أعظم من أن يؤمن عليه جبريل الأمين :

لعظمت حتى لو تكون أمانة ما كان مؤتمنا بها جبريل
أو قال :

ونصني الذي يكنى أبا الحسن الهوى ورضي الذي يسمى الإله ولا يكنى
أو جعل الرعية عبادا للوك :

أنك عبادك ما أملوا أنالك ربك ما تأمل
أو جعل طاعة الممدوح كعبادة الله :

الناس كالعابدين آله وعبد كالموحد اللاه
فذلك كله لم يكن من ضعف عقيدته بل من شدة تأثر عواطفه الحساسة
بجنان الأبدى الكريمة التي كانت توارزه في سبيل لوصول إلى ما كان يتمناه
من فخر ومجد .

وبعد فذلك تحليلنا لهذه الآيات التي أخذت على المتن في شعره -
بما رماه بها بعض النقاد بضعف العقيدة - على ضوء نفسيته وعقليته
واتجاهاته ونزعاته ، ولا يضيرنا بعد أن نقول : إن أبا الطيب كان إسماعيليا
من الإسماعيليين ، لقن آراء هذا المذهب في الدين والاجتماع والسياسة ،
من اتصل بهم من رجاله وأبطاله في الكوفة ، فأخذ نفسه به ، واتخذ شعاره ،
شأنه في ذلك شأن ابن هانيء الأندلسي ، شاعر المعز لدين الله والإسماعيليون
يرون أن صفات الله عز وجل واقعة على الإمام : فإذا قال ابن هانيء للمعز :
« فاحكم أنت الواحد القهار » فإن لأبي الطيب بذلك نظيرا وهو قوله
لمدوحه « مدل الأعزاء المذ... الخ » ولم لا يكون أبو الطيب إسماعيليا ؟
والكوفة كانت من أهم بلاد دعوات الإسماعيليين ، وكانت أهم منبع لنشاط
الإسماعيليين ، ذلك معقول ، وهو يفسر لنا ناحية أخرى من النواحي
القامضة في حياة أبي الطيب ، وهي عدم مدحه لأحد من الخلفاء العباسيين ،
أفلا تكون إسماعيلية أبي الطيب وخصومتها السياسية للخلافة العباسية

سبيا من أبواب مقاطعة المتنبي لخلافة العباسيين والخلفاء العباسيين ، ذلك
أمر غير بعيد .

ثم لنفرض فرضا آخر وهو أن أبو الطيب لم يكن إسماعيليا ، أفليس
من المعقول بعد هذا أن يكون قد تأثر بنزعات الإسماعيليين الذين كانوا
يعيشون معه في محيطه الاجتماعي في بلدته الأولى الكوفة ؟ والإسماعيليون
يرفعون إمامهم إلى اسمى درجات التقدير ، ويخلمون عليه أوصاف
الجلال والنور ويروونه نور العالم ومصدر سعادته ، فليس بغريب أن يتأثر
أبو الطيب بهذه النزعات وتلك الآراء التي كانت تزخر بها مجامع الكوفة
ونوادبها الثقافية والسياسية ، فظهرت تلك النزعات واضحة في شعره .
وبعد فخلاصة رأينا في عقيدة أبي الطيب أنه كان قوى العاطفة الدينية ،
أو ليس هو القائل عن نفسه ؟ :

تغرب لا مستعظما سوى نفسه ولا قابلا إلا لحاقه حكما
وهو الواثق بالله الشديد الثقة حيث يقول :

فتب واتقا بالله وثنة ماجد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم
والذى يشيد ببطولة النصر ويجعله من هزيمة التوحيد للشرك :
ولست مليكا هازما لنظيره ولكنه التوحيد للشرك هازم
والذى يقول كما يروى عنه (١١٩ وساعة) :

لست الملولم ، أنا الملولم لأننى أنزلت آمالى بغير الخالق
والذى يقول :

والعلى مؤمل بعض ما أبلغ باللطف من عزيز مجيد
إلى غير ذلك من الأبيات . . وردنا للأبيات السانعة الذكر من قبل
بما أخذت عليه إلى أحد أمور ثلاثة :

١ - أنها لم تكن تعبر عن وهن في العقيدة ، بل عن جنون العظمة في نفس أبي الطيب .

٢ - أو أن أبا الطيب كان إسماعيلياً تبجح له عقيدته التي لا نذهب مذهبها ما أباحت لابن هائل .

٣ - أو أنه تأثر بنزعات الاسماعيليين في تعظيم أنتمهم تعظيماً روحياً بعيد المدى ، فألف ذلك ، وظهر في شعره واضحاً جلياً .

(ج) وأما عدم ثقة أبي العلاء بدلالة الأدب على ما في الضمير الإنساني من شك . ويقين فهو في ذلك جد معذور ، فقد عاش في عصر ضعف سياسي جرد النفوس المسئلة من فضائلها وحبب إليها كثيراً من الرذائل الاجتماعية الموبقة ، كالملق والرياء والنفاق والخذاع والدهاء . لحكم أبو العلاء على الأدب حكمه متأثراً بعصره وبيئته ، وإن كان لا يطرد في الحكم على عصور القوة التي حررت فيها النفوس من وهن العبودية ومداجاة المجتمع والناس ، بل لا يمكن أن تطرح دلالة الأدب على الضمير الإنساني في أي عصر مهما بلغ من ضعف وهوان ، فالأدب مرآة للروح الإنسانية تشف عما حجب عنا من غيوبها ، ومهما بالغ الأديب في إخفاء عواطفه حتى لا تظهر صورتها في أدبه فلس يمدعنا ذلك من أن نستدل بالآثار الضئيلة الخافتة على جوانب هذه الحياة الغامضة .

هذا هو تعليقنا على رأى العلاء في نبوة المتنبي ، ولا ننسى أن يذكر أن كل من أرخ للتنبي بمن ذكروا أمر نبوته قد ذكروا الآراء الأخرى التي تصف المتنبي مدعياً للنبوة وكان خلسكان (١) وسواه .

وثقافة المتنبي العقلية والأدبية ثقافة واسعة ، وهى ثقافة عملية لائظرية جعلها وسيلة إلى غاياته من المجد والسلطان ، فدراسته الطويلة فى صباه ، واختلافه إلى أعراب البادية فى الكوفة ، واختلاطه بهم فى الشام ، ولزومه مجالس العلم واللغة والأدب والفن ، وتردده الكثير على مكاتب الوراقين (١) ، ودؤوبه على القراءة فى شبابه ورجولته وحتى فى أيام مجده مع سيف الدولة (٢) ، وإشاره الكتب على كل شىء ، ثم اتصالاته برجالات الثقافة وزعماء النهضة العلمية والفكرية فى شتى أرجاء العالم الاسلامى ، ثم حدة ذكائه وخصوبة عقله ، ونشأته فى عصر ازدهرت الحياة الفكرية والأدبية فيه ، وهو القرن الرابع .

كل ذلك جعل المتنبي ذا ثقافة فكرية وأدبية وأغوية بعيدة ، حتى تعجب أبو علي الفارسي من إحاطته باللغة ، وشهد له بالتفوق فيها ، والإلمام بعلومها وغريبها (٣) ، وحتى كان شعره فوق آثاره الأدبية ثروة لغوية واسعة في ألفاظه وأصاليه ، وفي إحيائه للغريب المجهور من الألفاظ . وحتى أعجب بثقافته الأدبية وذوقه الشعري وملاحظاته الدقيقة في النقد ، صديقه سيفه الدولة وهو من هو أديباً وشعراً ونقداً (راجع ٣٣ الصبح المنبى) . . . ولكن ثقافته العلمية في البيان كانت ضعيفة حتى لقد أخذ عليه النقاد قوله :

أعط عنك تشبهي بما وكأنه فما أحد فوق ولا أحد مثلي

وقالوا : إن ما لا تكون للتشبيه .. أما ثقافته الفكرية فهي ثقافة رجل

(٢) ٥٠ الصبح

(١) ٢ الصبح المنبى

(۲) ۸۰ الصبح

من خاصة رجال الفكر في عصره ، يدل عليها عمق الثقافة العقلية في شعره وكثرة تجديده وابتكاره في أفسكاره ومعانيه ، وروعة حكمه ، التي أوجعها الخاتمى إلى حكم أرسطو وآرائه في فلسفة الحياة ، وزججها نحن إلى غمرات التجربة للحياة ، وبعد غور فكر الشاعر ، وكثيرا ما تشابه آراء المفكرين والعقريين كما يقول شكيب أرسلان (١)

ولكن هل تأثر المتنبي في ثقافته الفكرية بالفلسفة وعلومها ؟ ينفي بعض الباحثين ذلك كإبن الأثير في مثله السائر وسواه من الباحثين القدامى والمعاصرين ، ولكنى أرى أن المتنبي قد تأثر بثقافة الفلسفة لأنه عاصرها في عصر النضوج للفكرى والعقل الذى غمرت موجته الحياة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، وكانت كتب الفلسفة اليونانية المترجمة ، والإسلامية المؤلفة ، فى متناول يده فى كل مكان يحل فيه ، ولا شك أن المتنبي وقد اتصل بسيف الدولة سنة ٤٢٧ هـ قد اتصل بالفارابى الفيلسوف ٤٢٩ هـ ، واطلع على مؤلفاته وترجماته فى الفلسفة ، وكان الفارابى يقيم فى حلب تحت رعاية سيف الدولة . كما اتصل بسواه من رجال الفلسفة . وطموح المتنبي لا بد من أنه حفزه إلى توسيع معارفه الثقافية والفكرية حتى حين خطا نحو الرجولة المكتملة ، فلم لا يطلع على الفلسفة وهى محور الثقافة الفكرية فى عصره ؟ ثم إن فى شعر المتنبي كثيراً من النظرات الفلسفية العميقة ، وأسلوبه أسلوب فكري دقيق يتردد فيه أساليب المنطق ، وآراؤه زارها أبداً مقرونة بأسبابها وحججها ، على نمط لا تكاد تفرق بينه وبين أسلوب الفلاسفة فى التدايل فقولہ :

إذا أتت الإساءة من لئيم ولم ألم المسىء فى اليوم ؟

وقوله :

قطعم الموت فى أمر خطير قطعم الموت فى أمر حقير

وقوله :

إلف هذا الهواء أوقع فى الأنفس أن الحمام مر المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق
وسوى هذا ، يتجلى كله فى أسلوب ليس بينه وبين أسلوب المنطق
فرق كبير (١) .

وإذا فرأى أن المتنبي قرأ بعض كتب الفلسفة ، وسمع الحجاج فيها فى
مجالس الأمراء وبيئات الفلاسفة فى شتى الأقطار التى أقام فى دناء أمرائها
وملوكتها ، وتأثر بهذه النزعات العامة الفكرية والعقلية التى كانت تسود
الثقافة فى القرن الرابع ، وزادته خبرة بالحياة وزادت تجاربه فيها سمعة فى آفاق
تفكيره ، وأن ذلك كله أثر فى عقلية الواعية وغير الواعية ، وأثر فى ذهنه
الخصب المنتج ، فظهرت آثار هذا كله فى شعره : حكمة بعيدة الغور ،
وأسلوباً دقيق التمسك ، وأفكاراً عميقة المنزع ، وتعرضاً لبعض المشكلات
العقلية العامة التى كانت محور حجاج الفلسفة والفلاسفة فى عصره ، حتى
إن النقاد ائكل ذلك سموه الشاعر الحكيم ، وأشركوا معه فى ذلك أبا تمام ،
من حيث خلعوا على البحرى لقب الشاعر المطبوع .. ثم أخذوا على المتنبي
بعد ذلك اتجاهاه بالشعر إلى الفلسفة .

وبعد فكثيرا ما نرى أبا الطيب يمدح رجالات العالم الإسلامى بأنهم
كأرسطو فكرا وثقافة ، كما يقول فى ابن العميد :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت دس طاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا
وأثر هذه الثقافة الفكرية في نفس المتنبي لم تجعله على كل حال فيلسوفاً
لأنه لم يخلق للفلسفة ، وإنما خلق للأدب والشعر ، ولكنه أقاد منها دقة
نظر وعمق فكر وخصوصية عقل ، وكوزله من ورائها مذاهب اجتماعية ترسم
مناهج جديدة لعلاقة الفرد بالمجتمع لا تصلح أن نسميها مذاهب فلسفية . .
أما الكلام في مصادر الحياة ومصائرنا فقد عافه المتنبي ، وقد طاب في صباه
فتح رتاجه كما يظهر من قصيدته الميمية التي نظمها في المكتب ، فأتبعه فتحه
ثم مل هذا البحث الذي لا تكن إليه نفسه فقد أخذ - كما يقول الأستاذ العقاد -
حينئذ بمذهب القائلين بأن الإنسان ربيب هذه الأرض ، ورب الزمن ،
فهذه الأرواح من جوه ، وهذه الاجساد من ترابه ، ثم رأى الناس مختلفين
في خلود النفس فوقف منهم موقف الشك والحيرة :

فقل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
وماله ولهذا الشجب العقيم ؟ فزوى وجهه عن مباحث ما وراء الطبيعة ،
ولم يكن له صبر على هذه النزعات والفلسفات التي تبحث فيما وراء الطبيعة ،
إنما هو فيلسوف الحياة والمجتمع ، وأثر ثقافته الفكرية الواسعة إنما
يظهر بوضوح في فلسفته الاجتماعية .

والمتنبي شاعر . ولكنه شاعر ذو فكر عميق وقل من كان كذلك من
الشعراء ، وقد استمد ذلك من أمه وفشله ، وطموحه وإخفافه .
١ - فنشأته في السكوة ورؤيته ثورات القرامطة فيها ، وكيف يستبد
بملكها رجال لا يستحقون شرف الحياة فضلا عن شرف الملك . ذلك مما
جعل أبا الطيب يعتقد المزم على أن ينال مناهم طامعاً رافعاً رأسه إلى السماء . .

(ب) ودم أبي الطيب العربي وروحه العربية ونشأته في بيئات عربية صميّة ، كل ذلك جملة في نفسه وخلقه وفي شخصيته وانجماهاته وفي شعره وفنه مطبوعا على طابع عربي خطير الأثر في حياته ، ولكن مجد العرب السياسي ونفوذهم الأدبي في عصر المتنبي كان خاملا خافتا ، ففي بغداد وإيران النفوذ البويهي بمصنف معقومات الروح ولجند العربي ، وفي مصر العرش الاخشيدى تضع دعائمه من كرامة العرب الأدبية . وفي البلاد الأخرى الملك والنفوذ والدولة للعناصر الأجنبية ، وهكذا تغفل النفوذ الأجنبي في كل بلد ومكان كما يقول المتنبي في معرض التهمك والسخرية أو الحية والاشفاق :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم
ونلك حال لا فلاح معها للعرب :

لما الناس بالملوك وما تغلح عرب ملوكها عجم
ودفع المتنبي طموحه وروحه ودمه إلى أن :

١ - يطلب الملك بالسيف والرمح في يده شبابه ، ثم بأدبه وفنه وشعره في اتصاله بالملوك والأمراء في يده رجولته بعدما أخفق في ثورته ووسيلته الأولى ، فما هؤلاء الأعبد القزم الذين يحكمون العالم الاسلامي ؟ ماشأوهم وماشأنهم ؟ :

لا أدب عند ولا حسب ولا عهدود لهم ولا ذمم
في كل أرض وطنها أمم ترعى بعبد كأنهم غنم
يستخشن الخز حين يلبسه وكان يهزى بظفره القلم
لقد كانوا هم شغل أبي الطيب الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، وجدير بهم أن يساموا سوء العذاب :

ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم وإيس لنا إلا السيوف وسائل
وهم أحق بضرب الرأس من الوثن :

ولا أخطر من أملاكهم أحدا إلا أحق بضرب الرأس من وثنه
لأنهم لا يستحقون من الإمارة إلا افظها ، ولا من الإنسانية إلا اسمها :
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
وأبو الطيب يمتهم ويتجنبهم في بدء حياته :

وجنبني قرب السلاطين مقمتها وما يقتضي من جاجها النسر
وأين هم من هذا الفقى العربى الطموح الأبى العزيز :
أيمك الملك والأسياق ظامئة والطير جائعة لحم على وضرم
من لورآنى ماء مات من ظمأ ولو مثلت له فى النوم لم ينم
ودعائم الملك الخلق والمال أو الطموح والإباء ، وقوة التضال مع
قوة الصحة :

١ - لذلك ربي أبو الطيب نفسه على حب الفضائل النفسية والاجتماعية
والإيمان بها والمبالغة فى تقديرها وتقديسها ، فترك لذاته وشهواته ومآرب
الشباب :

وترى الفتوة والمرورة والأبوة عند كل مليحة ضرائها
هن الثلاث المانعانى لذنى فى خلوقى لا الخوف من تبعائنا
وصرف نفسه عن العذارى الغيد :

وغير فؤادى للغوانى رمية وغير بنانى للرخاخ ركاب
وزهد أولا فى حياة الأسرة حذارا من أن تشغله الأسرة عن كبار أمانيه
التي كان فى شغلها عن كل شيء :

شغلت قلبه حسان المعانى عن حسان الوجوه والاعجاز
ولئلا يلد نسلا ضعيفا خائرا :

فى الناس أمثلة يدور حياتها كمياتها ، ومماها كحياتها
هبت النكاح حذار نمل مثله حتى وفرت على النساء بناتها
ولأن الدهر ليس أهلاً لأن يشتاق فيه إلى النسل :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل
وعاش أبو الطيب فى الحياة وبقلبه منها ملالة :

بقلبي - وإن لم أرو منها - ملالة - وبى عن غوانيها - وإن وصلت - صد
نعم وقف أبو الطيب أمام متع الحياة ولذاتها بين إقدام وإحجام ، حينما
يطلق لنفسه الحرية فى ما يريد من لذات :

دع النفس تأخذ قبل بينك وسعها ففترق جاران دارهما العمر
ويقول :

أنعم ولد فلأموور أواخر أبدا إذا كانت لمن أوائل
مادمت من أرب الحسان فإنما روق الشباب عليك ظل زائل
ثم ينظر إلى غاياته ومطامحه حينما آخر فيهجر لذات سعيا إلى أكرم
الغلات وطلبا للمجد المذمود :

والنخود منى ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب
وكيف لا يقلب المجد نفسه على شهواتها :

تملك النفوس الغالبات على العلا والمجد يقلبها غلى شهواتها
وليس المجد زقا وقينة ، إنما هو كفاح طويل فى سبيل العظمة والفخار :
ولا تحسب المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتك البكر
وتضريب أعناق الرجال وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر الحجر
وتركك فى الدنيا دوما كأما تداول سمع المرء أمسه العشر

فالمجد هو لذته الكبرى وأنشودته المكرورة وغايته من الحياة ،
وأبو الطيب هو قبل كل شيء . ترب المعالي ، لا ترب الحسان ولا خدين الغواني
الغيد ، ولذلك لم يكن من الشعراء الغزليين كجميل وابن أبي ربيعة ، ولا من
دعاة اللذة كبشار وأبي نواس .. إنما كان غزله صناعيا تفقيديا لا يمت إلى نفسه
بأوثق الأسباب ، وهو حريص على التجديد فيه والمبالغة في شتى أخبلته
ومعانيه ، وكثير من غزله تبدو عليه سمات التكلف والإغراق ، وإن
بدت فيه أحيانا مظاهر الطبع والجمال كقوله :

إن الذين أقمت وارتحلوا أيامهم كديارم دول
الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل كلما نزلوا
ويذكر أبو الطيب أن حبيباته إنما كنن في شعره عن رماحه .
وسيوفه الأثيرات عنده :

حُب كُنَى بالبيض عن مرهفاته وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
عدمت فؤادا لم تبت فيه فضلة لغير الشايبا الغر والحدق النجل
ومطامع أبي الطيب كانت تسعى به إلى الكمال الإنساني المنشود ،
وتقر به منه ، حتى كان الشاعر يرى نفسه مجموعة من الفضائل :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرقي أنا اثريا وذان الشيب والهزم
وكان حريصا على الظهور بمظهر العزة والاباء والشمم والكرامة .
والوفاء ، وعلى الصدق والصراحة وعلى شتى الفضائل والأخلاق ، وبالع في
الاعتزاز بشخصيته ، حتى رأى نفسه كما يقول :

أنا الذي بين الاله به الاقدار والمر حيثما جعله
ورأى كل رجل - مهما عظم - دونه :

أعط عنك تشبيها بما وكأنه فإ أحد فوقى ولا أحد مثلى
مفتخرا بعصاميته لا بأسرته :

لا بقوى شرفت بل شرفوا بي وبجدي سموت لا بجودى
حويقول يرثى جدته :

ولولم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما
كأبالغ فى الاعتزاز بشاعريته :

ما نال أهل الجاهلية كلم شعري ولا سمعت بسحري بابل

وكان هذا الاعتزاز مثار وشايات طويلة بينه وبين من اتصل بهم من
الملوك والأمراء ، وسبباً من أسباب فشله فى إدراك ما كان يصبو إليه من
غايات :

وقوة الخلق عند أى الطيب هى فضيلة الخلق ، فما كان من الأخلاق
قويها أو صادرا عن قوة فهو محمداً فاضلة ، وما كان منها ضعيفاً أو صادرا
عن ضعف فهو مذمة مرذولة ، كن حليماً مع القدرة :

كل حلم اتى بغير اقتدار حجة لاجىء لإيها اللثام
وكن حليماً لئلا يوضع عليك الحياء غنيمتك :

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تنق حتى تكون ضواريا
وكن قائماً إذا وصلت إلى ما تريد من مجد :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال
واحرص على المال :

ليس التملل بالأمال من أربى ولا القناعة بالاقلال من شيمى
فالمجد للأغنياء :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
وأما المال فقد حرص أبو الطيب على جمعه وادخاره لأنه كما يقول
وسيلة المجد ودعامة التوفيق فى الحياة ، وما أشقى الفقير الطموح :

وأبعد خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهى النفس وجهه
فلا ينحلل فى المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذى المجد كفه إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا خير فى يجد لمن قل ماله ولا خير فى مال لمن قل مجده
٢ - وأما الصحة فرآها أبو الطيب وسيلة العيش وآلة الحياة :

وإذا الشيخ قال أف فما مل الحياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فإذا ويا عن المراءى
٣ - وأما النضال فعهده به طويل فغايته التى لا تنهى عند حد والتى
يصورها فى قوله :

يقولون ما أنت فى كل بلدة وما تبتغى ؟ ما أبغى جل أن يسمى
وقوله :

تحقر عندى همتى كل مطلب ويقصر فى عبنى المدى المتناول
غيات تتطلب بذل تضحيات عظيمة ، ولا بد البجد من ثمن :
تريدون إدراك المعالى رخصة ولا بد دون الشهيد من إبر النحل
والسيادة مخوفة بالمشقات من كل جانب وصفو الحياة من نصيب
العاجزين الغافلين أو الحالمين المتعلمين الذين ينعمون فى الشقاوة بحملهم ويشقى
كبار النفوس فى النعيم بعقولهم ، وقد بذل أبو الطيب هذه التضحيات راضياً
مبتسماً فعاش ماعاش سائياً فى سبيل آماله بين الإفطار والأمصار :

لولا العلى لم تحب لى ما أجوب بها وجناء حرف ولا جرداء قيدود
يؤجج قيس الأمل والظفر فى قلبه شعلة الإندام :

فلا قضى حاجته طالب فؤاده يحقق من رغبه
فقتوى عنده الحياة والملاك :
ومن يغ ما أبغى من المجد والملا تساوى المحايا عنده والمقاتل

ويستعذب في سبيلها مرير العذاب مضيقاً في طلبها جسمه وصحته :
وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام
(ب) وأخذ أبو الطيب يثير الروح العربية وبوقظها من سباتها العميق ،
فدعاها إلى فضائلها من الطموح والشمم والإباء ودعاها إلى التردد من قيود
الوهن والجبن والدلة والرياء ، فالذل موت وسقام :

واحتمال الأذى ودوية جانيه غذاء تضوى به الأحسام
ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الخمام
من يمت يسمل الهوان عليه ما لجرح يمت لإسلام
ودعاها إلى أن تعثر بشخصيتها وعزتها :

عش عزيزاً أو مت : أنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
وإلى أن تؤمن بشخصيتها وتسمى لاسترداد حقها المسلوب ، فذلك سبيل
المجد لمن يطلب المجد وطريق الحياة لمن يؤثر الحياة ، وكان ذلك أبرز دعوة
في رسالة المتنبي وكانت عاملاً قوياً في إيقاظ الروح العربي من ناحية وفي
امتداد شهرة المتنبي - التي كانت من صنع القدر لا اتفاق ولا تفكير كما قال رجل
لأبن العميد - في كل مكان حل فيه عربي صميم من ناحية أخرى ، كما كانت
سبباً كبيراً في مثله وإخفاؤه كما ستذكره بعد قليل .

دعا أبو الطيب دعوته السياسية في بادية الشام فأخفق ، فذهب إلى الدولة
العربية التي أقامها بنو حمدان في حلب برضى بمجدها كرامته وبثأج بسلطانها
قواده ، وأطال المأكل مع سيف الدولة ، ولكن كرامته هو قد أهينت ،
ولا حياة بدون كرامة ، فليرحل المتنبي ، وإلى من وفي أي اتجاه يسير ؟
ليرحل حيث يرى لآماله الظفر والتوفيق ، إلى بلاط كافور ، ولكن أحلامه
لم تتحقق ، فالويل لسكافور الذي لا ينتمي إلى العرب بشيء ، وبعده له وهجرة

من بلاطه إلى الكوفة وبغداد ، ولكن أبا الطيب لاهية في بغداد لأن من
فيها من الوزراء والعظماء لم يكن لهم مثل عزمه ولاهمته وهم يريدون منه
الثناء ، ولا ثناء حيث تجرح كرامته وعزته ، فليترك بغداد إلى بلاط عضد
الدولة ، ولكن الروح العربية في نفس المتنبي توقظه وتدعوه إلى الرحيل ،
فليس عضد الدولة بالعربي الذي يشعر الشاعر أن مجده يجده ولقوميته ،
وبلاده بعيدة عن بلاد الضاد والعربي إن نزل بها فهو الغريب الوجه
واليد واللسان :

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
وهكذا عاش المتنبي مخفقا في أمه ، غريباً في أهله وفي وطنه ، يسير من
فشل إلى فشل ، ومن إخفاق إلى إخفاق ، طلب من الدنيا أن تمطره مجداً وجاهاً
فأمطرته مصائب وآلاما :

أظمتني الدنيا فلما جئها مستقيماً مطرت على مصائبها
وعركته الأيام حتى كأن الأحداث حليفته ، وكأنه كان لها نقيبا :
عرفت نوائب الحدثن حتى لو انتسبت لكنت لها نقيبا
وأخذ ينسى حظه من الحياة :

قال وللدينا طلال بنجرهما ومسعى منها في شقوق الأرقام ؟
ورجع من ذلك كله بشيئين خطيرين كان لهما أكبر الأثر في حياته
ورسلاته :

أولاً : أورثه فشله سخطاً على الحياة ، ونقمة على المجتمع وتشاقماً بالناس
حتى لو برز إليه الزمان شخصاً لقتله :
ولو برز الزمان إلى شخصاً لخصب شعر مفرقه حسامى
وامتلاً غيظاً من الأيام :

وغيظ على الأيام كالنار في الحشا ولكن غيظ الأسير على القدر
ورأى الحياة كذباً وخداعاً :

ومن صعب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذباً
والزمان إن أحسن عادت لياليه فكدرت الاحسان :

ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تذكر الاحسانا
ولست آراؤه فيها إلا ثمرة التجربة الطويلة :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما ذهتني لم تزددني بها علماً
ولقد كان حظ المتنبي شيئاً في زمان ذهب لغيره خيره ، وبقى له شره :
أق الزمان بنوه في شبيبته فرسم وأتيناها على الهرم
وذلك غير بعيد من الحياة فأما :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الخائض نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
لما الله ذى الدنيا منا حلالاً كعب فكل بعيد الهم فيها معذب
وما الجمع بين الماء والدار ويدي بأصعب من أن أجمع الجند والقها
وهل بعد لإخلاف الدهر آماله من شيء ؟

لله حال أرجيها وتحلفني وأفتضى كونها دهرى ويمطلي
وليت القدر خلعه في أمة غير أمته :

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الأمم
وكذلك كان مع الناس ، فهو يحتقرهم ويذممهم ، ويرى أعلمهم فدماء :
أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأشرفهم وغد
وبراهم مفطورين على شتى الرذائل الاجتماعية من شر وخداع
وبهتان ونفاق .

إذا ما الناس جرهم لييب فإني قد أكلتهم وذاقا
فلم أر ودهم إلا خداعا ولم أر دينهم إلا نفاقا

ويقولون : العدالة ، وأين هي العدالة بين الناس :
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
كما يتشادقون بالصدقة ، والصدقة خداع وزور :

خليك أنت ، لا من قلت خلى وإن كثر التجميل والكلام
ولما شمت ود الناس خبأ جزيت على إبتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أسطفيه لعلنى أنه مضى الأنام
وكثيراً ما تكون لصدقة سبب الشر للصديق :

ومن العداوة ما يتالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم
وكيف يمجّد أبو الطيب الناس وهم مشيرو الشر في الحياة :
كلما أنبت الزمان فتاة ركب المرء في القناة سنانا
يحتافسون على الحياة :

إنما أنفس الأنيس ساع يتفارسن جهرة واغتبالا
من أطاق التماس شيء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا
والحياة لا تستحق أن يتنافس عليها :

ومراد النفوس أصغر من أن تتعاضد فيه وأن تتفانى
وأبو الطيب يرفع بنفسه عن أن ينسب إلى هؤلاء :

وما أنا بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
. وإذا كانت الدنيا بأمرها ليس فيها مكان يسر بأهله الجار المقيم :
أما في هذه الدنيا مكان يسر بأهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبيد علينا والموالي والصميم
وما أدري إذا دام حديث أصاب الناس أم داء قديم ؟

فليضطرب في الأرض أن فقد في مكان منها عزته وكرامته :
 في سعة الخائفين مضطرب وفي بلاد تن أختها بدل
 فلا صحبته مهجته إن استكانت إلى ظلم أو قمت على ذل :
 فلا عرت بي ساعة لانعزني ولا صحبتي مهجة تقبل الظلما

ولم يتف أبو الطيب أمام سخطه على الحياة ونقمته على الناس موقف
 الخائز المتردد بل مضى قدما إلى غايته التي لم يتخل عنها داعياً : إلى احتقار
 الناس لأنهم مهما عظمت منزاتهم لا يستحقون الاجلال ، وإلى البطش
 بهم لأنهم لا يستحقون الرحمة والرحمة ليست في قلوبهم :

ومن عرف الأيام معرقى بها وبالناس روى ربحه غير راحم
 فليس مرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجارى عليهم بآثم
 وإلى إحلال مبادئ القوة والعنف والقسوة محل العدالة والخلق والرحمة
 فذلك جدير بالناس وبالمجتمع ، وجعل الحق للقوة وحدها :

من أطاق التماس شيء غلابا واقتراسا لم يستطع سؤالا
 وهذه هي سنة الحياة في نظر المتنبي ، وهي حياة حرب يجب أن
 نخوضها في سبيل القهر والعز والسيادة أو عملا بإرادة القوة كما يقول العصر
 الحديث ، وإذا كان داروين يروى أن أصل الفضائل هو إرادة الحياة ،
 فونيتشه يراها في إرادة القوة فرأى المذهب توفيق الرايين :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهما بها صبا
 غلب الجبان النفس أوردته التقى وحب الشجاع النفس أوردته الحربا

فكل إنسان إنما يحب حياته هو لا كل حياة ، فلا تناقض بين حب المرء حياته وحب القوة بعض الأحيان (١) .

ثانياً : وكانت هذه الحياة العميقة الفسكرة البعيدة الأمل الحسبة التجارب سبباً في نضوج ملكات المتنبي الفكرية حتى أصبح أبعد شعراء العربية منزوع فكر وأعمقهم تجربة وحكمة وأصدقهم إفصاحاً عن خبايا النفس البشرية ، وشدوا بشمرات التجارب الإنسانية التي فهمها المتنبي ووعاها وأحاط بها عن تجربة واقعية ، وأبو الطيب كان رجلاً واقعياً في ثقافته واتجاهاته العقلية والوجدانية ، ولكنه كان مضطرباً في حياته السياسية والاجتماعية ، يسير في اتجاه غير الاتجاه الذي كان يسير فيه الناس ، ويدعو إلى آراء لا تتلاءم مع ما ألفه الناس ودرجت عليه المجتمعات ، ويتوصل إلى غايته بوسائل تبعد عن الظاهر والفوز ، فالمتنبي كما يقول العقاد كان شريكاً في العظمة الدنيوية والأخلاق العملية لرجال عصره في ما هو من باب الشعور والملاحظة ولم يكن شريكاً في كل ما هو من باب الانحياز والتنفيذ ، كان يشعر شعور عظماء الرجال ولكنه لا يتمم الأمور كما يتممونها ولا يسوس الحوادث كما يسوسونها ، (٢) .

وقد أبقن أبو الطيب أن الشعر لا يمكن وحده للوصول إلى ما يطمح إليه من أحلام فغمر نفسه في مجال الحياة السياسية لعله يظفر بتقدير السياسة له وخدمتها إياه ، ففضى جل حياته في بلاط الملوك والأمراء ولكنه لم يستطع أن يظفر بهذا التقدير وتلك المكافأة ، لأن أبا الطيب لم يكن من رجال السياسة ، وكانت روحه ونفسه وأخلاقه ومناهجه العملية بعيدة عن

ديبلوماسية السياسة وخداعها ، كان يؤمن بشخصيته ويجعلها فوق شخصية الملك أو الأمير ، مما كان يفض عليه الملك أو الأمير ، ويريان فيه مقامراً سياسياً خطراً على عروشهم وكيانهم ، وكان يحاول أن يغطي على رجال الحاشية والسياسة والأدب والشعر ، فتقمعوا عليه ، وكان يتعصب للعرب والعربية تعصباً كبيراً ، لأن نفسه العربية لا يريد أن ترى شيئاً في الحياة العربية لغير العرب ، ولكن العالم الإسلامى في ذلك الحين كانت تدبر أموره أيد غربية عنه من أبناء الترك والفرس والروم وسواهم من العناصر القوية التى اندمجت في الدولة الإسلامية وثقفت بثقافتها ونالت الحضرة والتقدير في قصور ملوكها ، فنظرت هذه العناصر القوية إلى المتنبي بعين الحذر والخوف ، والمتنبي الذى حلم في شبابه بتكوين دولة عربية صرفة في الشام يصوسها ، والذي يسكف عن طلب الحكم والولاية من كل أمير يتصل به ، والذي دأب على التمسك بهذه العناصر الأجنبية ، والسخرية بالملوك الذين لا يمتنون إلى الروح العربية بصلة ، أفا يكون مصدر خطر على نفوذ هذه العناصر الكبيرة بدعوانه الجريئة وتهكمه الساخر ؟ ، لقد كان أبو الطيب بمزاجه وطبيعته أرسطو قراطياً إلى أبعد حدود الأرسطوقراطية ، حتى احتقر أن يرضى بالخط الجليل إذا ساراه فيه من هو دونه ، ويأبى الصيد الشهى إذا اجتمعت عليه كرام الطير وبغائها :

وشر ما ابتصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

وهو قد يؤثر الموت على حياة يشاركه فيها حساده :

وما موت بأبغض من حياة أذى لهم معنى فيها نصيباً

لذلك حورب أبو الطيب من كل عنصر وكل طبقة وفي كل بلاط ، ولم يدعه هؤلاء ولا هؤلاء يظفر بما كان ينشده من آمال ، ودعوه إلى أن يعيش مشرداً في البلاد غريب الأهل الوطن ، بل كان مصرعه بسبب منهم

ففتك فانتك به إنما كان مؤامرة سياسية دبرتها السياسة أولاً ودفعتها
الأغراض الشخصية أخيراً ، فقضت على حياة هذا الشاعر العظيم ، ويؤيد
ذلك ما ذكره الصبح من أن المتنبي كان يستقل عطاء عضد الدولة بجانب
عطاء سيف الدولة وأنه جهز إليه حين انصرف من بلاطه قوماً من بني
ضبة فقتلوه (١٠٠ و ٩٩ الصبح) ونقله عند العباسي في معاهد التنصيص
(١٠ و ١١ و ٢) ، ولو أن المتنبي كان كسواه من الزعماء الذين يسعون
إلى مجد أشخاصهم ويفنون شخصياتهم في شخصية الملك أو الأمير لعقد على
رأسه إكليل للظفر والفخار .

وظاهرة أخرى في حياة أبي الطيب نستحق العجب والتساؤل ، فقال
أبي الطيب الكوفي يسعى في شبابه إلى الشام ثم في رجولته إلى مصر ولم
يسع إلى بغداد ؟ وما باله يمدح الحمدانيين الأخصيدين وسوام من الشخصيات
البارزة في العالم الإسلامي في عصره ، ولم يمدح خلفاء بني العباس ولا من
اتصل بهم من الأمراء والوزراء والعظماء ، ورفض الأيدي الكثيرة التي
مدت إليه في بغداد بالرجاء ؟

أعتقد أن ذلك مبعثه المتنبي نفسه وما كان يتأجج به صدره من غيظ
على العناصر الأجنبية التي استبدت بخلافة بني العباس في بغداد ، ومن
عقيدة إسماعيلية تأثر بها أو آمن بها ، فكره بسبب أيها الخلافة العباسية
وخلفاء بني العباس ، ومن طموح إلى الملك في بلاد بعيدة عن سيطرة بغداد
وولاتها ، ولم تكن تلك الأقاليم إلا الشام ، حيث تتصارع فيه القوى
السياسية بين بني حمدان وبني الأخشيد ، ثم حلب حيث الدولة والملك والرعية
عريبو الدم والعقيدة واللسان ، ثم مصر حيث الملك ضعيف العنصر ضئيل
الشخصية لا يغطى على الشاعر ولا يبعد عليه أن ينال في دولته آماله ، ثم
شيران حيث يستريح من آلام الحصرمة والحقد والمنافسة في دولة يطمح
أن ينال في ظلها غاياته ، وعلى كل حال فإن ذلك لم يمح من قلب الشاعر

هذه الصلات الروحية التي يشعر بها كل مسلم نحو الخلافة العباسية في بغداد مما ترى مظهره في شعر الشاعر ، فهو حيناً يمدح سيف الدولة بتبعيته لدولة الخلافة ويذكر أنه سيف من سيوفها :

وشركت دولة بنى هاشم في سيفها وشققت خبىس الملك عن رثاله
ويكرر هذا المعنى في قوله :

يا سيف دولة هاشم من رام أن يلقى منالك رام غير مرام
يقول هو سيف دولة الخلافة وبه تصول على الأعداء كما يقول شارح ديوانه ، ويقول (١) :

فقد الله دولة سيفها أنت حصاما بالمكرمات على

وله فيه :

إن الخليفة لم يسمك سيفها حتى ابتلاك فكنت عين الصارم
وإذا اترج كنت درة تاجه وإذا نخم كنت فص الخاتم
وحيثما يذكر دولة الخلافة بالتقدير فيقول في سيف الدولة :

إن الهام الذي نخر الأنام به خير السيف بكفى خيرة الدول

ثم ترى الشاعر حين عصفت بموطنه الكوفة ثورة القرامطة وأعادها دليز القائد إلى نفوذ دولة بنى العباس يمدحه بقصيدة من رائع شعره (٢) . فهل ينبغي ذلك على حب المتنبى لتبعية الكوفة للخلافة العباسية ؟ وأيا ما كان فإن كان المتنبى لم يقيم ببغداد حذاراً على نفسه وعلى مكانته من عسف النقد ولدد الخصومة وبطش هذه العناصر الأجنبية الساخطة .

(١) ١٣ ج ٤ عبدكبرى

(٢) ٢٨٩ - ٢٩٩ ج ٣ المرجع .

ولقد بلغ التراث الشعري قبل عهد المنفي وفي عصره مبلغاً كبيراً من الحياة والقوة والابتداع ، فشدوا بأمال الحياة وآلامها وترنم بالجمال الإنساني في شتى مظاهره ، ونطق بما يختلج في قلوب الناس من عواطف هذبتها الحضارة ، ومشاعر أغرقها الترف والتعيم ، وعبر عما يتردد في صدر المجتمع من رجاء وشكوى ، وما تطمح إليه الإنسانية من مثل عليا في الاجتماع والسياسة وسواهما من شتى نواحي الحياة .

وتطور الشعر في أسلوبه مثل ما تطور في اتجاهاته ، فانسح التعبير عن جميع هذه الافكار ، والدعوة إلى كل تلك المذاهب ، وغلبت على أساليبه الشعرية سمات الجمال والترف البياني ، وأخذ يسير بعد عهد أبي تمام والبحتري في سبيل النضج ، والقوة يغلب عليه الروح الشعري المطبوع ، وتظهر في أسلوبه القدرة على أداء الفكرة البعيدة مهما طالت واستعصت ، في انسجام وتساوق . لا يشوبهما شائبة من التفسك أو الضعف أو الاستكراه .

وجمع أبو الطيب هذه الثروة الأدبية من الشعر فأوعى ، قرأ وحفظ ، وهزته طبيعته الشاعرة وفطرته الحساسة ، هزة الطبع الشاعر والعاطفة المبدعة والروح الوثاب فاجتمعت في نفسه الشاعرة القادرة أسباب الشعر : من الذوق الأدبي البليغ والعاطفة الشعرية المتأججة ، والدراسة الأدبية العميقة لآلوان الأدب وفنونه ، والنشأة الأدبية القوية بين رجال اللغة والأدب في البادية ، وبين أئمة العربية وشيوخها ، في مجالس العلم ونوادي الأدب ، ثم ذلك الخيال الشاعر ، وهذا الطموح الوثاب ، كل ذلك فجر لنا يوم الشاعرية في صدره ، وأجرى جداول الشعر في قلبه وعلى لسانه .

وصاغ أبو الطيب شعره صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحرية

حوالياة ، وقوة التعبير سمة من سمات شعر أبي الطيب نجدها في ألفاظه وأساليبه ، كما نجدها في معانيه وقد أفاضت روح القوة في نفس الشاعر على شعره وفنه هذه السمة الواضحة ، وكذلك حرية التعبير من أهم خصائص المتنبي الفنية ، فقد كان مع إحاطته التامة باللغة وأساليبها يطلق نفسه وفنه من كل قيد لا يتلاءم مع شعوره وإلهامه الشعري وذوقه الفني الحساس ويختار من الصيغ اللفظية أو البيانية ما يوائم شعوره ، ويعبر عن عواطفه ، ويترد مع روحه وشخصيته وأمانيه ، يرسل القصيدة لإرسالاً لا يبالى بتقد النقاد :

أنام مله جفوني عن شواردها ويسر الخلق جراها ويختصم
وهو في ذلك نظير الفرزدق وأبي تمام اللذين كانا ينهجان هذا الأسلوب ولقد هب النقاد في عصر المتنبي وبعد عصره يؤاخذونه على ما أسرف فيه من استكراه لفظ ، وتعقيد معنى ، وخروج على قواعد اللغة ، أو على الوزن الشعري ، ومن استعماله الوحشي الثاني ، وهبوطه أحياناً إلى مستوى الركاكة والسفسفة ، ومن إفراطه في المبالغة والاغراق ، وخروجه على المنهج العربي وذلك ما أخذ عليه الثمالي في الديمة ، فقد لاحظ شدة التفاوت في شعره وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، هذا إلى تعسفه في اللغة والتراكيب وقبح المطلع أحياناً . . غير أن هذه الحرية كشفت لنا عن نفس الشاعر وآرائه وآماله في أسلوبه ، ولم تستطع قيود البيان والشعر أن تحد من نزعاته ، وتقيد من حريته ، أو تخفي في ثناياها اتجاهاته وأفكاره ، لا ولم تستطع هذه القيود أن تطمس روح الشاعر في شعره أو تضعف شخصيته في أسلوبه ، بل تستطيع أن تقرأ آية قصيدة من قصائده ، أو بيت من أبياته ، فسترى فيما تقرأ روح الشاعر تطل عليك ، وتحدث إليك ، وتتناجى بآمالها وآلامها لديك ، فهز من عواطفك ، وتدعك مؤمناً بما آمنت به من : نزوع إلى المثل العليا ، وثورة صاخبة على الحياة ، ثم تحفز همتك إلى السير في النهج الذي يريده الشاعر الشاعر الداعية .

وفي شعر أبي الطيب تظهر سمة أخرى لها خطرهما وأثرها ، فالشاعر لا يترك هذا المذهب الفني الذي رفع لواءه من قبل أبو تمام ، إذ يؤثر تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فهو من شعراء المعاني وشعره امتداد لمذهب أبي تمام الشعري ، والخصائص الفنية البارزة تتجلى بوضوح في شعر الشاعرين لاسيما في روعة التعليل ، وسمو التخيل ، ودقة الطباق ، وجمال الجناس ، وسحر الاستعارة والكناية والتشبيه ، وبلاغة التقسيم والمقابلة والتفسير ، والتورية والتوجيه ، ونحو ذلك .

وهو ثاني تمام في كثرة الحكم والأمثال حتى قيل : « أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحرى » ، غير أن أبا الطيب كما قلنا خرج على أساليب العرب المعروفة في اللغة والتراكيب في بعض شعره ، وأطلق الشعر من بعض القيود التي قيده بها أبو تمام ، ومن ثم أطلق عليه زعيم الطريقة الابتداعية في الشعر العربي لخروجه على هذه الأساليب وقلة كلمه بالقيود الصناعية .

على أن في شعر المتنبي روح العمق والقوة التي لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف ، وإن كان بيته يضيق أحيانا بمعناه فيعسر فهمه . ولقد سئل أبو الطيب عن صلاته بأبي تمام فقال (١) :

« أولاً يجوز للأديب أن يعرف شعر أبي تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر ، ويقول ابن الأثير : « إن أبا الطيب أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصر عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، وكان المتنبي ينشد بدائع أبي تمام ويروي جميع شعره ، ولقد امتاز أبو الطيب كما أسلفنا بعمق الفكرة الشعرية ، وبقطة وبعد الخيال الأدبي ، الذي وعى التراث الشعري .

للقدامى والمحدثين ، فمضمه وأخرجه أدباً حياً جديداً ، دائماً في فكرته .
وحكمته ، روعته في مادته وصياغته ، قوياً في دعواته ومراميه . قوته في
أسلوبه ومعانيه .

وبذلك الطبع وفي هذه الأساليب نظم أبو الطيب روائع فنه وإلهامه ،
داعياً إلى حياة اجتماعية وقومية قوية ، تتحرر فيها نفوس بني قومه من
أغلال الذل والاستعباد ، وتتطلع إلى حياة العزة والكرامة ، لتسترد الروح
العربية نفوذها ومجدها ، ويستعيد أبناء الشعوب العربية تراثهم المفقود ،
ومجدهم المنشود .

وكان شعره مثالا رائعاً للحياة القومية في عصره ، وصورة بارزة للحياة
الفكرية والأدبية ، ثم كان فيه تصور للنزاع بين المثل العليا والحقائق
الواقعية ، ونضال بين الألم ولأمل ، وبين اليأس والرجاء والسخط ،
والرضاء ، والحب والبغض ، وفيه صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة ،
في العصر الحديث ، ولقد حارب أبو الطيب الضعف الإنساني في جميع
مظاهره كما حاربه « تنشه » ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة
والطموح التي دعى إليها « تنشه » ودعى إلى الثقة بالنفس والعمل للحياة
بأقصى ما يمكن من قوة وإقدام كادعى إليه « تنشه » ، وأصل الفضائل جميعها
عند الرجلين هو إرادة القوة والسمى إليها والظفر بها في شتى صورها وذلك هو
السعادة المنشودة المرتجاة ، وبين أدائهما كثير من ألوان الاتفاق تراها في
« مطالعات » للعقاد (١٥٧ - ١٦٣) وشعر المتنبي يتحدث كثيراً عن منازع
الحياة البشرية ويصف الطباع الإنسانية وصف المحيط بها الذي أكلها تجربة
وبحناً ، وقد امتاز شعره بسمو الحكمة الإنسانية ودقه تغلغلهما في صميم الحياة
وإدراكها لبواطن الأمور وتمشيها مع ثمرات التجربة والواقع .

وشعره فوق ذلك تصوير بارع لحياة الشاعر نفسه بما كان يختلج
في صدره من طموح إلى المجد وثورة على نظم السياسة والاجتماع ، ودعوة

إلى القضاء على مظاهر الضعف فيها بظبا السيف أو بشبابة اليراع
وأبو الطيب رائع في رثائه كما هو رائع في مدحه وفخره وهجائه ووصفه
وحكمته .

وعلى رثائه مسحة من الفلسفة الحائرة التي يستمدّها الشاعر من ثقافته
وحياته ، ويضمّنها فلسفة الحياة والموت والفناء والخلود ، كما يودعها فلسفة
الحزن والبكاء والصبر والعزاء ، ومدحه ليس تفانياً في شخصيات مدوحيه ،
بل إنما هو اعتزاز بشخصيته ونفسيته ، والشاعر يتخذها سلباً يصعد عليه إلى
ذروة المجد والسلطان

وتشيع في أعطاف هجائه روح النهم والسخرية والإقناع ، وفلسفة
السخرية نشدها المتنبي في ثورات غضبه وسخطه فأجاد الحديث فيها في دقة
وخفاء ، ولكنها عند ابن الرومي نزعة طبيعية في نفسه ظهرت في شعره ،
فكان أبعد الشعراء منزعا في تصويرها ، وإبعاد مرماها ، وإصماء وقعها ،
وترى روح السخرية عند المتنبي في أماجية لكافور ، وفي مدائحه التي كان
يثنى بها عليه وكان يطوى فيها المدح على الهجاء حذقاً منه بصناعة الشعر كما
يقول ابن جني^(١) ، ويمكننا أن ترجع روح السخرية عند المتنبي إلى بعد
آماله ، وطول إخفاقه فيها ، وسخطه على الناس والحياة إلى روح العظمة
وشذوذ المبقرية في نفسه ، وإلى نهمه في الانتقام من يتعرض له بشر أو
يحول بينه وبين غاياته وهي في وضوحها وغلبتها على شعره لا يعادلها إلا
دهواته الساحطة وآراؤه المتشائمة النافذة على الحياة والأحياء ، وأبو العلاء
يستمد من أبي الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان بخالفة في بواعثه وفي نتائجه ،
فسخط أبي العلاء وتشاؤمه يقوم على شعور وثيق يبعد الإنسانية عن حياتها

المتنبي ، أما نشاؤم أبي الطيب فراجع إلى إخفاقه في آماله ، وسخط أبي الطيب ينتهي به إلى خوض غمار الحياة دون مبالاة بالحياة ، وسخط أبي العلاء ينتهي إلى الزهد فيها والانصراف عنها .

وقد كان هجاء أبي الطيب معولا هدم به صروح المجد التي أقامها من هجاء ، فإذا هم صورة مشوهة هي سخرية الأجيال وحديث القرون .
ويبلغ وصفه مبلغ الروعة والقوة حين يصف به معارك القتال وحموات الوغى وروح البطولة واضحة من قصائد المتنبي لاسيما في الفترة التي قضاها في بلاط سيف الدولة حيث الصراع الدائم والكفاح الطويل بين سيف الدولة وأعدائه .

وفخره حديث عن عصاميته واعتزاز بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله وغاياته . وللمتنبي نسيب ولكنه متكلف مصنوع ضئيل في معانيه ، بعيد عن روح الغزل في أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغواني وقلب أبي الطيب صلة ، فهو طالب معبد وداعى قوة وشاعر سيف ورمح ورسول فضيلة ومثل ، فحاله وللغواني والنسيب بهن ؟ والنسيب إنما هو وحي الحب الصادق والروح الوادعة والعواطف الميتة حين يقع القلب في أسر الهوى ، وما أبعد المتنبي عن ذلك ، وهل عرف الحب من يقول :

وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب

وغير فؤادى للغرائبية وغير بناتى للرخاخ ركاب

وهو الذى يدعو على الغواني مثل هذا الدعاء الجاف :

أيا خدد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان الغيد

وليس لنسيب المتنبي خطر في روحه ، إنما أثره في فته وأسلوبه

كقوله :

سقاك وحيانا بك الله إنما على العيش نور والحدود كآئمه

وقوله :

نزلنا على الأكوام نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا
نذم الحسان الغر في فعلها به ونعرض عنه كلما طلعت عتبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفر به وعيشاً كأنى كنت أقطعه وثبا

ونسبته على العموم تقليدى بحث ، ولم يكن المتنبي ممن شغفوا بجمال الطبيعة وأسرارها ، ولا ممن تأصلت في نفوسهم روح المرح والفكاهة ، ولكنه جاد ، أقبل بحملته على جهاد الحياة ، وشعره صورة لما يحتاج في النفوس المجاهدة من آمال . وروح الخيال عنده كما هو عند أبي العلاء ضعيف إذ كانا رجلا حقيقة وتفكير لا خيال وتصوير .

وشهرة المتنبي الأدبية المذائعة ترجع إلى خصائص فنه الأدبي كما ترجع إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية :

فحياة أبي الطيب في قصور ملوك الشرق وأمراته : المحذاتين والاختشدين والبويهيين ، وفي عواصم العالم الإسلامى إذذاك : حلب ودهشق ومصر والكوفة وبغداد وشiraz ، وتعرفه رجالها وزعماء النهضة الثقافية والفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية فيها مما أذاع في العالم الإسلامى شهرته ، ثم هذه الخصومات العنيفة التى منى بها المتنبي في كل بلد حل فيه ، وتضاؤل الشعراء عن مجاراته أو تحديه في سحر القريض ، ثم ذلك التجاوب بين عواطفه وشتى العواطف الإنسانية ، وهذا التساوق بين آرائه وتجاربه وحكمة الحياة ، والمازج بين مشاعره ومشاعر خاصة الأدباء والمفكرين ، وهذا السمو بنفسه وبالفن الذى يؤدي رسالته كل ذلك كان من عوامل إذاعة شهرته الخالدة .

وقد تأثر بشعره الكتاب والشعراء والأدباء في عصره وبعد عصره .

خالصاني والصاحب وسراهما من الكتاب المعاصرين له اقتبسوا من شعره في رسائلهم ، وكذلك نسيج الشعراء على منواله وحاكوه في شتى العصور ، لا سيما في حركة الاحياء الأدبي في العصر الحديث ، وعصية شاعر كأبي العلاء له هي عصية للفن والأدب قامت برغم بعد الزمن وانتفاء المؤثرات بينهما .

— ٦ —

ولأنكاد نجد شاعراً اختلف الناس في منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء في عهده وبعد عهده مثل المتنبي ، فقد افرق النقاد فيه فرقا ثلاثاً :

فطائفة بالغت في التعصب له ورفعت له منزلة كبيرة في الأدب وعلى عرش القريض .

وطائفة بالغت في التحامل عليه والوضع من شأنه وشعره ، فوضعت في مكانة دون مكانته . ومنزلة دون منزلته لخصومة خاصة بينهم وبين الشاعر وحده ، أو لخصومة عامة بينهم وبين المحدثين جميعاً ، وأغلب هذه الخصومات نشأت بتأثير عواطف شخصية ومنافسات أدبية وأغراض سياسية ، والقليل الأقل منها كان يربطاً من الغايات لم تدفعه إلا يد النقد الأدبي النزيه .

وطائفة أخرى جعلت تعصبها للأدب ، لاله فعرضت وواظمت ونقدت وحكمت على ضوء العدالة الأدبية ، وكانت هذه الخصومات سبباً في كثرة الدراسات الأدبية التي تدور حول شعره ، وكان فيها ثروة كبيرة للنقد الأدبي خاصة وللأدب والشعر والبيان عامة .

وحسبك أن المتنبي شرح شعره وعلق عليه وألف في نقده وكتب عن شعر فحول الأدباء والنقاد والعلماء ، من المشرقين والمشرقين . . كتب عن المتنبي الثعالبي ٤٢٩م في الجزء الأول من القيمة كتابة فيها دراسة لحياة

ونقد شعره، وترجم له ياقوت م ٦٢٦ هـ (١)، وابن خلسكان م ٦٨١ هـ (٢)، وألف البديعى م ١٠٧٣ هـ فى حياته وشعره كتابه «الصبح المنبى». وكذلك فعل كثير من كتاب الأدب فى العصر الحديث مخص منهم المرحوم السيد محمد توفيق البكرى فى كتابه «أخبار أبى الطيب المتنبى، والمتنبى، للأستاذ جبرى» و«مع المتنبى» فى جزأين للدكتور طه حسين، و«ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام» للدكتور عبد الوهاب عزام، و«المتنبى» للأستاذ محمود محمد شاكر، وقد نشرته مجلة المقتطف فى عدد خاص، ومجلة الهلال العدد العاشر عام ١٩٣٥ الخاص بالمتنبى، وصحيفة دار العلوم، ثم هذه الدراسة للؤلف، وكان العيد الألفى لذكرى أبى الطيب عام ١٩٣٥ هو المثير لهذه الدراسات، فامتلات الصحف والمجلات بالحديث عن حياته وشعره وظهرت المؤلفات الحافلة بالبحوث الأدبية فيه، وفى «مطالعات» للعقاد و«حصاد الهشم» للذانى دراسة واسعة للمتنبى وفنه، وقد شرح ديوانه شرح دراسة وتحليل ونقد ابن جنى م ٣٩٢ هـ فى ثلاثة مجلدات، وله كتاب فى «معانى أبياته». ولابن فورجة: «التجنى فى الرد على ابن جنى» و«الفتح فى الرد على أبى الفتح»، ورد على ابن جنى كذلك على بن عيسى الربعى المتوفى سنة ٤٢٥ هـ فى كتابه «التنبية»، وشرح ديوانه كذلك ابن الأقليل م ٤٤١ هـ، وأبو العلاء م ٤٤٩ هـ فى كتابه «اللامع الغزيرى فى معجز أحمد». والواحدى م ٤٨١ هـ وعبد القاهر الجرجانى م ٤٧١ هـ والتبزي م ٥٠٢ هـ، والعكبرى م ١٦١٦ هـ واليازجى والبرقوقى فى عصرنا الحديث.

ونقد شعره كثير من النقاد فى مختلف العصور، فللصاحب م ٣٨٥ هـ فى نقد شعره رسالته «الكشف عن مساوى شعر المتنبى، وللخرارزمى.

(١) ٢٦٦ ج ١ طبقات الأدباء.

(٢) ٢٦ ج ١ ابن خلسكان.

م ٢٨٣ هـ كتاب مفقود (١) ، ولأبي الحسن الجرجاني م ٢٩٢ هـ كتاب المنع
 « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وللحائمي م ٢٨٣ هـ « رسالته الحاتمية » ،
 وكتابه « جهة الأدب » ، تحدث في الأولى عن مناظرته المتنبي ، وفي الآخر
 عن سرقاته من أرسطو (٢) ، ولمحمد بن وكيع المصري الشاعر م ٢٩٣ هـ كتابه
 « المنصف » ، فعلم فيه سرقات المتنبي (٣) ، وللمعدي كتابه « الأمانة » ، وقد
 نقل عنه البديعي كثيراً من نقده وناقشه (٤) ، ولأبن حنون المصري كتابه
 « نزهة الأديب في سرقات المتنبي من حبيب » ، وألف أديب آخر كتاب
 « المآخذ السكندرية من المغانى الطائفة » ، أى سرقات المتنبي من أبي تمام ،
 وغير ذلك من كتب النقد التي تدور حول شعر المتنبي .

وقد أبدى علماء الأدب في شتى المصور رأيهم في المتنبي وشعره كالشريف
 الرضى م ٤٠٥ هـ (٥) وابن رشيق م ٤٥٦ هـ في « عمدته » ، وابن خلدون م
 ٨٠٨ هـ في « مقدمته » ، وابن الأثير م ٦٣٧ هـ في « مثله » ، والثائر ، وابن شرف
 القيرواني م ٤٦٠ هـ في « مقامته عن الشعر » (٥) وسيف الدولة الحمداني م
 ٣٥٦ هـ (٦) وابن العميد م ٥٦٠ هـ وأبو فراس الحمداني م ٣٥٧ هـ (٧) وابن خالويه
 النحوي (٨) وسليويه المصري (٩) والحائمي (١٠) . وقد عرض السكيلاني
 في كتابه « صورة جديدة من الأدب العربي » ، مناظرة الحائمي لأبي الطيب .

(١) ١٦١ صبح ، ٢٦١ ج ٢ النشر الفني .

(٢) ١١١ - ١١٩ ج ٢ المرجع . (٣) ١٥٨ و ١٦١ صبح

(٤) ١١٤ - ١٥٩ صبح . (٥) ١٠٣ صبح .

(٦) ٤٣ صبح . (٨) ٤٦ - ٤٨ صبح .

(٩) ٦٣ صبح . (١٠) ٩٠ و ١٠٣ صبح .

(١٠) ٧١ - ٨٠ صبح ، ١٠٦ - ٢٧ صور جديدة السكيلاني .

وغير هؤلاء من الباحثين وفنّده كثير من الكتاب المحدثين ، وكثير من المستشرقين :

مثل : رابسكى ، دى ساسى ، بولان ، بركلان ، نيكلسون ، هامر ، ديتريشى ، وكذب المستشرق هندلى فى تاريخ حياة أبى الطيب بجهلاً قيمة نشرها فى القرن التاسع عشر .

وبطول بنا البحث لو أحصينا رأى كل ناقد وأديب ، من هؤلاء . وغير هؤلاء .

وبعد فهذا هو أبو الطيب المتنفى شاعر العربية فى حياته وشعره وشاعريته ووحسبته .. وإلى هنا نمسك القلم ، محيين عبقرية ذلكم الشاعر العظيم .

بين صاحب بن عباد والمنتبى^(١)

كان فى المتنّى كبر وزهو ، وكان يعتد كل الاعتداد بنفسه وفنه ، حتى
مدأى شعره يتبوأ فى الشعر العربى عروش الامارة التى نشدها لنفسه فأخفق
وحرّم منها :

إن هذا الشعر فى الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك
ورأى أهل الجاهلية من الشعراء تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

وبعد أن بلغ من المجد الأدبى منتهاه ، كان أبلغ شحيح بشعره على رجالات
العالم الاسلامى وشخصياته البارزين ، فلم يمدح أحداً إلا فى القليل النادر من
الذين تربطهم بالشاعر صلات خاصة ، أو ممن كان يسعى لديهم فى سبيل
تحقيق مطامحه فى الامارة .

وفى عام ٣٥٣ هـ كان المتنّى فى بغداد فأخذ يفاضه رجالاتها كالصابى
سنة ٣٨٣ هـ والمهلبى الوزير فى أن يقدم مدحة من مدائحه فاعتذر وانتظر معز
الدولة الملك والخليفة العباسى أن يشيد أبو الطيب بدواتهم فلم يفعل ، فأثار
وجود المتنّى مشكلات سياسية وأدبية ، خرج من مأزقها أبو الطيب ، فيعم
وجهه شطر شيراز حيث عضد الدولة ، ينشد منه ولاية يتقلدها أو عرشا
ينبوؤه . وطمع صاحب بن عباد فى زيارته له بأصفهان ، فمكّتب إليه

(١) للصاحب كتاب الامثال السائرة من شعر المتنّى ، (١١ و ٥٠٢٤)

أدب مخطوط - دار الكتب المصرية .

(١٢) - النقد الفكرى والأدبى)

يرحب بقدره و يعلن استعدادده لأن يشاطره ماله ، ولكن أبا الطيب أبى أن يقلد شعره شابا ليس في يده تحقيق آماله البعيدة ومطامحه الواسعة ، فرفض عرض صاحب شاخصا إلى عضد الدولة ، انفس غاياته ، لارغبة في إشباع شهواته :

ول السلاطين من تولاها والجا إليه تكن حديما

وكان رفض المتنبي اليد التي مدها صاحب إليه باعنا على عداوة ابن عباد ، له ، ونقده إياه ، وحمله الأدباء والكتاب على ثلثه ومهاجمته بسلاح عنيف من أسلحة النقد الأدبي الجائر ، وألف بياض العصية والخسومة رسالته الصغيرة الحجم الكبيرة المغزى والقيمة : « الكشف عن مساوى المتنبي في شعره ، ينقد فيها شعره سواء في اللفظ والمعنى أم الوزن والقافية أم الأسلوب والخيال أم الفكرة والاتجاه . وكان صاحب لاذعا عنيفا في نقده للتنبي ، وتهكمه بشعره ، غير آبه لجانب الإحسان والروعة في شعره . واقد تجاهل صاحب — عصبية منه على المتنبي — نفسية الشاعر وطبعه ومؤثرات الدم والروح والبيئة والآمال والاتجاه فيه ، وأخذ يحكم عليه أحكاما قاسية لاهوادة فيها ولارحمة ، وهو في هذه الاتجاه يناقض الجرجاني الذي فهم النقد على أنه البحث في مدى العدالة والانصاف عن مكانة الشاعر الأدبية على ضوء خصائص فنه وميزات شعره ، ووزن مازل فيه الشاعر وما أجاد فيه بقسطاس مستقيم عادل .

نهج صاحب في نقده صورة لاتجاه أستاذه ابن العميد فيه ، بما عبر عنه صاحب في رسالته بقوله : « كان ابن العميد يتجاوز نقد الآيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية

والوزن (١) ، فهو نقد لمعانى الشاعر ، وطبعه ، وذوقه الاجتماعى ،
ونقد لأسلوبه فى صياغته ، واختيار ألفاظه ، وحروفه ، وقافيه ،
وموسيقاه .

أخذ الصاحب على المتن من حيث المعنى كثيرا من الزلات ، كعمامة
بعض معانيه ، وقبحها والاغراق فيها ، وتعمد الغموض فى الغوص عليها ،
سواء بإبعاد الاستعارة والاسترسال فيها ، أم التعقيد المعنوى بالتغلغل فى غير
وضوح إلى خفاياها ، كما أخذ بهدم الملاءمة بين المعنى والمقام ، أو بين المعنى
والذوق والعرف ، وبأسرافه ومغالاته ، وخروجه على مذهب الشعراء .
وبعدم التلاؤم بين أجزائها ، وبقيح أخذه عن الشعراء كالبحتري وأبى تمام ،
مع إنكار منه ليدم عليه ، وبقيح جمعه بين التشبيهات ، وبفحشه فى السخرية ،
وفجوره فى الكناية ، واستهائه بقداسة العقيدة

ثم هو يأخذ عليه خروجه على مانقرضه موسيقى الشعر وأوزانه من
قيود وتعسفه بإثارة القوافى الصعبة .

كما يأخذ عليه من حيث الأسلوب كثرة تكرار الحروف الموجبة لتكلف
الطبع ودماغة الثقل ، واختياره الألفاظ القبيحة ، أو المتنافرة الشاذة ، أو
الغريبة ، أو الملحون فيها البعيدة عما تقبله الأذواق ، سواء بإثارة اللغات
الشاذة أم بالتعبير بألفاظ يخطئ فيها تمجيد الوضع اللغوى أو الاشتقاق
التصريفى ، أو بالتهجم على ضرورة الشعر البعيدة عن روح الشعر . كما يأخذ
عليه كثرة تكرار الصفات المجموعة ، والألفاظ المتجانسة ، ومجافاة أسلوبه
لروح الشعر بقيح ابتدائه وعدم صقل طبعه الشعرى لما يجمعه من الأسماء
أو لما يشفق فيه من جناس ، وسخف أسلوبه وركه صنعتته وتكلفه فى تعسف
التعبير وتعقيد النظم والاضطراب فيه ، وإيراد كثير من الاصطلاحات

العلمية أو الأساليب الشرطية البعيدة عن جمال الشعر ، وينهكم بأسا ييه التي .
استمدها من الحياة الواقعية الجافة .

وذكر أن المتنبي بضؤل أمام أبي تمام والبحرئ في صياغة ما كان .
يقتبس منهما من معان ، كما بضؤل بجانب الفردق في الفخر .

وكانت غاية الصاحب من وراء ذلك كله هدم مجد المتنبي الأدبي ، وتشويه .
سمعته كشاعر يمتاز عن شعراء العربية . وإن كان الصاحب وصل إلى بعض .
ما أراد في حياة أبي الطيب ، فإن مجده قد عصف بكل ما أراد خصومه ،
فوهب ذبوع الشهرة ومجد الخلود .

وقد نقد ابن رشيق في عمدته في مواضع مفرقة منها آراء للصاحب في .
نقده فرد عليه مثلا نقده لبيت المتنبي :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال (١)

والانصاف يلزمنا أن نقول : إن نقد الصاحب كله لم يكن مدفوعا بيد .
الهموى ، أو بمنأى عن العدالة والانصاف ، وإن كان الصاحب يتجاهل .
لغاية في نفسه شخصية الشاعر وروحه وأثرهما في فنه ، فراء مثلا ينقد .
بيت أبي الطيب :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبيد الله بعرانا

نقدنا لاذعا (٢) :

وللناقد حق السخط على هذا البيت في بادئ الرأي ، واسكن النظر .

(١) ١٤٧ ج ٢ العمدة .

(٢) ٢٦ الكشف .

الحصيفة تدعنا نرفع عن الشاعر في بيته هذا إصر كل مؤاخذه ، فهذه هي روح الشاعر - المتهمكة الساخرة بالناس الساخطة على المجتمع الذي لم ينل فيه آماله ، المعتزة بنفسها وشخصيتها - تتجلى في البيت في صورة واضحة رائعة ، وهل أبلغ في السخرية وأمعن في التهمك ، من اتخاذ الناس مطايا يركبها الشاعر إن استطاع إصبل عليها إلى مدوحه ؟

إن من الغريب حقا أن يكون فن شاعر كأبي الطيب رائعا كل الروعة بالغاية القوة والسر ، حين ينظر إليه كله كأثر أدبي حافل ، فيحكم على قصيدة من قصائده ، أو على مجموعة منها أو عليها كلها ، حينئذ يرتفع أبو الطيب إلى الذروة وينتهي شعره إلى الغاية . أما إذا قطعت أوصاله فنظر إلى بعضه كحرف في كلمة من كلماته ، أو لفظة في بيت أبياته ، أو بدت في قصيدة من قصائده ، أو أخذ الشاعر وحوسب حسابا غير يسير . ولقد تمدد الصاحب أن أن ينظر إلى فن أبي الطيب هذا النظر الجزئي ، غفيا وراء نقده ما في نفسه من إعجاب وتقدير . وقد شاء الجرجاني في وساطته ألا يترك هذه الناحية أو يفعلها فطالب بالحكم على فن أبي الطيب كله أو جله أو كثير منه ، لا على جزئياته الضئيلة التي لا تحط زلاته فيها من مكانته ومنزله ، وعرض كثيرا من دوائمه طالبا الانصاف للحكومة والعدالة في الرأي .

هذا هو حديثنا عن رسالة الصاحب ، ولكن في أي تاريخ ألف الصاحب رسالته ؟

يقول الصاحب في مقدمة « الكشف » : وأنا منذ عشرين سنة أجالس العلماء والشعراء والأدباء ، وعشرين سنة أخرى آخذ عن رواة الميزد وأصحاب ثعلب ، فهو إذا حين تأليف رسالته كان قد قضى أربعين سنة في الدراسة ومباحثة العلماء ، فإذا كان بدء دراسته في العاشرة من عمره فتسكون سنة حين ألف رسالته خمسين سنة ، وإذا كان ميلاده عام ٣٣٦ هـ فيسكون

تاريخ تأليفها سنة ٥٣٧٦ هـ ، وكان للباحث الحق في أن يعتمد على ذلك الاستنتاج لولا أن صاحب يقول إثر ذلك : « فها وجدت من يعرف الشعر حق معرفته ، وينقده نقد جهابذته ، غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل ابن العميد ، أدام الله أيامه ، فابن العميد المتوفى سنة ٥٣٦٠ هـ كان لذاً لا يزال حيا حين كتابة صاحب رسالته ، فتكون قد ألفت قبل عام ٥٣٦٠ هـ ، ونحن وإن وقفنا بين نصين متعارضين ، إلا أن دلالة الثاني لا تحمل شكاً أو تأويلاً ، وكثيراً ما يبالغ الإنسان في تقدير سنه ، لاسيما في معرض الزهو العلى ، فتكون هذه الرسالة قد ألفت والصاحب قد تخطى حدود الشباب ، وذلك بعد وفاة المتنبي أى بعد عام ٥٣٥٤ هـ) . وقبل عام ٥٣٦٠ هـ .

الصاحب بن عباد الوزير الأديب

لم يبلغ أحد من الأدياء ، وحلة رسالة القلم ، ما بلغه الصاحب من المجد
والنفوذ وذيوع الصيت : وكان - كما يقول ابن خلكان فيه :

« نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر ، في فضائله ومكامله وكرمه ،
وكما يقول فيه الثعالبي :

« صدد المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ،

لقد كرم الصاحب في حياته ووفاته تكريماً لم يلقه أحد من الأدياء ،
وخلد على صفحات التاريخ ، مجداً سامقاً ، رادياً رفيعاً ، وذكرى مرردة
على الأيام .

ولد الصاحب ، إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد ، في ذي القعدة من
عام ٢٢٦ هـ في « طالقان » من أقاليم إيران ، ويقع بين قزوین وأهر - ولد من
أسرة فارسية رفيعة النفوذ والسلطان ، في خلافة الراضي العباسي (٣٢٢ -
٣٢٩ هـ) فرعاً ، أبواه بجناتها وهظفهما رعاية فائقة ومضت أيام طفولته الأولى
والخلافة العباسية تعصف بها الأحداث ، وجلس على عرشها المتق ثم المستكفي
الذي في عمره زاد خطر البويهيين في فارس ، واستولى معز الدولة
البويهی على بغداد عام ٢٣٤ هـ (٩٤٦ م) ، وسلب الخليفة سلطانه ، وتولى
حكم الخلافة بالنيابة عنه . وتولى أخواه حكم المشرق الاسلامی : عماد
الدولة في فارس والأهواز ، وركن الدولة في الجبل والري . وإمتد نفوذه
إلى جرجان وطبرستان .

وفي حياة الصاحب جلس على عرش الخلافة الطمیع فاطائع العباسی ،
فالقادر ، وكانت الأمور في بغداد في أيدي معز الدولة ونائبه عز الدولة ،

ثم عضد الدولة بن ركن الدولة ، فاخوته صمصام الدولة ، فنترف الدولة ،
فبهاء الدولة البويهى .

وكان قيام الدولة البويهية محاولة من العناصر الفارسية لاسترداد نفوذهم
فى دولة الخلافة من أيدى الأتراك . وبقيامها خضعت الخلافة لهيمنتهم ،
وكان للصاحب بن عباد مجالس يؤيد فيها آراء المعتزلة ، ويتناظر فيها خصومهم
كما يقول ياقوت فى « معجم الأدباء » .

وقد تنافس الملوك والأمراء والوزراء والولاة فى تشجيع الآداب .
ولابن العميد والصاحب والمهلبى فى ذلك آثار جليلة . وكان ابن العميد
يميل إلى العلم ، وصاحبه يميلان إلى الآداب ، وكان ابن سعدان الوزير يشجع
الفلاسفة والمفسرين ، وصابور بن أددشير الوزير يحتفى أيضاً بالثقافة
والآداب . فكانت هذه الحياة السياسية الجديدة ، وما صحبها من تيارات
مذهبية وعقلية وأدبية ، هى البيئة العامة التى عاش فيها الصاحب ، وتأثر
بها ، وأثر فيها .

كان عباد والد الصاحب عالماً أديباً ، تولى الكتابة والوزارة لركن الدولة
البويهى . وكان هو الأستاذ الأول لابنه اسماعيل ، وقد عاش هذا الأب
العظيم طويلاً ، ومات فى السنة التى مات فيها ابنه ، عام ٣٨٥هـ على ما يذكر
ياقوت نقلاً عن ابن الجوزى فى « المنتظم » ، ويذكر ابن خلكان وغيره أن عباداً
توفى عام ٣٣٥هـ ، وربما كان ذلك تحريفاً . وكذلك عمرت أم الصاحب
طويلاً . وتوفيت عام ٣٨٤هـ على ما يذكره ياقوت .

وهكذا نشأ الصاحب فى الرى ، عاصمة ملك ركن الدولة البويهى ، فى
بيت سيادة ، حتى قال أبو بكر الخوارزمى : « الصاحب نشأ من الوزارة
فى حجرها . ودب ودرج من وكرها ، وورثها من أبيه » .

وتلذذ الصاحب على يد صديق أبيه الحميم ، أبي الفضل بن العميد ، وزير
ركن الدولة ، وشيخ الأدباء والكتاب في عصره ، ودمعاد ملك آل بويه ،
وصدر ودرائهم ، وواحد العصر في الكتابة ، كما يقول الثعالبي في «اليتيمة» ،
«وجلس الكثير من الأدباء منه مجلس الطلاب من الأستاذ ، فأعجبوا
به وجاروه وقلدوه ، واتسموا بطابعه ، وجروا في نهجه . وغرفوا من بحره» ،
كما يقول الثعالبي أيضاً ، وطالت صحبة ابن عباد لأستاذه ، فسمى «صاحب
ابن العميد» ، و«الصاحب» ، وللصاحب قصائد كثيرة في مدحه ، وكان
بعده والده وأستاذاً . وابن العميد ينزله من نفسه مهزلة الابن والتلميذ ، وطالما
رؤى في مجالس هذا الوزير العظيم ، التي كان يحضرها العلماء والأدباء
والمسكلمون للمناظرة ومن أساتذة الصاحب كذلك: ابن فارس ، وأبو سعيد
السيرافي والقاضي أبو بكر بن كامل وهو من رواة المبرد وثلث والبحترى .
كما كان يتردد على مجالس المتكلمين والفلاسفة من مثل أبي زكريا يحيى بن
عدي وغيره .

وشهر الصاحب بالعلوم وأخذ من كل فن منها بالنصيب الوفور ، وهب
من حسن السياسة والفصاحة والأدب ما وهب . وقرأ كتب المعتزلة ، وسار
على نهجهم وطريقتهم ، وحصل على الحديث وتفوق فيه . إلا أنه خاصم
الفلاسفة والناظرين في كتبها ، وكانت ثقافته في الشعر ونقده . وفي العروض
والقوافي ، وفي التاريخ والجدل ، واسعة عميقة . وكانت لديه مكتبة ضخمة .
وكان كثير المحفوظ حاضر البديهة ، فصيح اللسان ، قوى الملكات .

وقرب ابن العميد تلميذه من الأمير مؤيد الدولة بن ركن الدولة البويهى .
وكان يتوب عن والده في أعمال الدولة وسياساتها . ووصف له ابن العميد
ذكاء الصاحب ومواهبه ، فأتخذه كاتباً له ، وزادت منزلته عند مؤيد الدولة
فلقبه «بالصاحب» ، و«وكافي الكفاة» .

ولمات واد الأمير عام ٤٦٦ هـ ، وكان يلي الوزارة له أبو الفتح بن

العميد ، أبقاه على ما هو عليه ، ثم اتخذ مكانه صاحب وزيراً . ومات مؤيد الدولة عام ٥٢٦٧هـ ، وجلس مكانه أخوه فخر الدولة البويهي ، فأبقى صاحب في وزارته ، واعتز به ، وقال له : ذلك في هذه الدولة من إرث الوزارة ما لنا فيها من إرث الإمارة ، وظل وزيراً له حتى آخر حياته .

ونشر ابن عباد بنموذ آراءه الفكرية ، وكان ينقم على معاوية والامويين وعلى الجبرية وآرائهم . وأخلص صاحب لدولة البويهيين اخلاصاً شديداً . ولما حاول خصومهم من السامانيين اغراء صاحب ليسير إليهم ، أبى وفاؤه عليه ذلك وقال : كيف يحسن لي أن أفارق قوماً بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى ؟ .

وكان فخر الدولة يحمله على الوالد أكراما وعظاما ، ويتخاطبه بالصاحب في حديثه ورسائله ، ويشق به ويحمله ويرفع من منزلته . والآواصر تصدر عن صاحب ، والملك يدبر برأيه حتى كان فخر الدولة إذا رأى رأيا ورأى صاحب غيره ، أخذ برأى وزيره وترك رأيه . وقد كان صاحب موقفا في سياسته ، فتح خمسين حصناً وأضافها إلى ملك فخر الدولة . وكان عضد الدولة البويهي ملك بغداد في رسائله إليه يحمله ويمظمه . ولما توفيت أم صاحب عام ٣٨٤ هـ بأصبهان ، وورد على ابنها الخبر ، جلس للعزاء ، وركب إليه فخر الدولة معزيا مواسيا ، وفعل ذلك جميع الأمراء والقواد .

ولم ينجب صاحب غير بنت واحدة ، زوجها لعل بن الحسين الحمداني الحسني ، وقد أنجبت ابنته ولداً سماه جده (عبادا) ، واحتق بمولده أيما احتفاء ، وهناك الشعراء به ، وقال هوفيه :

أحمد الله لبشرى أقبلت عند العشى
إذ حباني الله سبطا هو سبط للنبي

ولما شب هذا الغلام زوجه جده عام ٥٢١٤هـ بكريمة أحد أقربه
فخر الدولة، وكان هذا اليوم من أم أيام الدولة . وموسماً من مواسم
الآداب والشعر .

وبلغ من مجد صاحب أن استجار به خال لفخر الدولة ليحميه من
غضب الملك . وقد ألزم رجال الدولة وقوادما مع صاحب الآداب والطاعة
وكان صاحب يلزمهم بالعدل مع الرعية ، وكانوا عندما يحضرون إلى
الصاحب يقفون أمام قصره مطرقين حتى يؤذن لهم . ولم يكن صاحب
يقوم لأحد ، ولا يهتم بالقيام ، ولا يطمع منه أحد في ذلك .

وفي أخريات حياة صاحب ، كانت أعباءه السياسية قد أرهقت صحته
وكان تدبير الملك يقتضيه السهر في حياته ، ويذكر صاحب ذلك في رسالته
إلى صديقه أبي العلاء الأسدي مردداً فيها قوله :

وقائلة لم عرنك الهموم وأمرك بمثل في الأمم

فقلت دعيني وما قد عرا فإن الهموم بقدر الهمم

وقد صرح بأنه كتب هذه الرسالة وسنه تزيد على الخمسين .

رعى صاحب النهضة العلمية والأدبية في بلاده ، وأغدق على العلماء
والأدباء والشعراء ويقول الثعالبي فيه :

« إن أمواله كانت مصروفة إليهم وحضرته كانت مقصد آمالهم ،

ويقول أيضاً : احتف به من نجوم الأرض ، وأمراد النصر ، وفرسان
الشعر ، من يربو عددهم على شعراء الرشيد ولم يجتمع يباب أحد من الخلفاء
والملوك مثل ما اجتمع يباب الرشيد ، والصاحب . كالخيارزمي ، والبديع
والجرجاني ، والسلامي ، والمأموني ، والرستمي ، والزعفراني ، والضبي
والجوهرى ، والشاشي ، والفاشاني ، والخزرجي ، والاسماعيلي ، والطبري ،

والأسدي وسوام ، واتصل به شعراء العراق كالشريف الرضي ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وكتابه كالصافي وغيره . .

مدح الصاحب خمسمائة شاعر ، ويقول هو إنه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية ، وإنه أنفق أمواله على الشعراء والأدباء والزوار . كما يروي يافوت في معجم الأدباء . ولا شك أن الصاحب قد أثر بذلك في النهضة الأدبية في بلاده تأثيراً كبيراً وخطيراً .

أما شخصية الصاحب فكانت مزاجاً من الثقة بالنفس والاعتداد بها ، ومن فضائل الرجل الخلقية والإنسانية من حلم وكرم ووقار ، ومن حنكته السياسية وتجاربه الاجتماعية الواسعة ، ومن ملامح كنهه العقلية والأدبية العالية . وقد منى الصاحب بعداوة أبي حيان التوحيدي له فألف فيه وفي ابن العميد كتابه المشهور « مثالب الوزيرين » ، الذي أحال ثقة الصاحب بنفسه إلى غرور شديد ، وأحال عقله وحنكته إلى سفه وطيش ، وأحال سياسته إلى فساد وحق ، وأدبه إلى سجع مبتذل . ولكن التوحيدي يقر لهذين الوزيرين العظيمين بأنهما « كانا كبيرى زمانهما وبهما ازدانت الدنيا » .

وترك الصاحب مؤلفات كثيرة منها : المحيط في اللغة ، ومنه نسخة خطية في المتحف البريطاني وأخرى في مكتبة المجمع العلمي العراقي ببغداد . وديوان رسائمه وقد طبع بعضها ، وديوان شعره وقد نشرته مكتبة النهضة ببغداد بتحقيق محمد حسن آل ياسين ، وكتاب جوهرة الجهرة ، والكشف عن مساوئ المتنبي في شعره وهو مطبوع ، وكان الصاحب يتحامل على المتنبي لأنه لم يمدحه . وله كتاب في العروض ، وكتاب في تقص العروض وأخبار أبي العيناء ، وكتاب تاريخ الملك واختلاف الدول ، وعنوان المعارف في التاريخ أيضاً ، وكتاب الوزراء ، والأعياد وغيرها .

ولما مات الصاحب في ٢٤ من صفر عام ٥٣٨٥ (١١٩٥ م) ، وهو يخطو

إلى الستين ، وبعد أن تولى الوزارة لفخر الدولة ثمانية عشر عاما ، اهتزت
مدينة الري وهي تشع جثثانه إلى مقره الأخير وفخر الدولة والأمراء
والقواد يحيطون بنعشه والشعراء يرثونه بالدموع وجياذ القصاص وبما قاله
الشريف الرضي فيه :

هــلا أقاتلك الليالي عثرة يا من إذا عثر الزمان أقالا

كانت كل الأسباب تدفع بالصاحب إلى النبوغ في الأدب عصره ،
نشأته ، أساتذته ، بيته ومناصبه ، موافيه ومساكنه ، الكتب التي قرأها
وحلقات الثقافة والأدب التي شهد بها ، نهضة الأدب في عصره وازدهار
فن الكتابة والرسائل الفنية . كلها مجتمعة فجرت مواهبه ، فأنطلقت
ملكته الأدبية وانبثقت يتابع شاعريته . فشارك في النشر الفنى أعلام
عصره من أمثال : ابن العميد ، والصابي والخوازمي . والبدیع والمهلبی
والضبي ، والجرجاني . والعسكري . وكان الصاحب يقول : « كتاب الدنيا
أربعة ابن العميد . والصابي ، وأبو الهاسم عبدالعزيز بن يوسف ، ولوشنت
لذكرت الرابع » ، يعني نفسه . وكان يسير على طريقة ابن العميد في الكتابة
مع حرص شديد على السجع ، واعتماد على قوة المنطق والحجة . وأسلوبه
عذب سهل قصير الفقرات ، يعنى بشدة التوقيع الموسيقي بين فقراته . ومن
أمثلته قوله في القرآن الكريم : « كتاب الله وبيانه . والله وفرقانه .
ووجهه وتنزيله ، وهدهد وسبيله وفي ميلاد بنته : « أهلا وسهلا بعقيلة
النساء . وأم الأبناء ، وحالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار » .

وكان الشعر في عصر الصاحب في قمة نهضته وازدهاره . فكان المتنبي
والشريف ومهيار ثم المعري يشغلون الزمان وأهله . وشارك الصاحب في
نهضة الشعر . كما شجع الشعراء وكان ينظم الشعر في كل غرض وفن : في
المدح ، والفزل والاخترايات والأوصاف والتشبهات والهجاء الرثاء وغيرها
ومدائحه لابن العميد وفخر الدولة كثيرة ويمتاز شعره بالعدوبة والرقعة .

ومن أمثله ما كتبه إلى صديق له يدعو له لزيارته :

يا (أبا الفضل) لم تأخرت عنا فأسانا بحسن عهدك ظنا
كم تمنى نفسى صديقا وفيما فإذا أنت ذلك المتمنى
فبغض الشباب لما نثى وبعد الصبا وإن فات منا
كن جوانى إذا قرأت كتابى لاتقل للرسول كان وكنا
وهو شعر يدل على ذوق مترف ، وشاعرية خصبة غنية بالألوان
والصور والأخيلة .

وكتب عن صاحب بعد وفاته المؤرخون والأدباء والنقاد منهم الثعالبي
وباقوت وابن خلكان وابن الجوزى فى المنتظم ، وجمع من مؤرخى الأدب
ولا تزال حلقات الأدب والثقافة تشيد بذكره وتعلي منرائه وقدره .

وعلى الجملة فقد كان صاحب فى الصف الأول من أدباء عصره ، وقد
أحيت ذكره روائع شعره ونثره على مر الأيام ، وطويت بموته صفحات
حافلة بالمجد والمبقرية ، رحمه الله .

أبو حيان التوحيدى

- ١ -

أبو حيان التوحيدى (٣١٠ - ٤١٤ هـ) (٩٢٢ - ١٠٢٢ م) علم من
أعلام العقل العربى فى القرن الرابع الهجرى ، وأديب موسوعى الثقافة ،
عميق التفكير ، متعدد الجوانب . وصفه ياقوت فى «معجم الأديباء» بأنه
« فيلسوف الأديباء ، وأديب الفلاسفة ، وعحقق الكلام ومتمكلم المحققين
وأمام البلغاء » . وأنه « فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة » .
وأنه « كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية
ووصفه الدكتور الحوفى فى كتابه عن التوحيدى بأنه « الثمرة الكبيرة التى
أنضجتها علوم عصره وأدبه » .

ووصفه الدكتور زكريا إبراهيم فى مقدمة كتابه الذى نشر فى « سلسلة
أعلام العرب » ، بأنه « الناطق بلسان الثقافة العربية فى القرن الرابع الهجرى » ،
وأنه « قام بدور حضارى فى تلك الحقبة من تاريخ العرب ، ووصفه مفكرا
موسوعيا حاول أن يمزج الفلسفة بالأدب » . وذكر أن « جمع التوحيدى
بين التراث اليونانى من جهة ، والثقافة العربية من جهة أخرى ، هو الذى
أهله للقيام بهذا الدور الحضارى » .

ووازن أحمد أمين . وزكى مبارك ، والحرفى ، ومحمد كرد على ، بينه
وبين الحافظ ، موازنات كثيرة .

وقد عمر التوحيدى طويلا ، وتوفى أبوه وأمه وهو صغير ، وعاش فى
كفاح متصل ، ونضال طويل وحل وترحال دائمين ، وحاول أن يبعد شبح
البؤس والحرمان عنه فربفاح وتردد على قصور الوزراء والكتاتب فى عصره ،
مثل : المهلبى ، وابن العميد ، وابن عباد ، وابن سعدان ، فلم يظهر منهم بطلان

بل كسب عداوتهم له ، وعاش في حيرة عيشة الزاهدين المتصوفين . وفي لحظة من لحظات الشقاء والتعاسة النفسية ، أحرق كتبه ، وشاهد النار وهي تشتعل فيها وتلتهمها . ومات بشيراز عام ١٤٤٤هـ ، بعد أن حارب من عصره وشقى بأهل زمانه ، وعاش في حرمان متصل ، وفقر شديد .

ولقد أنصف الكتاب المحدثون التوحيدى فيما كتبوا عنه ، وفوهوا بفكره الناضج ، وفلسفته العميقة ، وثقافته المنة التي رددت فيها أصداء شتى المعارف التي كانت سائدة في عصره .

والخوفى في كتابه عن التوحيدى يعرض لأصل أبى حيان ، ويرجع أنه نشأ من أصل عربى لا فارسى ، ويعرض لصلاته بأبن العميد ، ويرجع أن ابن العميد الذى اتصل به ، هو الوزير أبى الفتح بن العميد ، وهو ابن أبى الفضل بن العميد ، الوزير المشهور ، والكاتب المعروف ، والأديب الخالد .

كان الجاحظ الثانى أبو حيان التوحيدى من أعلام القرن الرابع الهجرى ومن رواد الحركة الأدبية فيه وأتمتها . عاش حياته بأثاء مكدودا يشكو البؤس والحرمان ، وكأما أدركته حرفة الأدب أو صبت عليه هذه الحرفة كللها حتى كادت تطحنه طحنا .

يصف حال نفسه في مقدمة كتابه « الاشارات الإلهية » الذى حققه وقدم له د . عبد الرحمن بدوى فيقول : (ص ١٨ ط القاهرة ١٩٥٠) .

« أما حالى فسيئة كيفما قليتها ، لأن الدنيا لم تواتنى لا كون من الخائضين . فيها ، والآخرة لم تغلب على فأكون من العاملين لها . وأما ظاهرى وباطنى فما أشد اشتباههما ، وأما سرى وعلايتى فمقتوتان بعين الحق ، لخلوها من

بلامات الصدق ، ودنوهما من عرائق الرق ، وأما سكوتي وحركتي فأنتان
ميطتان بي ، لأنني لا أجدني أحدهما حلالة النجوى ، ولا أعري في الأخرى
من مرادة الشكوى ، وأما قراري واضطرابي فقد رهنني الاضطراب حتى
أبدع في فضلا للقرار ، وغالب ظني أنني قد علقت به لأنه لا طمع لي فيه
لفساك ولا انتظار عندي للانفكاك .

ولقد عاش عصره وحياته في شقاء دائم كان العصر البويهي (٣٣٤ -
٤٤٧ هـ) عصر اضطراب سياسي كبير ، شمل العالم الاسلامي كله ، وخضعت
فيه الخلافة العباسية للملوك البويهيين ، الذين استلبوا من الخلفاء كل سلطاتهم ،
وحكموا العالم الاسلامي باسمهم ، وبدأت تنشأ الامارات المستقلة ، والدويلات
المتحررة من نفوذ بغداد والبويهيين ، ونشأ عن ذلك ضعف عام شمل جميع
أرجاء الخلافة وكثرت الحروب ، وعم الفقر ، وساد البؤس والحرمان كل
مناطق الولايات الاسلامية .. ووجد الأدباء أنفسهم أشد طبقات المجتمع
خصاصة ، وأكثرها فاقة ، واذيعها شكوى ومرارة وألماً ، وكان أبو حيان
التوحيدى ظاهرة من ظواهر هذا المجتمع العجيب ، ووجدنا طبقة من الأدباء
تحترف الكدية ، واتخذت لنفسها لقب « الساسانيين » ، وقد صورهم أبو
داف الينبوعى الخزرجى في قصيدته الدالية المشهورة وكذلك البديع الهمداني
في مقاماته ، تصويراً واضحاً .

ومع أن التوحيدى عاش قريباً من بلاط الوزيرين ابن العميد والصاحب
ابن عباد ، فقد هجأهما ، وألف فيهما كتاباً سماه « مثالب الوزيرين » ، وآثر
أن يعيش مع الغرباء والمجتدين الأدباء الاردباء .

« (ج ١ ص ٧ الامتناع والمؤانسة ط الفاهر ١٩٣٩) - وكما يقول محقق
كتاب « الاشارات الإلهية » د . عبد الرحمن بدوي نقلاً عن ياقوت في معجم
الادباء : « لقد عرف الشقاء الذي لا يستحقه ، ولقي الأهوال من الأحياء »

بينما وجد التافهين يرتفعون إلى أعلى مراتب الرياسة والشرف في الدنيا ،
وسعى ما استطاع لطلب المثالة بين الناس ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولدرك الجاه
عندهم ، ولكنه حرم من ذلك كله ، وزاد من شعوره بالآلم أنه طلب المجد
عند أناس مهنتهم مهنته ، أعنى حرفة الادب ، لكنهم بلغوا مرتبة الوزارة ،
وهو لم ينل إلا البؤس والحرمان دى ، من مقدمة كتاب د الاشارات
الإلهية .

وكان صديقه أبو بكر القومسى الفيلسوف مثله ، ويقول عنه التوحيدى :
كان بحراً عجاجاً وسراجاً وهاجاً ، وكان من الضر والفاقة ومقاساة الشدة
بمنزلة عظيمة ، فهو عظيم القدر عند ذوى الاخطار ، منحوس الحظ منهم ،
وقال له التوحيدى ذات يوم : ما ظننت أن الدنيا ونسكدها تبلغ من إنسان
ما تبلغ منى ، إن قصدت دجلة لاغتسل منها فصب ماؤها ، وإن خرجت إلى
القفار لا تيمم بالصعيد عاد صليداً أملس دى ، من مقدمة د الاشارات . - عن
ياقوت فى معجم الادباء ص ١٠ ج ١٥ ،

وكم كان يكرر : «معاناة الضر والبؤس أولى من مقاساة الجهال د والصبر
على الوخيم الوبيل أولى من النظر إلى عجا كل ثقیل ، وعاش مترفعاً على
الفقر وعلى الناس وعلى السادة فى عصره .

إن التوحيدى كان شاهداً على عصره ، وعلامة واضحة من علامات
يئشه ، فهو يعيش حياته غريب الروح والفكر ، غريب الدار والوطن
لا يستقر به قرار ، ولا ينعم بأن يؤويه سك أو دار ، لكنه غنى النفس ،
غنى الفكر ، غنى الأدب . يشعر بعظمته وبفقهه وبقيمة أدبه وفكره فى
الحياة ، ويقول مثل هذه العبارة الرفيعة : «أستشعر العظمة . فإك هذا
الاستشعار تستحق التكرمة ، - ص ١٠٤ الاشارات الإلهية .

وهكذا عاش التوحيدى حياة البائسين ، وحياة المفسكرين ، حتى ليعد

الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

وكتاب « الامتناع والمؤانسة » له حقيقته ونشره أحمد أمين وأحمد الزين .
في ثلاثة أجزاء ، وقال عنه : إنه مجموع مسامرات في فنون شتى من الأدب
واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة ، حاضر المؤلف بها الوزير أبا عبد الله
العارض في أربعين ليلة .

وأقول إن التوحيدي عرض في هذا الكتاب الجليل كل مشكلات الثقافة
والفكر والأدب في عصره ، في ندوات أدبية كان يعقدها في أمسيات جميلة
في دار الوزير أبي عبد الله العارض .

إن الكتاب حديث متصل عن كل التيارات الفكرية والأدبية في عصر
التوحيدي ، مما كان موضوع سمر ومناظرة وحوار في مجلس هذا
الوزير .

وكما ألف بعض الأدباء في هذا العصر في باب السمر أصول كتاب ألف
ليلة وليلة ، فقد ألف التوحيدي كذلك هذا الكتاب الممتع الرائع ، الذي
يقص عاينا فيه كل ما كان يعينه من مشكلات الفكر والثقافة والأدب في
في أدب رفيع من أدب السمر والحوار ، في مجلس وزير جليل .

ويشابه « ألف ليلة وليلة » كتاب « الامتناع » في أن كلا منهما يتوزع
السمر والحديث فيه في ليال متعاقبة ليلة بعد ليلة .

والكتاب موزع على أربعين ليلة ، وإن كانت الليلة العاشرة والحادية
عشرة جعلتا في ليلة واحدة ، وسقطت الليلة الثانية عشرة من الكتاب .

وينتهي الجزء الثالث من الكتاب بالليلة الأربعين وكان الحديث فيها عن

أبي تمام والبحرئى شاعرى القرن الثالث الهجرى العظيمين ، وعن
تباين الأفكار والمذاهب وتخاصمها ، وعن ضلال الزائعين الذين ذهبوا إلى
أن الله عز وجل لم يخلق السباع الضارية ولا الموام ، ولا سلطها على الناس ،
ولم يضرب الناس بالأوجاع والأسقام - ص ١٩٠ ج ٢ الامتاع ، ويرد
عليهم التوحيدى هذا رأى .

ثم ينقل التوحيدى عن بعض المتكلمين ببغداد قوله : إذا كان الله عدلا
كراما ، جوادا عليها ، رؤوفا رحيم ، فإنه سيصير جميع خلقه إلى جنته .

ثم يقول الوزير للتوحيدى : هات ملحة المجلس ، فيقول التوحيدى عن
أبي همام : لو كان النخل لا يحمل بعضه إلا الرطب ، وبعضه إلا البسر ،
وبعضه إلا الحلال ، وكنا متى تناولنا من الشمر أخ بسرة خلق الله مكانها
بسرتين ، وما كان بذلك بأس ، ثم قال : استغفر الله ، لو كنت تمنيت بدل
نواة التمر زبدة كان أعسوب .

ويذكر التوحيدى كذلك بعض المأثورات عن أم المؤمنين عائشة .
رضى الله عنها فيصفها الوزير بفصاحة اللسان ، وشجاعة الجنان .

كما يذكر مأثورات أخرى لأدباء متعددين وفي آخر الكتاب يخاطب
التوحيدى صديقه أبا الوفاء المهندس فيقول :

وأما ما قلت لى أيها الشيخ من أنه ينبغي أن تكتب رسالتك إلى الوزير
حتى أقف على مقاصدك فيها ، واستبين براعتك وترتيبك بها ، فإننا أفعل
ذلك فى هذه الودقات .

ثم يلحق باليلة الأربعين رسالتين كتبهما إلى الوزير .

وفى الرسالة الأولى يتحدث التوحيدى إلى وزيره فيقول :

كنت وصلت إلى مجلس الوزير وفزت بالشرف منه ، وخدمت دولته
وتصرفت من الحديث يأذنه في شجونه وفنونه ، كل ذلك آملا في جدوى
أخذها ، وحظوة أحظى بها ، وزلني أميس معها ، فتقبل ذلك كله ، ووعد
عليه خيرا ، ولم يزل أهله ، وانقلبت إلى أهلى مسرورا ، بوجه مسفر ، ومحا
طلق ، وأمل قد سدا بين أفق العراق إلى صنعاء اليمن ، حتى إذا قلت للنفس :
هذا جناب الوزير ومحضره ، فاطمئني راضية مرضية ، حصلت من ذلك
الوعد والضمان ، على بعض فملات الزمان ، وعجب في ذلك من الزمان ،
فهو بمثابة ملي . وبقيت محمولا حيران لا أريش ولا أبرى ثم رفعت ناظري ،
وسددت خاطري ، وفصلت الحساب لى وعلى ، فوضح العذر المبين ، المانع
من استزادة المستزيد . .

وليس بعد هذا الأسلوب أسلوب أمعن في التهكم . ولا أبلغ في
السخرية ، منه .

وتمضى الرسالة الثانية كذلك جامعة بين الجد والهزل ، والسخرية والتهكم
ثم يلحق التوحيدى بهاتين الرسالتين رسالة ثالثة في شكوى البؤس وجه بها
إلى أبى الوفاء المهندس الذى كتب له التوحيدى هذا الكتاب ، وختم كتابه
بها . . وفى هذه الرسالة يقول التوحيدى لأبى الوفاء الذى قربه إلى
الوزير :

خلصنى أيها الرجل من التكفف ، انقذنى من لبس الفقر ، أطلقنى
من قيد الضر ، اشترنى بالاحسان ، أكفى مؤونة الغداء والمشاء .

ويسترسل فى كلامه قائلا :

إلى متى الكسيرة اليابسة ، والقميمص المرقع ، إلى متى التأدم بالحبز
والزيتون؟ قد والله يح الخلق وتغير الخلق ، الله فى أمرى أجبرنى فأتى

مكسور ، اسقى فائتي صد - ظمان - أغتني فائتي ملهوف ، حلى فائتي
عاطل ، شهرني فائتي غفل . قد أذلني السفر من بلد إلى بلد ، وخذلني الوقوف
على باب باب ، ونسكنني العارفي بي ، وتباعدني القريب مني . . أيها
الكريم . . ارحم ، والله ما يكفيني ما يصل إلى في كل شهر من هذا
الرزق المقتر ، الذي يرجع بعد التقدير والتيسير إلى أربعين درهما مع هذه
المؤونة الغليظة ، والسفر الشاق ، والأبواب المحجبة ، والوجوه المقطبة ،
والنفوس الضيقة ، والأخلاق الدنيئة .

ثم بقول في هذه الرسالة : وأنا الجار القديم ، والعبد الشاكر ، ولكنك
مقبل كالمرض ، ومقدم كالمتأخر .

إن التوحيدى يعرض في هذه الكلمات قصته مع الوزير ، عرض الساحر
البلغ الذى لا يجارى بيانه بيان .

والوزير العارض الذى وصله أبو الوفاء المهندس به من وزراء الدولة
البويهية استورذه - كما يقول أحمد أمين - صمصام الدولة البويهى عام ٥٣٧٣هـ /
٩٨٤م لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وكان له ندوة يجتمع
فيها العلماء والمفكرون والأدباء ، ومن بينهم : التويعيدى ، وابن زرعة
الفيلسوف ومسكوبه وأبو الوفاء المهندس ، وسوام

وهذا الوزير هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان . . أما أبو الوفاء
د ٣٢٨ - ٣٧٦ هـ ، فهو من كبار المهندسين في العصر البويهى .

وكتاب د الامتاع ، يحتوى أعظم الوثائق الأدبية والفكرية ، التى
تمنح عنها القرن الرابع الهجرى العظيم ، قرن الثغافات الرفيعة والأدب
المزدهر ، والفلسفة الذائعة .

والكتاب أحد كتب التوحيدى الرائعة التى نعرف منها : الاشارات

الإلهية الهوامل والشوامل الذى حققه أحمد أمين صفر : والمقاسبات ،
والصدقة والصديق ، والدخائر والبصائر .

فى كل ليلة من ليالى « الامتناع والموانسة » الأربعين ، يجرى الحوار
والسمر حول موضوع محدد ، يعينه ابن سعدان الوزير ، وإن كان عقل
التوحيدى الواسع الثقافة ، المحيط بجوانب شتى من المعرفة ، كثيراً ما يسلك
سبيل الاستطراد فينتقل من طرفة إلى طرفة ، ومن فكرة إلى فكرة ،
ومن شىء إلى آخر شبيه به ، حتى ليتناول موضوعات عدة ، ويختم الليلة
طالباً بملحة وداع ، أى بطرفة يختم بها الألفية الأدبية .

« الامتناع والموانسة » ، هو خلاصة رائعة لمشكلات الفكر والثقافة
والأدب فى القرن الرابع الهجرى ، وهو زاد رفيع من المعرفة ، وكما يجلس
فى عصرنا الراهن فى أنديةنا الأدبية لتتحدث وتناقش وتتناول فى مختلف
مسائل الثقافة ، كان أبو حيان التوحيدى الجاحظ الثانى ، بأسلوبه البليغ ،
وبيانه الرفيع ، وكلامه العذب ، يجلس فى مجلس هذا الوزير البوسهى الكبير ،
ليحدث فى مختلف مسائل العلوم والمعرفة والفلسفة ، حديث الإنسان المثقف
الداهية ، البليغ الأريب ، فيملك الاسماع ، واستولى على الآليات ، ويسير
الدهشة من كل مكان ، ويتصل الحوار بينه وبين أعلام عصره فى ندوة
الوزير ، ويخرج كل لرايه ، وتكون نتيجة ذلك كله ثراء ما بعده من ثراء
لفكر والعقل وللإنسان .

فى مقدمة الكتاب يذكر أبو حيان مدى اعتزازه بصديقه أنى الوفاء
المهندس ، واستجابته لطلبه فى تأليف الكتاب ، ويمزج ذلك كله بالشكوى
من الزمان .

وفى الليلة الأولى يصف مجلس الوزير ابن سعدان ، ويتحدث عن لذة
الحديث ، وعن الاشتقاق اللغوى للكلمة ، ثم يذكر ملحة الوداع ، وهى
نادرة لمحة

وفي الليلة الثانية يذكر أبا سليمان المنطقي ، ورأيه كذلك في علماء عصره ، من مثلي ابن زردة، وابن الحار، وابن السمع ، وأبي بكر القومسي ومسكويه ، وعيسى بن علي ، ويحيى بن عدي ، وقد نحدث أبو حيان عن هذه الأعلام ورأيه فيهم ، ورأيهم في النفس .

والليلة الثالثة في أصدقاء السوء ، والرابعة حديث عن صاحب بن عباد الوزير (٢٨٥ هـ : ٩٩٨ م) مع الاستطراد إلى كثير من الأعلام وكلبات مأثورة لهم ، وآراء مروية عنهم .

وفي الليلة الخامسة يتصل الحديث بابن عباد أيضاً ، وبمكاتبه المشهور أبي إسحاق الصابي .

وفي الليلة السادسة يتحدث التوحيدى عن أمم العالم القديم في عصره ، وما امتازت به كل أمة من هذه الأمم .

وفي الليلة السابعة يدور السمر حول موازنة بين على الحساب والبلاغة .

وفي الليلة الثامنة تضمنت ذكر المناقشة الفكرية بين السيرافي ومتي بن يونس حول أهمية المنطق اليوناني في الكلام ، ومقدار أهميته بالنسبة للنحو العربي ، وأيهما أولى بالعناية .

ويصف التوحيدى أبا سعيد السيرافي وصفاً شائقاً .

والليلة التاسعة عن أنواع الحيوان وخصائصها ، وكذلك دارت الليلة العاشرة والحادية عشرة . وسقطت الليلة الثانية عشرة من الكتاب .

أما الليلة الثالثة عشرة فيدور الحوار والسمر فيها حول النفس ، وفي الليلة الرابعة عشرة حوار حول أسكينة أي الطمأنينة وضروبها ، وحول خصائص الأمم وصفها كذلك .

والليلة الخامسة عشرة حوار كلاي عن الواجب والممكن والسادسة عشرة حول الجبر والقدر . وهي نهاية الجزء الأول من « الامتناع والمؤانسة » .

والجزء الثاني من الكتاب يبتدى باليلة السابعة عشرة ، ويدور الحديث فيها في جملته حول إخوان الصفا ، من هم ؟ وما فلسفتهم .

واليلة الثامنة عشرة سمر وماجن . والتاسعة عشرة قراءات لكلمات فلسفية .

واليلة العشرون حول الحديث النبوي ، والحادية والعشرون حول الفناء والموسيقى والثانية والعشرون حول الجزئ والكلّي وهما من الفلسفة ، ثم حول الواحد والكثير .

واليلة الثالثة والعشرون مأثورات نبوية شريفة .

والرابعة والعشرون تعود إلى الحيران والنبات .

والخامسة والعشرون موازنات بين النظم والنثر ، ومنزلة الشعر بين فنون الأدب .

والسادسة والعشرون تدور حول الأمثال . والسابعة والعشرون قصص وفكاهات والثامنة والعشرون حول الفنانين وفنهم ، والتاسعة والعشرون والثلاثون وبعض الليلة الحادية والثلاثين حول مسائل لغوية وغيرها . وينتهي بها الجزء الثاني من كتاب « الإمتناع والمؤانسة » .

ويبدأ الجزء الثالث ببقية الليلة الحادية والثلاثين وفيها يترامى الحديث إلى المطعميين والطاعمين ، حيث يدور الحديث حول ذلك في بقية هذه الليلة وفي ليلتين آخرين ، هما الليلة الثانية والثلاثون ، واليلة الثالثة والثلاثون .

أما الليلة الرابعة والثلاثون فتدور حول سياسة الشعب وواجب الحاكم والمحكوم وهي ليلة حاقلة بالجد والعبرة والعظمة .

وفي الليلة الخامسة والثلاثين يدور الحوار حول الجبر والاختيار ،
والحب والشهوة ، والنفس والروح ، وغير ذلك من أمور فلسفية عميقة .

وفي الليلة السادسة والثلاثين ينتقل السمر إلى اللغة ، من حيث ينتقل
في الليلة التي بعدما إلى الأخلاق ، وفي الليالي الثلاث الأخيرة الثامنة
والثلاثين ، والتاسعة والثلاثين والأربعين ، يتصل السمر بالفكاهة والجد
ونوادير الذكاء . (وينتهي بذلك الكتاب)

ابن مكسويه

- ١ -

نحن مع حضارة العقل العربي المبدع في القرن الرابع والخامس وهما قمة
عصور الابتكار والتجديد في التراث العربي .

مع عالم كبير هو الإمام ابن مسكويه أحمد بن محمد د ٣٣٠ - ١٥٤٢
٩٤٢ - ١٠٣٠ ، الفارسي الأصل ، العربي النشأة والثقافة واللغة ، من أئمة
الإسلام ، وأعلامه الخالدين ، حيث عاش في القرن الرابع وأوائل القرن
الخامس الهجري ، وكان ميلاده بالري ، ووفاته في بغداد دار السلام ، وعاصمة
الإسلام الكبرى .

وقد درس على المنهج الدراسي القديم المؤلف في عصره في المدارس
العربية . فدرس اللغة والنحو والصرف والشعر والخبار والفلسفة والطب
وعلم العدد - الحساب - وشارك في علوم كثيرة ، حتى ذاع فضله ، وانتشر
صيته في كل مكان ، وقربه إليه عضد الدولة البويهى ، فعينه خازنا لدار
الحكمة ، فصار أثراً عنده ، مقرباً لديه ، ونشر عليه وفضله في أفاق ملكه .

عاش ابن مسكويه في العصر البويهى ، الذى ازدهرت فيه الثقافة والمعرفة
فكان أحد الذين جمعوا بين ثقافات الإسلام وثقافات الاغريق ، والموا
الماما واسعا بطرف من حكمة البوزان والروم والهند والفرس ، إلى حكمة
العرب وتجاربهم ، وكان اتصاله بالوزير المهملى المتوفى عام ٢٥٢ هـ - ٩٦٢ م ،
ثم بابن العميد الوزير د المتوفى عام ٣٦٠ هـ : ٩٧١ م ، ثم بابنه أب الفتح
د المتوفى عام ٣٦٦ هـ : ٩٧٧ م ، ثم بعضد الدولة بن بويه بعد ذلك ، من
الاسباب التى أتمت تجاربه وحكمته ، وساعدته على الاتصال بكل جوانب
الثقافة العربية والمترجمة ، خاصة أنه عاش في عصر انقسام الخلافة العباسية
إلى دويلات ، وظهور القوميات المستقلة ، وأنه كذلك قد عمر طويلا ،
حتى اتسعت خبرته بالحياة ، وزادت معارفه في شتى جوانب الثقافة .. وبخاصة

الفلسفة . وكانت الفلسفة العربية الإسلامية قد نمت وتعددت مذاهبها ، وازدهرت حلقاتها العلمية وتوالى جيل الفلاسفة المسلمين ، جيلا أثر جيل ، وإذا كان من أئمتها أبو إسحاق الكندي - ٢٥٢ هـ : ٨٦٦ م ، في القرن الثالث ، فقد نبغ فيها في القرن الرابع : المعلم الثاني الفارابي - ٢٣٩ هـ ، وابن سينا - ٤٢٨ هـ : ١٠٤٧ م ، وابن مسكويه وجماعة إخوان الصفا ، وسوام من أعلام الفكر العربي ، وقرأ ابن مسكويه للسائقين والأقدمين ، واطلع على أصول الفلسفة الأغريقية ، إلى ثقافته الإسلامية الرفيعة ، حتى صار يشار إليه بالبنان بين الفلاسفة والحكماء .

ومن مؤلفاته الفلسفية كتابه المشهور : تهذيب الاخلاق ، وكتبه : ترتيب السعادات والفوز الأكبر ، والفوز الأصغر . وأنف في الطب ، وله في التاريخ كتاب قيم هو : تجارب الأمم .

وهكذا كان موسوعة في كل فن ، ومرجعا في كل علم ، وأستاذا كبيرا ، تلتذ عليه ، وتخرج به أعلام الفكر الإسلامي في القرن الخامس الهجري وما بعده من قرون وأجيال .

وكتاب « تهذيب الاخلاق » ، لابن مسكويه يعد أصلا فريدا من أصول الثقافة الإسلامية ، وقد كتبه للعلماء ومحبي الفلسفة ، ليعالج به مشكلات الحياة والسلوك ، وليصل - كما كان يحلم - بالمطلع عليه إلى السعادة المنشودة ، وقد تأثر في منهجه فيه بالمعلم الأول « رسطو » في كتابه « الاخلاق » .

وكان لابن مسكويه من التجارب الكثيرة في الحياة ما يدفعه إلى الكتابة في الاخلاق ، ليرشد الناس للفضيلة والسعادة والطرق التي تؤدي إليهما . ويتضح هذا من عهده الذي كتبه لنفسه وهو سطور في كتاب « المقاييس » للتوحيد - ٤١٣ : ١٠٢٢ م .

وقبل أن نتعرف إلى فلسفة الأخلاق عند ابن مسكويه يصح لنا أن نتساءل : ماهى الفلسفة ؟ وماهى الأخلاق ؟ وما الصلة بينهما ؟

والفلسفة هذه الكلمة العربية عن اليونانية مأخوذة من كلتى فيلوس بمعنى محبة ، وسوفيا بمعنى الحكمة ، فعنى الكلمة إذن محبة الحكمة ، ومعنى الفيلسوف هو محب الحكمة ، وكان فيثاغورث (٥٨٢ - ٤٩٧ ق م ، أول من سمي حب الحكمة باسم الفلسفة ، يقول يارتلمى ساقتهايو في مقدمة كتاب « الكون والفساد » لأرسطو ترجمة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد : أن فيثاغورث لما سأله ليون طاغية سيفونيا من عمله ، أجاب بأنه فيلسوف ، وهو اسم لم يسمع من قبل فى اللغة اليونانية ومعنى الفلسفة عامة قديما تأمل أسرار الكون الالهية الأبدية الخالدة ونواميسه الثابتة التى لا تتغير ، وكان الفلاسفة الاغريق أطليرس : وانكسمندر ، وانكسمينيس يسمون أنفسهم حكماء ، فانكر ذلك عليهم فيثاغورث ، ودفعه تواضع العلماء إلى إطلاق اسم فلاسفة عليهم وعلى نظرائهم وعلى الأراجح كان سبب ذلك هو إيمانه بأنه لا يصح أن تنسب الحكمة إلى غير الخالق الأبدى ، فالحكيم وحده عنده هو الله ، ومن ثم استبدل كلمة حكميم بكلمة فيلسوف ، أى محب للحكمة ، وقد تطور معنى الكلمة تطورا كبيرا على مختلف العصور

أما الأخلاق فهى كلمة جامعة تشمل الفضائل والمثل ، التى يمتنعها ويؤمن بها صفوة الناس وأخيارهم . التى دعا إليها الأنبياء والرسل من القديم ، وحضت عليها الكتب السماوية المقدسة ، واصطفاها المفكرون وسيلة إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وفلسفة الأخلاق هى الأصول الأخلاقية التى يشرعها الفكر للسلوك الانسانى ، مما يرجع الأسرفيه إلى فكر المفكرين والفلاسفة والحكماء . وذلك مما دعا إليه ابن مسكويه هذا الإمام الكبير ، والمرنى الروحى العظيم والاستاذ الرفيع المنزلة عند علماء عصره من مثل آرائه فى الفضيلة ، وفى نواميس الاجتماع وفى أسرار السعادة .

ومع أن شخصية ابن مسكويه شخصية فيلسوف مؤمن بنزعة الاختيار والتوفيق السائدة في كتاباته ، إلا أنه اجتماعي يرى لعوامل كثيرة أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده ، وعلى كذلك لا يكتب في الاخلاق ليسجل آراءه فحسب ، بل يكتب وهدفه الوصول عمليا لتعود الاخلاق الفاضلة ، والتخلق بها ..

وإذا كان سبينوزا ١٦٢٢ - ١٦٧٧ م ، في كتابه « علم الاخلاق » قد عد الفكر والارادة صفتين جوهريتين لذات الله ، ونظر كذلك إلى الحرية على أنها عين ذات الله أو عين فعالته اللامتناهية في نفوذها إلى كل صور الوجود الممكنة حتى تبلغ ذروة اللامتناهي وفق لقوانين ضرورية ، وجعل لنفس الانسانية هيئة لصفة الفكر الالهي .. فانه نظر إلى المعرفة الناتجة عن طريق الحواس على أنها معرفة ظنية ، أما المعرفة المحصلة بالعقل فهي عنده فهي معرفة يقينية ، فقد سبقه إلى ذلك ابن مسكويه في كتابه وينتهي سبينوزا مذهب الاخلاق إلى نهاية « شرقة » أخص خصائصها هذه الصفة الروحية التي تألفت بها جوانب عقله وقلبه وروحه .. وذلك هو ما سجله ابن مسكويه في كتابه .

وإذا عدنا إلى كتاب « مبادئ الاخلاق » لجورج مور ١٨٧٣ - ١٩٥٨ م ، وجدنا عنده ومضات كثيرة من فيلسوفنا ابن مسكويه وبعد كتاب « مبادئ الاخلاق » أول تطبيق عملي للمنهج التحليلي على مشكلات الاخلاق في الفلسفة المعاصرة ، وبحوثه عن الخير والسعادة وغيرها تجد جذورها عند ابن مسكويه في كتابه الذي جعله ست مقالات متميزة .

ويرى ابن مسكويه أن للنفس ثلاث قوى ، كل واحدة منها قد يسوء أو يحسن استعمالها لظروف وأسباب متباينة ، فقد تمنح نحو الافراط ، أو تهبط نحو اليقريط فيكون ذلك ثرا ورذيلة . وقد تكون وسطاً معتدلة ، لا إلى هذا ولا إلى ذلك ، فيكون هذا خيرا وفضيلة .

وإذن فالنفس عنده لها ثلاث فضائل رئيسية بعدد هذه القوى ، وتنظم كل فضيلة منها فضائل جزئية تعود إليها ، وبانسجام هذه الفضائل فيما بينها تكون فضيلة أخرى ، هي كال الفضائل الثلاث السابقة ، لذلك أجمع الحكماء على أن أصول الفضائل هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة . كما قرر ذلك ابن مسكويه في « تهذيب الاخلاق » .

على أن عالمنا الكبير ، قد تأثر في هذه النظرية بنظرية الاوساط المعروفة التي شرحه أرسطو ثم الفارابي من بعده شرحا طويلا .

ورأى أبو علي بن مسكويه أن النفس فضيلة أخرى أخرى هي أشبه بها ، وهي التشوف للعلم والمعرفة . والفضيلة عنده هي المعرفة كما ذهب إليه سقراط ، والارذيلة هي الجهل . وقد ترك مذهب أفلاطون وأرسطو في ذلك ويوضح ابن مسكويه رأيه في ذلك فيقول : « إن من الناس من لا يدري كيف يحسن إلى نفسه ، التي هي محبوسة فبقع في ضروب من الخلل ، لعله بالخير الحقيقي . أما من عرف لنفسه كرامتها ، واختار لها الخير الحقيقي الذي هو الأعلى . فهو لا محالة يفعل سائر الخيرات » .

والسعادة عنده ابن مسكويه هي الخير التام في نفسه ، وهو متأثر في نظريته هذه بأراء فلاسفة الاغريق . على أن السعادة عنده ليست في المتع الحسية ، التي لا يطلبها إلا الرعاع العامة وطلاب التجارة والكسب حتى في العبادات

بل إن السعادة عنده هي في أمر واحد هو هو الحكمة التي يستحق من يحوزها أن يسمى حكيما وفيلسوبا ، وأن ينال بذلك السعادة الكاملة المنشودة .

ومع ذلك كله فقد كان ابن مسكويه اجتماعيا ، عرف لجسمه حقه ، ولنفسه حقه ، ولجتمعه حقه .

فدعا الانسان إلى أن ينبل جسمه مابه حياته ، وما يتفق مع المروءة ،
وأن يكمل نفسه العاقله بالفضائل الخلقية ، وبالفضيلة الفلسفية .

والانسان عنده مدنى بالطبع . وقد نظر أبو على إلى الذين يعيشون عالة
على الناس نظرة سخرية واستخفاف .

وهكذا كان ابن مسكويه عملياً فى فلسفته الاخلاقية ، فى كتابه المأثور
« تهذيب الاخلاق » يبحث فى الفضيلة ويبينها ، وفى السعادة ويحددها . ثم
يتبع هذا وذلك يرسم المنهج الذى يودى إلى الظفر بهما .

ولم يكن هذا الامام الكبير متعصبا لرأى ، ولا منحازا مع عصبية ،
فقد أخذ أصول مذهبه الخلقى من الاسلام الكريم ومع ذلك استفاد الكثير
من الثقافتين الفارسية والاغريقية

لقد مضى على وفاة ابن مسكويه تسعة قرون ونصف ميلادية ، مع ذلك
فلا تزال آراؤه فى الفضيلة والخير والسعادة وحرية الارادة وفى المسؤولية
الارادية وغيرها ، جديدة .

وياليت تراث هذا الامام الكبير يجد من يعنى به تحة يقا ودراسه وبحثا
ويجد من ينشره فى طبعات جميلة تقربه إلى أذهان شباب هذا الجيل .

وكتابه « تجارب الامم » مع أمتع الكتب التاريخية ، التى تجعل من
فيلسوفنا مؤرخا كبيرا فى عصر جيل الأئمة الكبار من أعلام القرنين الرابع
والخامس .

رحم الله ابن مسكويه ، فقد أسدى إلى الفكر العربى الكثير من الأيادى
البیض وترك لشباب العرب تراثا خالدا ، يهتدون به فى كل مشكلات حياتنا
الفكرية والاجتماعية والسلوكية ، وفى كل جوانب تربية النفس الانسانية ،

وحضها على السلوك الانساني الرفيع ، المقترن بالحب والطهارة والطموح
والارتقاء في مدارج الفضائل إلى أعلى عليين :

وأسلوب ابن مسكويه أسلوب أديب بائع متمكن من الأدب ، ملم بثقافات
العربية ، صاحب ذوق رفيع ، وموهبة عالية ، وفنارة مطبوعة على الفصاحة
والبلاغة :

ولأديب أنه كان إلى عقله يملك ذوقاً رفيعاً عالياً في صناعة الأدب :
وكان أسلوبه أقرب إلى أساليب الأدباء ، وأكثر صلة بذوق الأديب .

أبو دلف ، لهم البديع الحمداني بالمقامات

- ١ -

نحن أمام علم من الأعلام الكبيرة في تاريخ الحضارة الإسلامية : شاعر كبير عاش في عصر المتنبي والشريف الرضي وعلم رفيع من أعلام الأدب الساساني وأديب عبقري تتلذذ عليه أمثال بديع الزمان الحمداني ورحالة جاب الأقطار والأمصار ، وجغرافي ترك أجل الآثار الجغرافية ، وجيولوجي له للمام واسع بالخفريات الجيولوجية وعالم من علماء الآثار وقف عليها ، وتتبع أشهر مواطنها في آسيا ، وطبيب كما وصفه معاصره الشاعر السلافي في شعره ، وهو مع ذلك مجهول لا يعرفه أحد من أبناء العربية ، بينما حفلت دوائر الاستشراق بداسة رحلاته الجغرافية ، والافادة منها في بحوثهم وكشفهم ، ذلكم هو أبو دلف الخزرجي الينبوعي (٩١٣ - ١٠٠١ م : ٣٠٠ - ٣٩١ هـ)

- ٢ -

ولقد اتسع نطاق الرحلات عند المسلمين اتساعاً كبيراً بتأثير الحج والتجارة والرغبة في نشر الإسلام . ولطلب العلم واطقاء العلماء ، ولاقتناء الكنوز العلمية والاقتصادية ، ولإفهام بعض المهام السياسية ، حيث كان ملوك وأمرأء المسلمين يوفدون الرسل والشعراء إلى مختلف أنحاء العالم :

ومنذ خلافة أبي بكر الصديق ، نجد : عبادة بن الصامت ، وهشام بن العاص ، ونعيم بن عبد الله ، يذهبون إلى القسطنطينية في رسالة من الخليفة أبي بكر إلى ملك الروم يدعو فيه إلى الإسلام ، ويقول عبادة بن الصامت : وأقبلنا حتى أنحنأ تحت غرفة هرقل ، فقلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، والله يعلم لقد أتت فضت الغرفة حتى كأنها عذق سمعة ضربها الريح : ولما لقوا

قيصر سألهم : ما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا إله إلا الله والله أكبر فانه يعلم أنه انتفض سقفه حتى ظن هو وأصحابه أنه سيسقط عليهم . ثم دعاهم قيصر ليلا وعرض عليهم صندوقا فيه صور الأنبياء من آدم إلى محمد عليه السلام (١) .

واستمرت الرحلات السياسية خلال العصور ، فتجد عمادة بن حمزة يحمل رسالة من المنصور إلى ملك الروم (٢) .

ومن الرحلات المشهورة رحلة سلام الترخمان إلى سور الصين للشياي بأمر الخليفة العباسي الواثق لله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ : ٨٤٢ - ٨٤٧ م) .

ثم رحلة سليمان السيرافي ، وقد زار الهند والصين مراراً ، وكتب وصف رحلاته عام ٢٢٧ هـ - ٨٥١ م ، ولهذا الوصف ذيل ألفه في القرن الرابع الهجري مؤلف رحالة من سيراف اسمه أبوزيد حسن . وقد نشر هذه الرحلة المستشرق رينر عام ١٨٤٥ م ، وسليمان السيرافي أول رحالة مسلم يشير إلى الشاي الذي يشربه الصينيون كثيراً ويسمونه « ساج » .

وقد قام بعده ابن وهب القرشي برحلة إلى الصين نحو عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م .

وفي كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة أن بعض التجار المسلمين وصلوا إلى كوريا .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري نجد أحمد بن فضلان يقوم عام ٣٥٩ هـ / ٩٢١ م برحلة إلى بلاد البلغار ، وهم الشعب الذي أسس في بداية العصور

(١) راجع ص ١٤١ - ١٤٢ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه .

(٢) راجع ١٢٧ و ١٢٨ المرجع السابق .

الوسطى دولتين : أقدمها في حوض الفولجا الوسطى (وهو نهر أتل كما تسميه المصادر الإسلامية) أما الأخرى ففي حوض نهر الطونة .

وقد زار ابن فضلان الأولى (١) على نهر الفولجا . ويذكر ابن رسته في كتابه « الأعلاق النفيسة » الذي ألفه نحو عام ٩٢١هـ / ٩٠٣ م أن أكثر هؤلاء هؤلاء البلغار كانوا ينتحلون الإسلام ، بينما تذكر رحلة ابن فضلان أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا قبيل الرحلة بأعوام .

وقد ذهب ابن فضلان مع وفد بعث به الخليفة المقتدر بالله العباسي عام ٩٣٠هـ إلى ملك البلغار لتعليم شعبه شعائر الإسلام .

وقد خرج الوفد من بغداد في الحادى عشر من صفر عام ٩٣٠هـ / الحادى والعشرين من يونيو عام ٩٢١ م ، وساروا إلى بخارى بخوارزم فبلاد البلغار ، فوصلوها في الثانى عشر من المحرم عام ٩٣٠هـ / الثانى عشر من مايو عام ٩٢٢ م .

وقد أدت هذه البعثة مهمتها ، ولما عادوا إلى بغداد ، كتب ابن فضلان رحلته التى تعرف برحلة ابن فضلان . ويبدو أن ما كتبه هو الذى تقدمه إلى الخليفة العباسى المقتدر بالله .

وقد نقل باقوت الحموى جزءاً من رحلته في مادة : أتل ، وبلغار ، وخرز ، وخوارزم .

ونشرت الرحلة في روسيا عام ١٨٢٣ م ، وأعاد منها بروتولد الروسى

(١) تطلق كلمة بلغار على الشعب ، وعلى البلاد ، وعلى عاصمتها التى كانت تقع شرق نهر الفولجا ولا يزال بعض آثارها قائمة على مقربة من مدينة قازان الحالية على نحو ستة كيلو مترات من شاطئ الفولجا الأيسر .

في الدراسة التي كتبها عن البلغار في دائرة المعارف الاسلامية ، ثم عبد الوهاب عزام في دراستين له عن البلغار المسلمين .

وفي عام ١٩٢٤ عثر العالم التركي أحمد زكي الوائلي في مشهد على مخطوطة نفيسة احتوت على أربعة كتب ، منها رحلة أني دلف ، ورحلة ابن فضلان .

وهذه الرحلة تعد أقدم وصف كتب لجزء من بلاد روسيا ، ولا يعرف رحالة سبق ابن فضلان إليها . ويصف في رحلته حفل دفن زعيم روسي ، وقد رسم أحد الرسامين الروس منذ مائة عام هذا المنظر اعتماداً على وصف ابن فضلان وذين بهذا الرسم أحد جدران المتحف التاريخي في موسكو .

ومن زار بلاد البلغار بعد ابن فضلان : أبو حامد الغرناطي الأندلسي صاحب كتاب وتحفة الألباب ونخبة الإيجاب ، عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م .

وقد تحدث المسعودي (ت ٢٤٦هـ - ٩٥٧) في الجزء الأول من كتابه مروج الذهب ، عن البلغار . . وقد سقطت مملكة البلغار نهائياً عام ١٢٢٦م ، وخرب الروس بلادهم عام ١٣٩٩م كما تذكر دائرة المعارف الإسلامية (١ / ٩٩) .

ومن نتائج هذه الرحلات التي قام بها الرحالة المسلمون على مختلف الأجيال معرفتهم من الصيغين الأبرة المغناطيسية ، وقد أخذ العرب عن المسلمين في الحرب الصليبية الثانية .

ومن نتائجها تدوينهم لكثير من المعارف الغنية في تاريخ هذه البلاد وجغرافيتها القديمة التي لم يسكتب عنها أحد قبل الرحالة المسلمين ، ولا كتب

عنها بعدم أحد من الأوربيين إلا بعد أجيال طوال (١) .

(١) راجع : تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشوفسكى ، الرحالة العرب لنقولا زيادة ، والرحالة المسلمون لركى محمد حسن ، والرحلات لشوقي ضيف من سلسلات دار المعارف المصرية عن فنون الأدب العربي ، تاريخ التمدن الإسلامى لزبدان ، وتاريخ الحضارة الإسلامية ابارتولد ، وحديث السندباد القديم لحسين فوزى ، والجغرافيا والرحلات عند العرب لنقولا زيادة ، ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة رحلات ، رحلة ابن فضلان بتحقيق الدكتور سامى الدهان (المتوفى فى أغسطس ١٩٧١) وهى من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق .

ويحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام .

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين في القرن الرابع الهجري ، وقد جهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته وأوصافه للبلاد التي رحل إليها وطاف بها .. وقد حفظ لنا ابن النديم في كتابه « الفهرست » ، وماقوت في « عجائب المخلوقات » ، و « آثار البلاد » ، مقتطفات كبيرة من وصف أبي دلف للبلاد التي جابها ، والأسفار التي قام بها رحالتنا العالمي المسلم أبو دلف في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، في أنحاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك . الهند والصين ، وآسيا الوسطى ، وهي الأسفار والرحلات التي طار ذكرها ، وشهر أمرها بين الناس في عصر أبي دلف وبعد عصره حتى اليوم ، والتي نال أبو دلف بها في حياته مجدا كبيرا ، قاده إلى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعد وفاته مجدا نليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات ، وما حفمت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه في دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية .

يصفه ابن النديم (١) بالجواله ، ويذكر القزويني أنه كان جواله مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها (٢) ، وأنه كان سياحا زار البلاد ، وأخبر بعجائبها (٣) .

(١) ١ / ٢٤٦ الفهرست .

(٢) ٢ / ٢٦٧ آثار البلاد .

(٣) ٩٧ عجائب المخلوقات .

ويذكر كذلك القزويني بلادهم وعجائبها وهي من بلاد الترك، ثم يقول.
أخبر بهذه كلها، أعنى بلاد الترك وقبائلها، مسعر، فإنه كان سياحة رآها
كلها (١).

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد له الباحثون من
المستشرقين بالدقة والصدق والواقع، وإن كان ياقوت الحموي يقول عنه :
إنه كان يحكي عنه الكذب (٢)، ويعنى بذلك أن رحلاته كان بعضها من
نسج الخيال، وقد تسكفل لنا بالرد على هذا الاتهام كراشوفسكى وسواه من
المستشرقين.

ولقد كان أبو دلف أحد الباحثين المعدودين الذين مكنتهم وحدة الحضارة
الإسلامية في القرن الرابع الهجري من القيام برحلات خطيرة، على جانب
كبير من الأهمية.

فع أن العالم الإسلامي في عصر أبي دلف، وهو القرن الرابع الهجري،
كان مقسماً إلى دول كثيرة، استقلت عن خلافة بغداد، وتركت التبعية
السياسية للخلفاء العباسيين، إلا أنه كان موحد العقيدة واللغة والثقافة
والحضارة، خاضعاً للتأثير الإسلامي وحده، ومن ثم كان في إمكان أبي دلف
أن يجوب البلاد، وأن يسير في الممالك الإسلامية، للبحث والكشف
والتنقيب، لا يحده حد، ولا يغله قيد، ولا يحول بينه وبين نهمة العلى
حائل.

وقد ألف أبو دلف «الرسالة الأولى»، وتحتوى على رحلته عبر

(١) ٥٨٩ المرجع السابق.

(٢) ٣٢٦/٥ معجم البلدان لياقوت.

الصين والهند التي قام بها عام ١٨٣١ م ، وقد قام المستشرق الألماني دور صوير عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبدو أن أبا دلف جمع مادتها من الذاكرة بعد قيامه برحلته هذه بمدة تطول أو تقصر ، وتتضمن الرسالة إلى جانب صدقها الكثير من المعلومات التقريبية والخيالية عن هذه البلاد الواسعة ، التي ساح فيها .

وفي مقدمة هذه الرسالة يقول أبو دلف : (١) .

«إني لما رأيتكما يا سيدي ، أطال الله بقاءكما ، لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، أحببت أن لا أخلي دستوركما ، وقانوني حكمتكما ، من قائدة وقعت إلى مشاهدتها ، وأعجوبة رمت في الأيام إليها . ليروق معنى ما تعلمانه السمع ، ويصبر إلى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج ينبتا من الإغاء ، وتؤكد من المودة والصفاء » .

والظاهر — كما أرجح — أنه يخاطب أحد الملوك السامانيين أو صاحب ابن عباد ، وأنه حين كتب هذه الرسالة أهدى منها نسخة إلى هذا ، وأخرى إلى ذاك ، وهذا يدل على أنه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة .

وقد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها إلى الألمانية ، وشاركه في ذلك المستشرق فراين في « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية » التي نشرها عن الشرق الأقصى .

وألقي المستشرق الروسي غريغوريف عام ١٨٧٦ بحثاً عنها في المؤتمر

علاوة على ذلك عشر للمستشرقين المذكورين في بطرسبرج .

ودرسها روزن ، وماركفادت (١٩٠٣) ، ووضع خط رحلة أبي دلف إلى الصين .

وكذلك فعل بارتولد ، ومينورسكي (١٩٦٧) الذي قال عنها : إن في الرحلة سلسلة من الوقائع بعضها حقيقي ، وبعضها من نسج الخيال ، وفي وصف أبي دلف لرحلته - كما يقول مينورسكي - خلط وعقيد شديدان ، وإن كان يعد خلاصة للمألف الجغرافية آنذاك عن الصين والهند . ويشكك أخيراً هذا المستشرق في حدوث رحلات أبي دلف .

ويرد عليه كراتشوفسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، (١) مؤكداً أن رحلة أبي دلف إلى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها ، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم في كتابه « الفهرست » عن أبي دلف (٢) . بل إن الرجل لم يترك أدنى شك لدى خير بالموضوع مثل فيران (١٩١٣)

ويؤكد دور صوبر (١٩٢٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، إذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بها وجدت دلائل على صحتها في سفارات متأخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات أبي دلف في محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية ، وفي وصفه لمشاهده عامة .

وفي هذه الرحلة يذكر أبو دلف الآراء الصينية وأنها كانت معضلة في الأسواق ، وأن الخزف الصيني كان يقلد في بعض البلدان ، ولا سيما في ملبار وإيران .

(١) ص ١٨٩ من الكتاب .

(٢) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست ، ٢٥٠ و ٣٥١ الفهرست أيضاً .

وفيا بين عام ٢٣١ - ٢٤١ هـ : ٩٤٢ - ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من صاحب الوزير على ما أظن وكما أشار إلى ذلك الثعالبي في « البقيعة » أماكن مختلفة في إيران وآسيا الوسطى في حامية الوالى على سيستان من قبل أبي محمد بن أحمد (٢٣١ - ٣٥٢ : ٩٤٢ - ٩٦٣ م) وألف أبو دلف في وصف هذه الرحلة ومشاهده فيها عبر أرمينية وأذربيجان وإيران رسالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقول في مقدمتها على طريقته نفسها في مقدمة الرسالة الأولى :

« جردت لكما ، يامن أنا عبدك ، أدام الله لكما العز والتأييد ، والقدرة والتمكين ، جملة من سفرى من بخارى إلى الصين ، ورجوعى منها على الهند ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلداتها ، وسلكته من قبائلها ، ورأيت الآن تجريد رسالة ثانية ، تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته . لينتفع به المعبرون ، ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة ، ويشقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض » (١) .

واللذان يوجه هنا أبو دلف إليهما هذه الرسالة هما اللذان وجه إليهما الرسالة الأولى ، كما يبدو من هذه المقدمة الموجزة الصغيرة .

ولهذه الرسالة الثانية في وصف رحلته في أواسط آسيا أهمية كبيرة ، كما سندكر بعد .

وتبدأ وقائع هذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشيز » في جنوبى أذربيجان ، وتمتد لتشمل أماكن كثيرة في خراسان وإيران

(١) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة نشر عالم الكتب - مطبعة مخيمر وقد وردت كلمة ثانية ، في الرسالة (ص ٢٩) محرفة إلى كلمة « شافية » ، وهو خطأ .

والقوقاز وأرمينية ، . ومن هنا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام ، والتاريخ الجغرافى والجىولوجى والأثرى لهذه البلاد ، وهى إلى جانب ذلك تحتوى على كثير من الأشياء الطريفة ، والمشاهدات العجيبة ، والنزادد الغريبة ، وبعضها مما يحير العقول (١) .

وتتميز هذه الرسالة بتركيز شديد ، ودقة متناهية ، وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسيا الوسطى . وتحتوى على معلومات جلية متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو ، وبالمعادن المفيدة فى أرمينية ، وأبو دلف أحد الرحالة الأوائل الذين تحدثوا عن استخراج النفط فى باكو ، وما أروع ما كتبه عن معدنيات وطواحين تفليس (٢) ، ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافى جيولوجى ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجد فيها المعادن ، وأما كن أخرى فيها آثار للفرس أو للسامانيين .

ولقد حقق مينورسكى هذه الرسالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ م فى ٣١ صفحة النص العربى - ١٣٦ صفحة الترجمة الانجليزية والدراسة .

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغار كوف عام ١٩٦٦ م .

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦ م .

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينة مشهد الإيرانية على مخطوطة تشمل على أربع رسائل :

١ - رسالة أبى دلف .

(١) ص ٣ مقدمة الرسالة الثانية .

(٢) ص ٢٢ مقدمة الرسالة الثانية .

٢ - رساله ابن فضلان .

٣ - رسالة في أخبار البلدان لابن الفقيه .

٤ - رسالة أخرى .

وأصبح لهذه المخطوطة أهمية كبيرة في تراث أبي داف ، وفي تاريخ البحث العلمي الجغرافي القديم .

ورسالة أبي دلف في مخطوطة مشمذ تشتمل على رسالتيه الأولى والثانية . وقد ذكرتا على أنهما كتاب واحد .

ويبدو أن هذا الكتاب كان قديما يسمى عجائب البلدان كما نقلنا عن عن القزويني وباقوت ، وذكرهما بهذا الاسم كذلك بروكلمان .

وأبو دلف في رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والآثار ، وطالما يقف أمام الأشياء موقف العالم المدقق الحكيم المجرب الذى يحاول فهم الأشياء والوصول إلى دخالها .

ومن أهمية البحث الجغرافي الذى قام به أبو دلف أنه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهرزور وتوجد الآن فى وادى ساركوتز فى الاتحاد السوفيتى .. ومن وصف أبى دلف لهذه المدينة : أمكن للعلماء الروس تحديددا واستخراج آثار تحت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية ومن مثل تحقيقه العلية ماذكره فى صعوده إلى قمة جبل دبناوند فى فارس ودخوله كهفا فى هذا الجبل ورصده لظاهرة وجود نار مشتعله فيه (١) .

ويذكر أبو دلف أنه سار فى مغارة خوارزم ، ورأى بها آثارا كثيرة

لجماعة من ملوك العرب والعجم ، ويتحدث عن انخساف بعض قراها
تحت الأرض بنحو مائة قامة .

ويشكك بعض الباحثين في وصول أبي دلف إلى خوارزم بدعوى أن
معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك .

وبعد فقد كان أبو دلف ابن ينج ، من أعظم الرحالة الجغرافيين
المسلمين ، الذين ظهرُوا في القرن الرابع الهجري . وقد نالت رسالاته أعظم
اهتمام في عالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية
والدراسة والبحث .

وعمل أبي دلف في ميدان الرحلة متعدد : فهو يظهر لنا في صورة الرحالة
الوصاف للجغرافية الاقليمية القديمة .

كما يظهر في صورة الجغرافي المتمكن ، والآثرى المنقب ، والجيولوجي
الدقيق العالم بطبقات الأرض وصخراتها ، يرفع من منزلته بين العلماء .

ويظهر لنا كذلك في صورة الطبيب الذي يعلم أماكن المصحات الطبيعية
التي تلائم طبيعة المرضى والتي تساعد على الشفاء .

ويصدق عليه ما قاله المسعودي عن نفسه : « قطعنا بلاد السند والزنج ،
فتارة بأفصى خراسان ، وتارة بأواسط أرمينية وأذربيجان » (١) .

(١) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودي (٣٤٦ هـ) .

وأبو دلف شاعر عربي كبير ، مجهول شأنه ، مغمود تاريخه ، لم يذكره إلا القلة من المؤلفين القدماء ، ونسبه المحدثون نسباً تاماً .

وهو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجري كله أو جلّه ، يحب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء ، تراءى مطوّفاً في كل مكان من بخارى إلى الصين والهند ، ومن فارس إلى أرمينية وأذربيجان وطبرستان . وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، في دقة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما أذهل المستشرقين ، فسكتبوا عنه جغرافياً من الطراز الأول ، ومن أشهر الرحالة في القرن الرابع .

وأبو دلف من هذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين ، الذين أتوا بعده ، ومن بينهم : ياقوت « معجم البلدان » ، والقزويني في كتابه : « عجائب المخلوقات » ، و « أنوار البلاد » .

والمصدر العربي القديم الذي ترجم لأبي دلف شاعراً ترجمة أدبية ، ليس فيها شيء من التفصيل عن حياته ، هو كتاب « يتيمة الدهر » لأبي منصور الثعالبي شيخ الأدباء في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، فقد ذكره الثعالبي في الباب السادس الذي خصه بالشعراء الطائيين من الأفاق على الوزير « صاحب بن عباد » ، وقال له عنه :

« أبو دلف الخزرجي اليبوعي ، مسعر بن مهلهل ، شاعر كثير الملح والطرف ، مشحوذ المدينة والكدية ، خفق التسعين في الإطراب والاعتراب وركوب الأسفار الصعاب في خدمة العلوم والآداب ، ويستمر الثعالبي في الحديث عن أبي دلف . فيقول : وكان يفتاب - يقصد - حضرة صاحب

بأصبهان ، ويكثر المقام عنده ، ويتزود كتبه — أى رسائله التى تتضمن التوصية — فى أسفاره .

ويشير الثعالبي إلى معركة الهجاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ - ٥٣٩٤) .

ويذكر شعراً لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة (١) .

وفى موضع آخر من البيمة يقول الثعالبي عنه : كان بحضرة صاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسمر بن مهمل اليلبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحمد السلامى على منزاته (٢) .

ويشير الثعالبي إلى أبى دلف فى بعض كتبه الأخرى إشارات عابرة ، مثل كتابه «لطائف المعارف» .

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : «عجائب المخلوقات» ، و «آثار البلاد» (٣) ، وهما للقزويني ، «معجم البلدان» ، لياقوت وكراتشوفسكى يذكر ٢٤ اقتباساً لا يذكر فيها لياقوت اسم أبى دلف .

(١) راجع ٣ ٢٥٢ وما بعدها بقيمة الدهر ، للثعالبي — بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

(٢) ٢ : ٤٠٠ بقيمة الدهر .

(٣) فى كتاب «آثار البلاد» ، يوجد ٢٤ اقتباساً من «الرسالة الثانية لأبى دلف» ، وإن كان لا يشير إلى أبى دلف إلا فى سبع منها وفى عجائب المخلوقات توجد كذلك إشارات كثيرة له ، وأربع اقتباسات دون إشارة إلى اسمه .

وفي دائرة المعارف الإسلامية في مادة «مسعر» ترجمة له تبين الكثير من دراسات المستشرقين عنه رحالة كبيراً ، وجغرافياً مشهوراً (١) .

وتجىء إشارات صغيرة عنه في كتاب «بلاد ينبع» ، للشيخ محمد الجاسر (٢) .

وفي كتاب الأعلام للزركلي ترجمة لأبي دلف في عدة سطور وبما جاء فيها عنه : «شاعر رحالة وكان يكتنى بالرحالة الحجازي» ، قام برحلة ممتعة إلى المشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده في تلك الديار في كتاب ضخيم ، ونقله المستشرقون عنه إلى مختلف اللغات الأوروبية ، تجاوز التسعين من عمره . توفي نحو عام ٢٩٠ هـ (٣) .

ويلاحظ الشيخ محمد الجاسر على هذه الترجمة أمرين :

الأول أن الزركلي نسبته إلى ينبع البحر ، وهو من ينبع النخل .

والثاني قوله : «في» كتاب ضخيم . . . ويقول العلامة الجاسر : إنه ليس مجلداً ضخماً بل رسالة ، وقد حققها المستشرق مينورسكي وطبعت في مصر سنة ١٩٥٥ في ٣١ صفحة النص العربي والترجمة الانجليزية والدراسة في ١٣٦ صفحة .

وكلام العلامة الجاسر صحيح في أنه ليس كتاباً ضخماً بل رسالة ،

(١) راجع الطبعة الانجليزية الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية . وقد ترجم النص الانجليزي لهذا البحث الأستاذ وديع فلسطين - الطابعة العربية لم تصل إلى هذه المادة .

(٢) ١١٧ و ١٤٥ بلاد ينبع .

(٣) ٨ : ١٠٩ الأعلام للزركلي .

وأما قوله : « إن الرسالة حقة المستشرق مينورسكي الخ » ، فذلك ليس
ليس عن رسالة أبي دلف في وصف رحلته إلى الشرق الأقصى ، وهي التي
تسمى بالرسالة الأولى ، بل عن رسالة أبي دلف في وصف رحلته في آسيا
الوسطى وهي التي تسمى الرسالة الثانية .

والرسالة الأولى لأبي دلف عنى بتحقيقها المستشرق الألماني
رود صوير .

أما الرسالة الثانية فعنى بتحقيقها المستشرقون الروس ، فدرسم المستشرق
كراتشوفسكي ، ومينورسكي ، وحققها مينورسكي ، ثم خالدوف
ويولغاكوف معاً في نصها العربي ، وهما مدرسان بجامعة ليننجراد .

وقد عاش أبو دلف في القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي . . وشاهد
كل أحداث هذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم
والآداب ، وبما ساد من تطورات فكرية وسياسية كبيرة ، كان في
مقدمتها انتهاء نفوذ الخلافة العباسية ، باستيلاء البويهيين على بغداد عام
٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة في أنحاء العالم الإسلامي الذي
كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة ، ومن هذه الدول :

- ١ - الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ - ٤٥٨ هـ) .
- ٢ - الدولة الفاطمية بمصر والشام أيضاً (٣٥٩ - ٥٦٧ هـ) .
- ٣ - الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ - ٣٩٤ هـ) .
- ٤ - السامانية في تركستان ، وعاصمتها بخاري (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) .
- ٥ - الزيارية في طبرستان ، ومن ملوكها الشاعر الأمير قابوس بن
وشمكير (٣٦٦ - ٤٣٠ هـ) .

٦ - الغزنوية في غزنة والهند ، ومن أشهر أمرائها السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) .

٧ - ودولة بجمستان ومن أشهر أمرائها خلف بن أحمد ، وهو من أحفاد الليث (١) بن الصفار ، وامتدت هذه الدولة حيث حكمت نحو الأربعين ومائة عام (٢٥٤ - ٣٩٠ هـ) .

٨ - الدولة العلوية في طبرستان ، ويذكر أبو دلف طائفة من ملوكها حتى عصره وقد حكمت ثلثي قرن (٢٥٠ - ٣١٦ هـ) .

(١) ٢ : ١٨٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه .

(٢) ٨٣ و ٨٤ الرسالة الثانية لأبي دلف - نشر عالم الكتب بالقاهرة .

أمرة أبي دلف :

(١) يعرف تاريخنا الأدبي علين ، كنية كل منهما هي أبو دلف :

أما الأول فهو القاسم بن عيسى العجلي الذي كنى بأبي دلف ، وهو عربي كريم ، وقائد عباسي مشهور ، كان مع الأمين على أخيه المأمون ، في صراع الأخوين على الخلافة ، فلما انتهى الخلاف بينهما بانتصار المأمون ، عفا عن أبي دلف ، فعاش في الكرج (= السرك) بفارس ، ومات في بغداد عام ٢٢٥هـ - ٨٤٠م ، وكان من أشهر شعرائه الذين مدحوه : علي بن جبلة (١٦٠ - ٢١٣هـ : ٧٧٦ - ٨٢٨م) ، وقد توارث أبناء أبي دلف بعده حكم منطقة الكرج : ويسمون الدلفيين . والكرج قرية من نهاوند بإيران ، ويقول عنها أبو دلف : إن فيها آثاراً لآل أبي دلف ، وأبنية حسنة جليلة تدل على ملكة عظيمة ، وهي الجادة - أي الحاضرة - بين الأهواز والرى وبين اصفهان وهمدان (١) .

وأما الثاني فهو صاحبنا أبو دلف الخزرجي الينبعي أو الينبوعي ، الذي نكتب عنه هذه الدراسة .

(ب) اسمه مسعر بن المهلهل .

ونسبته إلى الخزرج إحدى القبيلتين الكبيرتين في المدينة اللتين أطلق عليهما بعد الهجرة اسم « الأنصار » ، وهما الخزرج والأوس . وللخزرج في الإسلام وبالإسلام تاريخ كبير خالد ، ومن الخزرج بنو النجار أخوال

رسول الله لأن أم جده عبد المطلب « نجارية » .

أما الينبعي فهو نسبة إلى مدينة ينبع المشهورة في الحجاز ، ويوصف أبو داف أيضاً بالينبوعي ، وينبع وينبوع علم واحد لهذه البلدة المعروفة من بلاد الحجاز .

(ج) لا نعرف عن المهمل والدمسعر ولا عن قومه شيئاً ، فكل المعلومات المتعلقة بحياة أبي داف شحيحة ونادرة .. وقد عني المستشرقون بأعمال أبي داف الجغرافية وحدها ومن بينهم دور صوير ، ومينورسكي ، وكراتشوفسكي ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمي ، كشف ما غمض من حياة أبي داف نفسها .

أما أم أبي داف فنجد في رسالة لابن العميد (١) ، كتبها وعيدا وتهديداً لأبي داف ، ما يدل على أن صاحبنا ينتمي إلى ابنة محمد بن زكريا الذي كان يعاصر ابن العميد .

وقد أعياني البحث في المصادر القديمة عن شخصية محمد بن زكريا فلم أهدأ إلى أثره ، وقد استطع في المستقبل الاهتداء إلى ترجمة له تكشف عن شخصيته ، فأضيف إلى صورة أبي داف مزيداً من الوضوح والروية .

* * *

وأبو داف من ينبع « ويقال لها ينبوع أيضاً في لهجة ، وينبع موضعان : ينبع النخل ونبع البحر ، وبينهما نحو اثنين وخمسين كيلو متراً . ومن إضافة ينبع إلى المضاف إليه نعرف المراد منها ، أما عند إطلاقها من الإضافة . ففي

(١) سأذكر فقرات من هذه الرسالة عند الحديث عن صلة أبي داف بابن العميد - وراجعها في صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزراء لابن جيان التوحيدي .

القديم كانت تنصرف إلى ينبع النخل لشهرتها وقلة غناء ينبع البحر وفي العصر الحديث الأمر بالعكس فقد صارت ينبع البحر هي صاحبة الشهرة، فإذا أريد ينبع النخل قبل ينبع النخل دون إطلاق

وينبع النخل التي ينتمى إليها صاحبنا أبو دلف : هي ناحية واسعة فيها قرى وأودية وعيون ، وتقع غرب المدينة نحو الشمال ، وتبعد عنها بنحو خمسين ومائة كيلومتراً ، وتقع على طريق القوافل بين الحجاز والشام .. ويتبعها نحو عشرين قرية .

وكانت ينبع النخل مقراً لقبائل عربية كبيرة : كجهينة ، وحرب ، وغيرهما وكذلك مكر كثيرين من الطالبين ، وقد استوطن على بن أبي طالب ينبع قبل أن يلى الخلافة وكان بها معجماً ، ويروون عنه أنه نظر إلى جبالها ، فقال لقد وضعت على نقب من الماء عظيم ، (١) .

ووصف البشارى (٢) في القرن الرابع الهجرى - الذى عاش فيه صاحبنا أبو دلف - ينبع ، فقال :

د ينبع كبيرة جليلة ، حصينة الجدار ، غزيرة الماء . أعمر من يثرب ، حصنة الحصن ، حارة السوق - كناية عن كثرة حركة البيع والشراء فيها - وعامة من يتسوق بالمدينة في الموسم منها ، (٣) .
وقد انتل أناس من الخزرج إلى ينبع النخل ، فأقاموا بها ، ومن هؤلاء أسرة أبي دلف (٤) .

(١) ٢٧ بلاد ينبع - حمد الجاسر - منشورات دار الإمامة بالرياض .

(٢) في كتابه د أحسن التقاسيم . .

(٣) ص ٢٧ و ٢٨ بلاد ينبع .

(٤) راجع ص ١٤٥ المرجع نفسه .

وجميع المعلومات التاريخية والجغرافية عن ينبع يمكن أن نجدها في كتاب العلامة حمد الجاسر « بلاد ينبع » ، وفي مصادر أخرى قديمة وحديثة ، من بينها كتاب « جزيرة العرب في القرن العشرين » .

وبلدة السويق في العصر الحاضر هي مقر الإمارة في ينبع النخل ، وقد أصبحت في الزمن الأخير تابعة لإمارة ينبع البحر وأصبحت قاعدة تلك الناحية (١) .

وأغلب الظن أن أبادلف ولد في ينبع ، وهو ما ذكره كراتشوفسكى في كتابه ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، (٢) أيضاً ، ويؤيد ذلك قول أبي دلف في رسالته التي وصف فيها رحلته إلى الصين وهي رسالة الأولى ، : « لما نبأ بي وطني ، ووصل بي السير إلى خراسان ، ضارباً في الأرض ، (٣) ويذكر خالدوف ويولغا كوف في تحقيقهما للرسالة الثانية لأبي دلف ذلك أيضاً ، أي أن ميلاده كان في ينبع ، ولكنهما بخطئان فيقولان : إن مكان مولده هو في مدينة ينبع الميناء على ساحل البحر الأحمر (٤) . ويقولان أثر ذلك : ومن غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبي دلف ، وهذا تناقض كبير .

ميلاد أبي دلف :

وتذكر بعض المراجع ، ومن بينها الأعلام للزركلي ، أن أبادلف مات نحو عام ٣٩٠ هـ - ١٠٠١ م وأنه عاش نحو التسعين عاماً . فيكون ميلاده إذن في خلافة المقتدر بالله العباسي عام ٣٠٠ - ٩١٣ م

(١) ص ٤٣ بلاد ينبع .

(٢) ص ١٨٨ (٣) راجع ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت .

(٤) ص ٨ الرسالة الثانية لأبي دلف - ترجمة محمد منير مرسى - نشر مكتبة عالم الكتب بالقاهرة .

ويذكر الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر» أنه عمر مسعين عاماً ، فيقول عنه خنق التسعين في الاطراب والاعتراب، وركوب الأسفار الصعاب . ولكنه لا يحدد تاريخاً لميلاده ولا لوفاته .

نشأه أبي دلف الأولى :

ولا نعلم شيئاً عن حياة أبي دلف الأولى ونشأته . وبلا ريب قد تشقف ثقافة واسعة ، وشب عربياً كريماً عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، في وسامة ولطف . وكانت ينبع النخل آنذاك مركزاً ، من مراكز العلم والأدب والشعر وصار أبو دلف شاعراً ، وعرف كذلك طيباً ومنجماً ، وليست دساسانيته بمناقضة لمزّة نفسه ، فقد كانت دساسانية ظرف وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق .

ولجأة ينبو بأبي دلف وطنه ، وتسير به الحياة إلى الأمير الساماني نصر ابن أحمد (٣٠١ - ٣٣١ هـ : ٩١٤ - ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية في دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير .. ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره في كثير من المهام كما سنرى ذلك .

(١) والسامانيون (١) أسرة فارسية كبيرة لعبت دوراً خطيراً في القرن الثالث الهجري حتى نال أميرها نصر الساماني (عام ٢٦١ هـ) في عهد الخليفة المعتمد على الله استقلالاً ذاتياً ، وظل يحكم بلاده من عاصمته سمرقند حتى وفاته سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م . وخلفه من ذريته :

١ - إسماعيل الساماني (٩٧٩ - ٢٩٥ هـ) .

٢ - أحمد بن إسماعيل (٢٩٥ - ٣٠١ - ٩٠٧ - ٩١٤ م) .

٣ - نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ - ٣٣١ هـ : ٩١٤ - ٩٤٢ م) ، وهو الذي عاش في ظلالة أبو دلف ، ولا نعرف شيئاً عن الظروف التي قادت به إلى بلاط هذا الأمير ، ولا مقدمات صلته به . وفي عهد هذا الأمير الساماني كانت الدولة السامانية قد بلغت أوج عزيمتها ووذروة مجدها .

٤ - نوح بن نصر (٣٣١ - ٣٤٣ هـ : ١٤٢ - ٩٥٤ م) .

٥ - إلى ملوك آخرين طار صيتهم في العالم الإسلامي ، ومنهم : نصر ابن نوح الساماني (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) ، ونوح بن منصور (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) . وكانت بخارى قد حارت عاصمة السامانيين ، وأصبحت تزخر بالآداب والعلماء والشعراء والحكماء .

وكان الجيهاني (٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر وزيراً للسامانيين

(١) راجع ١١ : ٧٦ - ٨٢ دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) راجع عنه ٢١٩ - ٢٢٣ تاريخ الأدب الجغرافي العربي =

(توفي عام ٢٣٠ هـ / ٨٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفى بالعلماء ، ولعله هو الذى احتضن أبا دلف ، أو اتخذ كاتبا له ، وعن طريقه توصلت صلته بالملك الساماني نصر بن أحمد .

(ب) وفى عهد الملك نصر بن أحمد وفد إلى بخارى وفد هندي برئاسة الأمير الهندي كلاتلى فى سفارة هندية إلى بلاط الملك الساماني ، وأنجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم إلى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقاً لهم .

وزار أبو دلف فى هذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل مليبار ، ووصف

= لكراتشوفسكى وينقل القزوينى عن الجيهانى كثيراً فى المسالك والممالك الشرقية (راجع كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى) .

وينسب هذا الوزير إلى جيهان احدى مدن خراسان ، ويقول ياقوت عنه (٣ : ١٩٥ معجم البلدان) : إنه كان أديبا فاضلا . وقد ألف الجيهانى كتابا فى صورة العالم - أى فى الجغرافيا - بعنوان : المسالك فى معرفة الممالك ، وذلك نحو عام ٣١٠ هـ : ٩٢٢ م ، وهو مفقود .

والجيهانى هو الذى شجع أبا دلف وابن فضلان على أعمالهم الجغرافية .

وهو الذى أغرى أبا زيد البلخي (٢٣٥ - ٣١٨ هـ) الفلكى بالانتقال إلى بخارى ، وكان بين البلخي والجيهانى صلة وثيقة ، ولكن البلخي اعتذر له ، وألف البلخي كتابه : صور الأقاليم ، عام ٣٠٨ هـ : ٩٢٠ م بتشجيع من الجيهانى ، وفى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت مخطوط بعنوان : ذكر المسافات وصور الأقاليم لأبي زيد البلخي ، وهو برقم ١٤ جغرافيا - ويذكر الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار أن نسبة هذا المخطوط إلى البلخي خطأ وأنه كتاب ابن خرداذبة المطبوع بعنوان : المسالك والممالك .

ذلك كله في كتاب ألفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر أنه مجموع رساليته في وصف رحلاته (١) .

وفي آخر حكم نصر بن أحمد الساماني وفد على بخاري كذلك وفد صيني، ويقص أبو داف قصة هذا الوفد ، فيقول (٢) :

« إن رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك الساماني للمكهم ، فأبى نصر بن أحمد ذلك ، واستنكره ، لحظر الشريعة له ، فلما أبى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب إلى ذلك ، فاعتصمت قصد الصين معهم » .

وكان ذلك نحو عام ٨٢٣ : ٩٥٢ م ، وقد عبر أبو داف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ، ودخل الصين من مدينة « مقام الباب » ، فوادى المقام ، فسندابل العاصمة .. ويقول أبو داف (٣) :

(١) كنت أظن أنه كتاب مستقل مفقود ، ولكن أبا داف يبدو أنه قسمه إلى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلي وهو « عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبي داف ، وإنما ذكر مكانها كتاب « عجائب البلدان » .

(٢) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت .

(٣) ٥ : ٤١٤ معجم البلدان .. وفي مروج الذهب للمسعودي المؤرخ

(ت ٨٢٤٦) ج ١ صفحة ٢٤٩ بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : وقد رأيت يبلغ شيئا جميلا ذارأى وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط .. فهل يقصد المسعودي بذلك أبا داف ؟

ودخلت على ملكهم ، فحاطبته الرسل بما جاءوا به من تزويجه ابنته من نوح بن الملك الساماني نصر بن أحمد ، فأجابهم إلى ذلك ، وأحسن إلى وإلى الرسل ، وأقننا في ضيافته ، حتى نيجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به ، ورحلت إلى خراسان ، إلى نوح بن نصر ، فتزوج بها . ويقول أبو دلف :

وأقت بسندابل العاصمة مدة ، ألقى ملكها في الأحايين ، فيفاوضني في أشياء ، ويسألني عن أمور من أمور بلاد الإسلام ، ثم استأذنته في الانصراف فأذن لي بعد أن أحسن إلى . . .

وغادر أبو دلف الصين إلى الهند حتى رجع إلى بلاده عن طريق سجستان . وزادت هذه الرحلة من مكانة أبي دلف في دولة السامانيين ، ومن منزلته في عصره ، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة .

في ظلال البويهيين :

(أ) وتنقضى هذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينجع الكبير يعيش في ظلال دولة البويهيين ، ولا ندري كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو داف بخارى والسامانيين إلى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير صاحب بن عباد ، وإلى عوامهم الكبرى ينتقل إليها : اصهبان والري ، وبغداد ، وأصبح رفيع المكانة عند عضد الدولة الملك البويهي نفسه .

(ب) وتاريخ البويهيين حافل بالانتصارات الكبيرة فهذه الأسرة الفارسية (١) التي بسطت نفوذها على خراسان وفارس والعراق ، انتهى الأمر بزعيمها أحمد بن بويه إلى دخول بغداد في الحادي عشر من جمادى الأولى عام ٢٣٤ هـ في خلافة المستكني باقه ، وأصبح بجوار الخليفة سلطاناً أو ملكاً على الشعوب الإسلامية ، ولقب « معز الدولة » (٢٣٤ - ٣٥٦ هـ) وخلفه ابنه عز الدولة (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) ، ثم عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٣ هـ) وغيرهما من ملوك البويهيين .

واستبد البويهيون بالخنفاء استبداداً كبيراً ، « لهم الملك والتفوذ والسلطان » .

(١) ينسب البويهيون أنفسهم إلى بهرام جور (٨ : ١٩٧ ابن الأثير) - بهرام جور هو القيصر الساساني بهرام الخامس (٤٢٠ - ٤٣٨ م) وأحد معز الدولة ، والحسن ركن الدولة (٢٢٠ - ٣٦٦ هـ) ، وعلى عماد الدولة : حكم هؤلاء الأخوة الثلاثة العالم باسم الخليفة العباسي . وأقام معز الدولة في بغداد ، وركن الدولة في الري ، وعماد الدولة في شيراز .

وصار الذي في أيدي العباسيين إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملك
دنيوي كما يقول البيروني (ت عام ٥٤٤٠ هـ) في كتابه «الآثار الباقية»، (١)،
وحتى صار الخليفة لا يأمن على نفسه وحياته من بطش البويهيين متى
أرادوا.

خلعوا المستكني بالله بن المكتن (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) وولوا مكانه
المطيع لله بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) ثم خلعوه ومات بعد عام، وولوا
مكانه ابنه الطائع لله (٣٦٣ - ٣٨١ هـ)، وخلعوه وقبضوا عليه وعذبوه
وولوا مكانه القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ)، فقل في ذلك الشريف
الرضي:

أميت أرحم من أصبحت أغبطه
لقد تقارب بين العز والمهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني
يا قارب ما عاد بالضراء يسكنني (٢).

ومن أشهر وزراء البويهيين وزيران:

أولهما: أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ - ٣٦٠ هـ) وكان إمام عصره
في الأدب والكتابة والبلاغة، كما كان له مجده وهيمته وسلطانه السياسي في
دولة البويهيين، وكان وزيراً لركن الدولة البويهي (٣٢٠ - ٣٢٦ هـ: ٩٧٢ -
٩٧٦ هـ) وذلك من عام ٣٢٨ هـ: ٩٣٩ م.

(١) ١١٣: ٢ المرجع.

(٢) راجع ٢: ٨٦٧ ديوان الرضي، ٣: ٢٠٢ تجارب الأمم لمسكويه.

وكتابي «الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني».

وقد بدأ أبو دلف يتصل به ، والظاهر أنه أقبل عليه ثم أعرض عنه ، فجهاه أبو دلف ، ورد عليه ابن العميد ، مهدداً برسالة طويلة رواها أبو حيان التوحيدي في كتابه « مثالب الوزين » ، (١) وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ أنك لي مكاييد ، وإلى جميع ما أنفك عنه مخاف . وعلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضلة لسالك مسحور . . »

إلى أن يقول ابن العميد :

« تفاعست عني بلا عذر ، ووقفتني بين وصل ومجر . فلم أدر كيف أغاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبك ؟ لأنك مشهور بقحة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتاد للبهت ، وجار على الكذب . »

« وأول ذلك أنك تدعى بنوة محمد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمداً وما حلف بتأ . »

ثم يقول ابن العميد في غضب ظاهر :

إن في الموت خلاصاً منك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما أندب إلا حسن ظني بك ، ومبايعاتي أهل مجلسي بفضلك ، وقولي : « أبر داف وما أدراك ما أبو دلف ؟ لا تنظروا إلى هزله ، فإن وراء ذلك جدأ ، وهو المرء الذي قد جمع الله له بين المنظر والنحر ، وبين الدعوى والبيئة ، وبين القول والحجة . وبين الضمان والوفاء ، وبين الصداقة والشفقة . »

« فسا زلت أقول هذا وشبهه ، وأصحابي يشيعون قولي بمثله في الظاهر ، وبخالفوني بملهم في الباطن ، حتى كان العالج لهم ساعة هذه ، لأنني احتجت إلى علك تخفيت عهدي ، وأقبلت عليك فأعرضت عني ، ووهبت لك كلي ، فبخلت ببعضك عني . . واقعد استغدت بمعرفتك تجذب مثلك . . »

ويقول أبو حيان التوحيدى (١) :

قلت لآنى دلف : ما أجبتك عن هذا الكلام ؟

قال : عملت شيئاً لم أجسر على إظهاره ، وخفت صولته ونسكائه .
وشره وغائلته .

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنه أبو الفتح منصب أبيه في عهد
ركن الدولة ، ثم في عهد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميذ ابن العميد
الصاحب بن عباد ويقدمه وانتهى الأمر بمقتل أبي الفتح الوزير عام ٣٦٧ هـ .

أما الوزير الثانى من وزراء البويهيين السكبار : فهو الصاحب بن عباد
(٢٢٤ - ٣٨٥ هـ : ٩٣٦ - ٩٩٥ م) الوزير البوسى الكبير طيلة ثمانية عشر
عاماً (٣٦٧ - ٣٨٥) .

وصار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب (٢) ، يجلس فى مجالسه فى
أصبهان والرى نادماً ، ومادحاً ، وكان الصاحب نادرة الدهر ، وأعجوبة
العصر (٣) ، وظل وزيراً مدى ثمانية عشر عاماً (٣٦٧ - ٣٨٥ هـ) ، وكانت
له خزانة كتب فيها نحو ربع مليون كتاب (٤) .

وقد احتف بالصاحب من مجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل .

(١) مثالب الوزراء .

(٢) راجع عنه : ٢٦٨/٢ - ٢٧٠ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان -
كتايب الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى - ١٣ : ٩٧ معجم
الأدباء لياقوت .

(٣) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان .

(٤) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت .

وفرسان الشعر ، من يرى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، ومالك رق المعاني . فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين ، وجمعت حضرة صاحب بن عباد بأصبهان والري وجرجان مثل : أبي الحسن السلامي ، وأبو سعيد الرستمي ، والبديع الهمداني ، والقاضي الجرجاني ، وأبي القاسم بن أبي العلاء ، وأبي دلف ، والصابي ، وسوام ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبي في « يتيمة الدهر » (١) .

ويذكر الثعالبي أبا دلف من شعراء الصاحب وتماديه وجلاسه (٢) . ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يسكني بأبي دلف مسمر بن مهمل الينبي ، يشعر ويتطبب ويتنجم (٣) .

وكان الأدباء يمدحون في ظل للصاحب أمناً وأماناً لهم ، بما حل بالبلاد في عهد البويهيين من فقر مدقع ، فقد صارت العراق - كما يقول المقدسي - بيت الفن والعلاء (٤) واحترق أثير العلماء والأدباء صناعة الوداعة ، كأبي حبان التوحيدي (٣٢٠ - ٤١٤ هـ) وغيره .

واتصل أبودلف بمضد الدولة (٥) الملك البويهي في بغداد ، وجلس في

(١) ١٠٩/٢ يتيمة . (٢) ١٨٩: ٣ المرجع نفسه .

(٣) ٤٠٠: ٣ المرجع . (٤) ١١٣ أحسن التقاسيم .

(٥) من شعراء عضد الدولة : المتني ، والسلامي ، وغيرهما ، ومن

العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده أبو علي الفارسي الذي أهداه كتابه « الايضاح » ، ٣ : ٦٧ ذيل تجارب الأمم لمسكويه .

مجالسه شاعراً ومنادماً ، ونصور لنا القصة الآتية مكانة أبي دلف عند هذا الملك البويهي الكبير . وقد رواها الثعالي في كتابه لطائف المعارف :
جرت بين أبي علي الهائم وأبي دلف الخزرجي في مجلس أنس لمعضد الدولة بشيراز مطاوعة ومداعبة ، ومحاضرة ، ومذاكرة .

فقال أبو علي لأبي دلف :

صب الله عليك طاعون الشام ، وحمى خيبر . وطحال البحرين ،
ودماميل الجزيرة ، وسناقر دهستان (١) ، وضربك بالعرق المذني (٢) ، والنار
الفارسية ، والقروح البلخية .

فقال له أبو دلف :

يامسكين ، أنقرأدتبت ، على أبي طهب وتنقل النمر إلى هجر .

بل صب الله عليك : ثعابين مصر ، وأفاعى سجستان ، وعقارب
شهر ووزور ، وجرادات (٣) الأهواز .

وصب على برود اليمن ، وقصب مصر ، ودبايح الروم ، وخزوز
السوس ، وحرير الصين ، وأكسية فارس ، وحلل أصبهان ، وعمائم الأبله ،
وسقلاطون (٤) بغداد وسنجاب (٥) خر خير (٦) ، وسمور (٧) بلغار ، وثمانب

(١) المنقر والسنقر : طائر من الجوارح أعظم من الصقر وأجل
حنه ودهستان : بلد مشهور قرب خوارزم وجرجان .

(٢) مرض يصيب الإنسان

(٣) نوع من الحشرات . (٤) ثياب من الحرير موشاة بالذهب .

(٥) حيوان تصنع منه الفراء .

(٦) موضع ينسب إليه جنس من الترك .

(٧) دابة يتخذ من جلدها فراء ثمينة .

الخز (١) وفذك (٢) كاشغر ، وفاقم (٣) كنفغز ، وحواصل (٤) هراة .
وتسكك (٥) أرمينية ، وجواب قزوين .

وأفرشنى : بسط أرمينية ، وزلالى قابقلا ، ومطارح (٦) ميسان .
وحصر بغداد .

وأخدمنى : خصيان الروم ، وغلان الترك . وسراى بخارى ، ووصاتقه .
ممرقند .

وحلى على : عتاق البادية ، ونجائب الحجاز ، وبرازين طخارستان ،
وحير مصر ، وبغال برذعة .

ورزقى : تفاح الشام ، ودطب العراق ، وموز اليمن ، وجوز الهند ،
وباقله الكوفة ، وسكر الأهواز ، وعسل أصهان وتمر كرمان ، ودبس .
أرجان ، وتين حلوان ، وعنب بغداد ، وعناب جرجان ، وإجاص بست ،
ورمان الرى وكثرى نهاوند ، وسفرجل نيسابور ، ومشمش طوس ،
ومابن مرو ، وبطيخ خراسم .

وأشمنى : مسك نبت ، وعود الهند ، وعنبر الشحر ، وكافور فنصور (٧) .
وأترج طبرستان ، وتارنج البصرة ، ونرجس جرجان ، ونيلوفر السيروان (٨) .

(١) قنابل على سواحل بحر الخزر (قزوين) .

(٢) ثعلب صغير .

(٣) حيوان فروه من أفخم الفراء .

(٤) الجلود تلبس للتدفئة .

(٥) رباط السراويل (٦) بسط

(٧) بلد قرب الصين . (٨) بلد بأجل .

وورد جور ، ومنتور بغداد ، وزعفران قم (١) .

فأعجب عضد الدولة بكلام أبي دلف ، ووفور حظه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقوفه على خصائص البلدان في كل مكان من العالم الإسلامي .. ولم يملك إلا أن صاح بملء فيه بهذه العبارة العجيبة التي لم يقلها ملك في أحد من الأدياء أو الرعية ، قال عضد الدولة في تعجب ظاهر :

« الله درك يا أبا دلف . (٢) .

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » .

وأمر له بخلة وحلة حسنة .

وتدل هذه القصة على ما يلي :

١ - كثرة طواف أبي دلف بالعالم الإسلامي ، ووقوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلد من بلدانه .

٢ - حضور بديته ، ووفرة أدبه .

٣ - ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة .

٤ - وفرة حظه بين مناداة الملوك وحسن مجالستهم .

وتوفي عضد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفي بعده بزمان ليس بطويل وزيره صاحب ، وذلك عام ٣٨٥ هـ .

(١) ٢٣٤ - ١٣٩ لطائف المعارف للثعالبي - بتحقيق الأبياري والصيرفي .

(٢) ٢٣٩ المرجع السابق .

وتقاذفت الأيام بأبي دلف وشهد نهاية صديقيته صاحب وعضد الدولة
ومرت به السنوات ، من فقر لغنى ، ومن غنى لفقر ، ولم يجد كريما كالملك
الساماني ولا كالصاحب الوزير ، ولا كعضد الدولة البويهى .

ورأى الحياة من حوله لم تعد تحتفى بالأدب ، ولا تعير الأدباء جانبا
من رعايتها .

وشاهد نتائج رحلاته وطوافه بالبلاذ ، وتدوينه للأرجاء ، تصبح
وكأها ليست شيئا مذكورا .

وتذكر زملاءه الشعراء : المتنبي ، السلاوى ، القاضي الجرجاني ،
وأبا سعيد الرستمي ، والبستى .

وأقرانه من الأدباء والكتاب : الخوارزمي ، البديع الحمذاني ، الصابي ،
الصاحب ، ابن العميد .

وقد طوت كل هؤلاء الأيام ، ومضت بهم الحياة إلى مصيرها المحتوم .
فأسلم نفسه للمقادير ، إلى أن لقي ربه نحو عام ٢٩١-١٠٠١ م كما أرجح ،
أو عام ٣٩٠ هـ كما ذكر الزركلى فى « الأعلام » ، والعلامة حمد الجاسر فى
كتابه « بلاد ينبع » ، نقلا عن « الأعلام » .

١ - أبو دلف كاتبا :

أما هنا نصوص نثرية كثيرة لأبى دلف ، منها رسالاته فى وصف رحلاته
عبر الصين والهند وآسيا الوسطى ، ومنها رسائل نثرية صغيرة .

وهذه النصوص تظهر لنا بوضوح شخصية أبى دلف الأدبية .

إنه كاتب متمق المعاني ، كثير التجربة ، عظيم الخبرة ، دقيق الأفكار .
وهو إلى جانب ذلك سمح الأسلوب ، عذب اللفظ ، واضح الصياغة ،
وضوح معانيه ، ليس في أدواته تعقيد ، أو اغراب أو تكلف أو حوشية ،
أو معاطلة .

أسلوبه أقرب الأساليب إلى سماحة أسلوب المطبوعين ، ووضوح
أساليب المعاصرين ، وكأنه أسلوب صحفي معاصر ، مطبوع على البيان الجيد ،
متمكن من اللغة والبلاغة .

وقد كان أبو دلف يعيش في عصر المطبوعين على البيان ، وفي ذروتهم
ابن العميد ، والصاحب ، والحوارزمي والبديع ، والصابي ، وأبو حيان ،
وغيرهم من أعلام البلاغة والكتابة والنشر الفني .

وأبو دلف يتخذ من الرسالة مادة لعمله العلمي ، ويبعد عن قيود الصناعة
البديعية وزخارفها ووشياها ، مع التركيز الشديد في رسائله ، ومع الوصف
الدقيق للأشياء التي يصفها .

ومقدمتا رسالتيه تمتازان بأسلوبهما الفني السهل ، ومع ذلك فإن سعة
ثقافة الرجل فرضت نفسها على كتابته ، فليس هناك كلمة أو حرف قد جرى
بها أو به لغير ما داع يتطلبه المعنى والغرض المسوق له الكلام .

وأبو دلف قلما يعنى بالحديث عن نفسه وتجاربه في كتاباته ، فهو كاتب
موضوعي أكثر منه كاتبا وصفيا .

وهو جدير باهتمامنا ، وعنايتنا وتقديرنا لدله وتعدد ثقافته ، وسعة
جوانب شخصيته .

ويبدو أن اتصاله الوثيق بالساسانية والساسانيين ، قد قرب أسلوبه من
واقع الحياة ، ومن حاجة العصر إلى الدراسات الطبيعية والطبية والعلاجية

والآثرية والجيولوجية . وجعل جانب العلم أغلب عليه ، وأظهر على أدبه من جانب الخيال والعاطفة .

ومن العسير أن نفترض أنه لم يحى حياة الساسانيين ، فأدبه قطعة من صميم حياتهم ، وليس فيه أثر للتقليد أو الصنعة أو الزيف ، وصلة أبي دلف الوثيقة بهذا الوسط الاجتماعى المتميز جعله نموذجا حيا للساسانى الخالص (١) وجعل من أدبه وتجاده صورة واضحة متكاملة نظر إليها مثل البديع الحمدانى فى أكاره وإجلال وتقدير ، واتخذها نموذجا فنيا فى عمله الأدبى الجديد فى فن المقامة ، بما سنحيط به بعد قليل .

(١) حب أبي دلف للفن وظروفه جعله يحترف الأدب الساسانى احترافا مبدعاً حتى لم يبق فرق بين الأصل والصورة . والطبع والصنعة ، وكذلك كنا نرى فى عصرنا أناسا يرتدون - من أجل الظرف والفسكاهة - رداء أشعب فى جشمه وطعمه ، وهم أعز نفسا ، وأكرم طبعاً . وعلى أية حال فهناك فرق بين الفخوج والأصل أو الحقيقة ، ونحن مضطرون لأن نقول هنا ما قلناه من ساسانيته لأن أبا دلف صور نفسه فى قصيدته الساسانية بهذه الصورة الساسانية الخاصة ، وإذا علينا أن أبا دلف عاش فى قصور الملوك ونال جوائزهم ، وكانت له ألف حرفة - كما يقولون - أدركنا أنه لم يكن ساسانى التسكيب ، بل ساسانى الفن وحده .

أبو دلف .. شاعراً

(١) عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها في عصر ازدهار الشعر ونهضته في القرن الرابع الهجري ، عصر المتنبي (٢٠٣ - ٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ) ، وأبي فراس الحمداني (٢٢٠ - ٣٥٧ هـ) والرفاء (٣٦٦ هـ) ، والسلامي (٣٩٤ هـ) ، وكشاجم (٣٥٠ هـ) ، والخلاديين وابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، والواراء الدمشقي (ت ٣٩٠ هـ) ، والصنوبري (٣٣٤ هـ) ، وقابوس بن وشمكير (٤٠٣ / ١٠١٢ م) وابن سكرة (٣٨٥ - ٩٩٥ م) ، والبستي (٣٢٠ - ٤٠٠ هـ) ، وسواهم من أعلام الشعر العباسي .

وشهر - أول ما شهر ابن ينبع - بالشعر ، فقصده به ملوك الساسانيين ووزراءهم بمدحهم ، ويثشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب إلى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فدحهم بقصائده الجياد

ومن الأسف أن شعر أبي دلف أو ديوانه يعد مفقوداً حتى اليوم ، ولا نعرف له إلا القليل جداً من شعره ، مما يجعله الثمالي في البيتمة ، ومن أهم ما حفظه الثمالي لنا من هذا التراث الشعري قصيدة أبي دلف - أو رائيته الساسانية ، التي سوف نتحدث عنها بعد قليل .

(ب) وأشهر أغراض شعره : المدح - والهجاء - والفكاهة ، وأهم أغراضه الشعرية على الإطلاق هو شعره الساساني الذي ستعرض له .

ولنبداً بذكر مقتطفات مما بقي من شعره ، لتعرف إلى شاعريته ونقف على مدى أصالته .

١ - كان أبو عيسى بن المنجم الطيب من جلساء الصاحب، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارمة . فساكن يركبها كلما قصد مجالس الوزير ، وهلك الدابة أو قل تفقت ، فطلب الصاحب من شعرائه أن يكتب كل منهم قصيدة في رثاء البرذون الراحل ، وينشدها في مجلسه ، ويقدمها إلى أبي عيسى ، فاجتمع الشعراء ، ثلاثة عشر شاعرا ، في مجلس حافل من مجالس الصاحب الوزير ، وألقى كل منهم قصيدة (١) . وقام شاعرنا أبو داف فأنشد أرجوزة طويلة في رثاء الفقيد ، ضمنها أحرعواطفه ، فإذا قال الشاعر في هذا الموضوع ؟ استمعوا إلى أبي داف ينشد (٢) :

دمر على أبنائه وناب
يا لك دمرأ كله عقاب
أصبح لا يردعه العتاب
وأما انتهاء ما له إياب
لكل قلب بعده اكتئاب
فو نسب تحمده الأنساب
قد كملت في طبعه الآداب
كأنما غرته شهاب
كأنما أباته محراب
لا خبر منك ولا كتاب
تناوبتك للردى أنياب
نجزع من أمثالها الأحباب
وكنتم لو طالت بك الأوصاب
يخف في مصرعك المصاب

(١) ٢: ٢١٣ - ٢٣٦ يتيمة الدم .

(٢) ٢: ٢٢٣ - ٢٢٥ المرجع .

وأنت فرد ما له أتراب
قل لأبي عيسى : وما الأصحاب
بنافع : تم لك الثواب
فاسكن فهذا الصاحب الوهاب
في جوده وفضله مناب

٢- ويقول أبو داف أيضاً يصف ترفه وشجاعته :

إني امرؤ كسروى الفعال أصيف الجبال وأشتو العراق
وأبس للحرب أثوابها وأعشق الدارعين اعتناقا

يقول ابن الفقيه (١) : اختار أبو داف بفضل رأيه أن يصيف الجبال،
ليسلم من سمائم العراق وذبابه وسخونة مائه وهوائه ، ويشتو بالعراق ليسلم
من زمهرير الجبال وكثير رياحها ووحولها .

٣- ولما طوت الأحداث حياة أبي داف المترفة فأحاطته فقيراً بعد
غنى قال (٢) .

ألم ترني حين حال الزمان أصيف العراق وأشتو الجبالا
سموم الصيف وبرد الشتاء حنانيك حالا أزالتك حالا
فصبرا على حدث الثابت تأني الحوادث إلا انتقالا

٤- ووقف أبو داف أمام بعض آثار تدمر في الشام ، فقال :

ما صودتان بتدمر قد راعتا أهل الحجى وجماعة العشاق

(١) ٢٤١ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه - طبعة بريل ١٣٠٢ هـ .

(٢) ٢٤١ المرجع السابق .

غير اعلى طول الزمان ومره لم يسأما من ألفة وعناق
فليرمين الدهر من نكبانه شخصيها منه بسهم فراق
وليبلينهما الزمان بـكره وتعاقب الإظلام والاشراق
كى يعلم العلماء أن لا دائم غير الإله الواحد الخلاق

٤ - ولأبي دلف حكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة (١) :

هى المقادير تجرى فى أزمته فاعبر فليس لها صبر على حال
دع المقادير تجرى فى أعتها ولا تبيتن إلا على البـال
ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

وليس بين أبدينا نصوص من حكمه لأن شعره مفقود إلا الفاذاج التى رواها النعماني .

٥ - ويذكر النعماني أن صاحب الوزير بنى قصرا بأصبهان ، وانتقل إليه ، واقترح على شعرائه أن يقولوا فيه شعرا .. وفى يوم حافل اجتمع شعراؤه الثلاثة عشر فى مجلس صاحب ، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف (٢) ، فأنشد كل منهم قصيدة طويلة فى مدح صاحب وصف القصر ، وقد ذكر النعماني هذه القصائد ومن بينها قصيدة أبى دلف . ومطلع قصيدة أبى دلف هو :

رأينا طلعة الدار شمسا مع أقار

(١) كتاب التمثيل والمحاضرة للنعماني ، ومن الطريف أن هذه الأبيات لشهرتها رويت بروايات مختلفة ، ونسبت لكثير من الشعراء ، منهم : الشافعي والواثق العباسي ، وإسحاق الموصلي ..
(٢) ٢ : ٢٠٢ - ٢١٣ النتيجة .

ولى مسألة بعد فعاجلنى ياخبـان
بنيت الدار فى دنيا ك ، أم دنياك فى الدار ؟

٦ - ولنتقل إلى قصيدة أبى دلف الساسانية المشهورة العجيبة .. وقبل
أن نذكرها نذكر مدلول الشعر الساسانى .

(ج) الشعر الساسانى له بذور قديمة فى شعر الصعاليك . وفى مزاج
أشعب وطبقته ، وفى أدب الجاحظ وبعض كتاباته .

وقد عم الفقر البلاد الاسلامية فى العصر البويهى ، كما ذكرنا آنفاً ،
وما أنسى ما قاله أبو حيان فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » (١) : اللقوت لم
يكن إليه سبيل إلا بإخلاق المروءة ، وتجرع الأذى ، ومقاساة الحرقة ،
ولذع الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان ، أو مايقوله ابن انكك البصرى :
جار الزمان علينا فى تصرفه وأى دهر على الاحرار لم يجر ؟

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحتالين والسائلين والجواة
يجوبون البلاد ، ويطوفون بالاقايم ، ويتفتنون فى اختراع الخيل للحصول
على المال ، ويظهرون أحياناً إن صدقا وإن كذبا أنهم مجاهدون أحياناً أو من
أبناء السبيل ، أو عن نهبت أموالهم فى الطريق ، أو مرضى ، أو غير ذلك ،
فاطلق على هؤلاء بنو ساسان ، أو الساسانيون (٢) وكان جامع الاهواز
مأوى الكثير منهم (٣) .

وظهر الشعراء والأدباء الذين يقولون شعرهم وأدبهم فى الاستجداء

(١) ٢ : ١٤٣ الكتاب المذكور .

(٢) ١١ / ٤٦ و ٧ دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) ٧ أحسن التقاسيم للمقدمى .

وفي الاحتيال على أخذ المال من أى طريق ، وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والادباء أيضاً : ساسانيون ، وقيل لأدبهم وشعرهم : أدب وشعر ساساني .
وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتيال على الناس ؟ .

والساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها إلا من كان منهم ، وتعرف هذه اللغة باسم « مناكاة بنى ساسان » ، وكان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظاً عجبياً ، كما يقول الثعالبي في اليتيمة (١) ، وكان يمجبه من أبى دلف وفور حظه من هذه اللغة في شعره ، وبخاصة في قصيدته الساسانية الطويلة ، التي كتبها وقدمها (٢) إلى الصاحب ، ووصف فيها حيل بنى ساسان وأتاليب حياتهم ، وقد اختار منها الثعالبي في اليتيمة نحواً من مائتي بيت .

هذا هو معنى الشعر الساساني باجمال ، فمن هو ساسان الذي نسب إليه ؟ قيل : هو أمير من الأسرة الساسانية (٣) الفارسية المسالكة ، حزن لما تولى أخته الملك وحرّم هو منه ، فاشتري غنماً ، وجعل يرعاها ، ويعبر بأنه راعى غنم ، فنسب إليه كل من احترق الكدية .

وقيل (٤) : إن الساسانيين كانوا شراخم الأمراء من بنى ساسان ، جاء الاسلام فذلوا بعد عز ، وافقروا بعد غنى ، ورحلوا من مكان إلى مكان ، فصارت نسبتهن إلى الساسانيين نسبة عار وذل ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد .

(١) ١٧١/٢ اليتيمة .

(٢) ٢١٨ « الأدب في ظل بنى بويه للزهري » - طبعة عام ١٩٤٩ م .

(٣) أسرة فارسية حكمت إيران ، أولهم أردشير (٢٢٦ - ٢٤١ م) ،

وآخرهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ - ٦٥١ م) الذي سقطت الامبراطورية الفارسية في عهده في أيدي المسلمين (راجع ١١/ ٤٧ - ٥٥ دائرة المعارف الاسلامية و ١ : ١٤٢ « ظهر الإسلام لأحمد أمين ») .

(٤) هو رأى محمد عبده في شرحه لمقامات البديع - ص ٩٧ .

وقيل أن ساسان كان رجلاً من عامة الناس ، ماهرًا في الحيلة والاستجداء ،
فمنسب إليه هؤلاء .

وكان من الساسانيين شعراء . نقل الحرمان موادهم ، وأنضج الالام
عقريتهم ، ومنهم شاعرنا أبو دلف ، وشاعر آخر ضاعاه في رفعة المنزلة في
الأدب الساساني ، وهو الأحنف العكبري ، الذي قيل عنه ، إنه آدب بني
ساسان في بغداد ، وقال الثعالبي عنه : هو فرد بني ساسال اليوم بمدينة
السلام (١) .

(١) ١١٧/٣ اليثيمة - ٢٢٤ بديع الزمان للشكعة .

ولقد ذكر الجاحظ - في د المحاسن والأضداد ، وفي د البخل ، ص
٣٦ - الكدبة والمكدين .. وفي المحاسن والمساوي للبيهقي نصوص عن الجاحظ
في ذلك (٦٢٢ - ٦٢٤ المحاسن للبيهقي) .

ويذكر بديع الزمان في مقاماته المصنوعة وحيلهم - راجع المقامة
الرصاصية - كما يذكر الكدبة ، في مقامته الساسانية ، التاسعة عشر ، يدافع
عن الكدبة ، ويذكر الكثير من بواعثها وقد ذكر التوحيدى (٢/١٤٣)
الإمتاع والمؤانسة) الساسانيين راثياً لحالهم .

وفي مقامات الحريري المقامة الساسانية التاسعة والأربعون ، وفيها
يوصي أبو زيد المروجي ابنه ورلى عهده وكبش الكتيبة الساسانية من
بعده بصناعة الكدبة ، وبالأزهد في غيرها من الصناعات ، ولو كانت إمارة
أو تجارة أو زراعة أو صناعة .

وأدوات صناعة الساسانية كما صورها الحريري : الفطنة والذكاء والوقاحة
وأن يكون الساساني أجول من قطرب ، وأسرى من جندب ، وكذلك الجد
والثابرة ، فلا يسأم الطلب ، ولا يمل الدأب ، وعليه بالأقدام ولو على =

وقد أكثر العكبري من تصوير بؤسه وحرمانه ، فيقول :
العنكبوت بنت بيتاً على وهن تأوى إليه وما لي مثلها وطن
ويقول أيضاً :
عشت في ذلة وقلة مال واغتراب في معشر أنذال
بالأمانى أقول لا بالمعانى فغداً حلاوة الآمال (١)
وذالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقول :

على أنى بمحمد الله في بيت من المجد
ياخوانى بنى ساسا ن أهل الجدد والجدد
لهم أرض خراسان فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند
قطعنا ذلك النهج بلا سيف ولا غمد

وقد هزت هذه القصيدة أبادلف ، فعارضها بقصيدته الساسانية المشهورة
التي حشر فيها الخليفة المطيع لله العباسي (٢٣٤ - ٢٦٣ هـ) - الذي لم يكن
يملك في ظلال البويهيين من الأمر شيئاً ، حشره في جملة الساسانيين الصعاليك
الفقراء ، وكان ذلك مما يتندر به صاحب وعضد الدولة ، وهو على أى
حال تندر مر لأنه يشير إلى الحقيقة المرة كاملة ، إذا كان الخليفة في ظل

= الضرغام ، مع تحليله بالبلاغة ، بأن يكون أخلب بصوغ اللسان ، وأخضع
بسحر البيان الخ .

ولصنى الدين الحلى قصيدة ساسانية طويلة في ١٤٥ بيتاً .

(١) راجع ٣ : ١١٧ - ١١٩ التيممة .

البلويين لا شأن له بشيء من أمور الخلافة والسلطان ، ويعيش دائماً في
حقير وحرمان .

قصيدة أبي دلف الساسانية (١) :

قصيدة طويلة ساسانية ، ذكرها الثعالبي في اليتيمة ، وشرح كثيراً من
اصطلاحاتها الساسانية ، ولها أهمية كبيرة ، لا في شعر أبي دلف ، ولا في
الشعر الساساني ، وحدهما بخاصة ، بل في الشعر العباسي عامة .

وقد اهتم بها المستشرقون اهتماماً شديداً ، فغنوا مثلاً بما جاء فيها من
وصف الأواني الصينية (٢) .

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ، ولا يقارنها
في هذا الباب أثر أدبي آخر إلا مقامات البديع .

وقد استخدم أبو دلف بكثرة في القصيدة كلمات غامضة من اللغة
السريّة لآل سامان ، وقد شرحها الثعالبي وكشف عن مغالقتها ، ولولا ذلك
لما فهمنا عنها شيئاً . وكان أبو دلف يجيد هذه اللغة تماماً وقد علم صاحب
الإمام بنجاح . وقد أعلن أبو دلف أنه نفسه من زمرة الساسانيين .

يقول شاعرنا من هذه القصيدة :

جنون دمعا يحمرى لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجد به جمرا على جمر
لقد ذقت الهوى طعمي ن من حلو ومن مر

(١) ٢٥٤ - ٢٧٢ اليتيمة .

(٢) د الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ، دزكي حسن .

ومن كان من الأحرا ر يسلو سلوة الحر
كأشالي ، وفي الغرب ة أردى أكثر العمر
وشاهدت أعاجيباً وألواناً من الدهر
على أنى من القوم ال بهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى ال حمى فى سالف العصر
فتحن الناس كل الناس فى البر وفى البحر
أخذنا جزيرة الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجة ، بل فى كل أرض خيلنا نرى
لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكفر
فإن ضاق بنا قطر نسر عنه إلى قطر
ويقول أبو داف فى القصيدة أيضاً :

ومنا شعراء الأراض أهل البدو والحضر
ومنا سائر الأنصاء والأشراف من فبر
ويستطرد أبو داف ، فجعل الخليفة المطيع لله العباسى من جملة
السامانيين :

ومنا قيم الدين ال مطيع الشائع الذكر
وكان معز الدولة ثم ابنه عز الدولة قد ساموه الذل والهوان (١).

(١) ٧٦/٦ و ٣٠٧ ، تجارب الأمم ، لمسكويه .

ثم يقول أبو دلف عفا الله عنه :

سقى الله نبي ساساً	غيثاً دائماً القطر
إلا إني حلبت الدماء	ن من شطر إلى شطر
وجبت الأرض حتى صر	ت في التطواف كالحضر
وللغربة في الحر	فعال النار في التبر
وما عيش الفتى إلا	كحال المد والجزر
فبعض منه للخير	وبعض منه للشر
فإن لمت على الغربة	مثل قاسم من عذرى
أمالى أسوة في غر	ننى بالسادة الطهر
فإن أظفر بآمالى	شفت لفة الصدر
وقد تخفق فرقى عز	ة ألوية النصر
وإما تكن الأخرى	فلا أبت مع السفر
ولا عدت متى عدت	بلا عز ولا وفر

هذه هي أبيات من القصيدة الساسانية، التي نظمها أبو دلف، وأنشدتها
الصاحب، وطارت شهرتها بين الأدباء وقد أتينا على أبيات قليلة منها بعيدة
عن اصطلاحات الساسانيين الموبصة .

ولا نقول عنها إلا أنها وثيقة أدبية كبيرة (١) الدلالة في الشعر العباسي ،
وأنها من أرفع نماذج الساساني وهي حافلة بالبلاغة والصور والأخيلة العجيبة .

(١) بعد أن كتبت ذلك وجدت آدم مئز في الحضارة الإسلامية ،
٢ : ١٠٧ يقول عنها : إنها وثيقة اجتماعية في القرن الرابع .

ولقد كان اشكاز البديع الهمداني (٣٥٨ - ٥٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م) في القرن الرابع الهجري لفن المقامة حدثاً أدبياً جديداً في الادب العربي .

فلقد جهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها . ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذي طالما دار بين بطلها أبي الفتح الاسكندري وراويها عيسى بن هشام ، كما بهرم هذا النموذج الفني الرفيع الذي تمثل شخصية الساساني أبي الفتح البطل .

وقتن الناس بمقامات بديع الزمان امتناناً شديداً .

وايس هناك إلا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة في الادب العربي ، وصاحب الفضل في إنشائها ، ويؤيد ذلك الحريري أبو محمد القاسم بن علي البصري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) في مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعاً إلى بدم الزمان ، وعلامة همدان ، وكذلك جعل الثعالبى في « اليتيمة » البديع أباً عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم في ذلك كثيرون منهم مارون عود مثلاً ، إذ يقول (١) : إن خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذي ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التي شغها سارت عجلة الادب ألف عام ، وعشياً محاول المشور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع .

وكذلك ذهب مازن المبارك الذي يقول (٢) : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة في الادب العربي .

(١) ٢٤ « بديع الزمان ، لمارون عود .

(٢) ص ١٦ « مجتمع الهمداني من خلال مقاماته » - مازن مبارك .

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة ، ولكن الحصرى صاحب كتاب « زهر الآداب » يذهب فى كتابه (١) إلى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك (٢) أن البديع لبس هو المبسك لفن المقامة ، وإن كان له فضل فى نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب « بديع الزمان رائد القصة القصيرة » وهو الدكتور مصطفى الشكعة (٣) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع .

ويجمل آخرون البديع محتدياً حذو أستاذه ابن فارس (٣٩٥ هـ) فى رسائله الحوارية .

ويذكر آخرون ، ومن بينهم الدكتور شوقي ضيف (٤) أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخل والخيل والحمار والمجانين والأضداد عن أهل السكينة ، ومع جواز ذلك فى المضمون ، فإن شكل المقامة الفنى يبقى جديداً كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البندى والتمرة فى أى عمل أدبى أو غير أدبى .

ويجمل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة إسماعيل الملقب بالملهمتان للبديع بفكرة المقامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهذا كله كلام يعوزه الدليل « ولا تنهض به الحجة » (٥) .

(١) ١ : ٢٢٥ « زهر الآداب » .

(٢) « الثر الفنى » ، لوكى مبارك .

(٣) ص ٢٠٧ « بديع الزمان » ، للشكعة .

(٤) ٢٠ « المقامة » ، للدكتور شوقي ضيف - طبع دار المعارف .

(٥) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى » ،

ويذهب آخرون إلى أن المقامة مقتبسة من أصل :فارسي ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت في الأدب الفارسي قبل بديع الزمان ، إذ لم تعرف المقامة في الأدب الفارسي إلا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان فأول مقامات كتبت بالفارسية هي للقاضي حميد الدين البلخي الذي بدأ بكتابتها عام ٥٥١ هـ و توفي بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨ هـ / ١١٦٤ م) كما يقول راون ، ويؤكد محمد تقى بهار (١) أن المقامة من اختراع البديع ، وأن كل اختراع في الأدب العربي كان له صدهاء في الأدب الفارسي ، وأن حميد الدين قلد البديع والحريري في مقاماته ويذكر الأنورى إعجاب الفرس واقتنائهم بمقامات حميد الدين .

إن هذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفني الملتزم ، والصياغة الطريفة ، والصنعة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التي دعيت مقامة ، قد أنشأها بديع الزمان الهمداني ، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة في عصره .

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانياً هو أبو الفتح الاسكندري ، وهو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصولها وقام بكل أحداثها

وشخصية أبى الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقاً ، فهو بطل الموقف كله في المقامة ، وهو - كما يصوره الهمداني - عالم وأديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتل ماهر ، مشرد في الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا السكدية والاحتيايل بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام . وهو إلى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالآلام وصرورها

(١) « تاريخ تطور النثر الفارسي » - محمد تقى بهار .

يعركها وعركته يحوب الآفاق ويخطب في الأندية ، ويهز الناس بفصاحته
وبلاغته .

وكنية أبي الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته
في مواقفه العجيبة في السكندرية .

أما وصف الاسكندري الذي لازمه فقد يكون معزراً لذلك المعنى على
أنه نسبة إلى الاسكندر ، فتسكون فتوحات أبي الفتح في أموال الناس شبيهة
بفتوحات الاسكندر .

وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر في مقاماته قوله «اسكندرية دارى» (١)
نسبة إلى الاسكندرية لا إلى الاسكندر الأكبر المقدوني (٢٥٦ - ٣٢٣ ق م).
ويصح لنا أن نجتمع بين الأمرين ، فتسكون نسبته إلى الاسكندرية مقصوداً
بها إلى الرمز إلى شبهه في فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التي تنسب
إلى مدينته .

وبقودنا ذلك إلى التساؤل : أية اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان
ينتسب إليها أبو الفتح الساساني ؟

في المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثاً عن نفسه :
إني امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية ، وفي المقامة التاسعة
والعشرين الحدانية يقول : من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية . ويكرر
أبو الفتح نسبته إلى الاسكندرية في مواضع كثيرة أخرى .

فإذا رجعنا إلى ياقوت (٢) وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة

(١) راجع مثلاً في المقامة الأربعين - العلية - قول البديع :

اسكندرية دارى لو قر فيها قرارى

(٢) ٢٢٥/١ معجم البلدان .

مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فنما : الاسكندرية مصر ، والاسكندرية التي صار اسمها سمرقند ، والتي صارت مرو ، والتي سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التي على النهر الأعظم - نهر اشبيلية - وهي التي رجحها الإمام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس في القرن الرابع الهجري عصر البديع . إلا أني وجدت رجالة عربياً في القرن الرابع - هو أبو دلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : إن الخليفة الأموي مقيم بها (١) ، فهل كانت هذه المدينة قد بدأ تسمى الاسكندرية أيضاً ، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر ، ويذكر باحث عراقي أن الاسكندرية بين بغداد والحلة (٢) ، ولكن حاصلها إذن بالثغور الأموية ؟ .

ويذهب د. عبد الوهاب عزام إلى أن صحة الكلمة د. الأموية ، نسبة إلى نهر آموى (٣) - جيحون - وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هي مدينة الاسكندر على نهر آموى .

ومع ذلك كله فلا تزال نسير في بيداء حقيقة .

فمن هو أبو الفتح الاسكندري إذا ؟

١ - هناك رأى سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريري في مقدمة مقاماته :

(١) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٣٠٩/٥ معجم البلدان .
(٢) بعد رسالة دكتوراه عن مقامات الحريري ، وهو طارق العوسج ، وهو مدرس بمكة المكرمة حالياً .

(٣) ٢٢٤ بدیع الزمان للشکعة نقلا عن محاضرات د. عزام في كلية الآداب
طام ١٩٤٤ م .

كلاهما مجهول لا يعرف ، ونذكره لاتعرف ، وهذا ما رجحته منقذ
عشرين عاماً في كتابه الحياة الأدبية في الأندلس والمصر العباسي الثاني (١) ،
ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسي إيوار ، فيقول : وضع البديع شخصاً خيالياً
ابتكره وسماه أبا الفتح ، وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية
المقامات كان شيخاً للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٥٠٩) مؤلف تاريخ
همدان ، وينقل ذلك عنه ياقوت في معجم الأدباء ولعل ذلك وم ناشئ من
قول البديع في مطلع كل مقامة من مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام ، ولو ذهبنا
إلى أن أبا الفتح هو الذي كان أستاذاً للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث ،
وأكبر انطباقاً على الموضوع .

ومن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب د بديع
الزمان ، الدكتور الشكعة الذي يقول : حاولنا أن نجد لبطل المقامات صدى
تاريخياً فلم نعثر لها على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع
نفسه (٢) .

٢ - وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص
وجدوا بالفعل ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين ، إلا أنهم لم يستطيعوا
تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية .
وأنا معهم في ذلك . ولكني أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف
عن شخصية أبي الفتح بطل المقامات البديعية
يذهب باحث عراقي (٣) سبق الإشارة إليه إلى أن أبا الفتح هو البديع نفسه ،

(١) ص ١٤٧ الكتاب المذكور طبع القاهرة ١٩٥٧

(٢) بديع الزمان ص ٢٣٢ .

(٣) هو طازق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات

ومن قبل فلت ذلك في كتابي ، الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي .
الثاني ، (١) حيث ذكرت أنه قد يكون في حياة أبي الفتح شيء من الصفات
البديع نفسه ، وشيء من أخلاقه . ولكني أخاف ذلك اليوم ، وستبدو
الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل .

ويذهب باحث آخر (٢) إلى أن الكدية أو الساسانية التي كانت صناعة
أبي الفتح ، نجد من أعلامها في عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه
كثيرة : كابن الحاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥) وأبي الورد ،
ومن يشبهه من بعض الوجوه كإبي حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه ، ومن
يشبهه كل الشبه كإبي دلف والأحنف العكبرى ، . . . ويجعل هذا الرأي أن
أشباه أبي الفتح الاسكندري كثيرون في عصر البديع ، وأن أقربهم شبهاً به
هو أبو دلف والأحنف . وهذا الرأي لا يأتي لنا بمجديد ولا بأمر مؤكد في
البحث على أية حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين له .

٣ - ورأى الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية
تاريخية معروفة في عصر البديع ، وهو أبو دلف الخزرجي وحده .

وهذا الرأي لا يبقنى فيه باحث ، وبه يفتح الباب أمامنا لفهم كثير
من حقائق الأدب في القرن الرابع . . . ودلائلنا عليه هو ما قاله الثعالبي في
« بئمة الدهر » ، (٣) قال :

أنشدنى بديع الزمان لإبي دلف ، ونسبة في بعض المقامات إلى أبي الفتح
الاسكندري .

(١) ١٤٧ و ١٤٨ الكتاب المذكور .

(٢) ص ٢٣٤ « الأدب في ظل بنى بويه » ، للزديري - طبع مصر ١٩٤٩ .

(٣) ٣ : ٢٥٤ البئمة .

ومحك هذا الزمان زور فلا يفسر لك الغرور (١)
لا تلزم حالة ولكن در باليالى كما تدور

ومن هذا النص نعرف الحقائق الآتية :

- ١ - أنشد البديع الثعالبي شعراً لأبي دلف .
- ٢ - وهذا الشعر نفسه نسبة البديع في مقاماته إلى أبي الفتح ، فتكون النتيجة هي أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه يقرر البديع .
- ٣ - كان البديع راوية لشعر أبي دلف ، ويبدو لي أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم .

وإذاً يكون أمامنا رأى جديد نجزم به ، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وحديقه ومعاصره بطلا للمقامات ، وكفى عنه بأبى الفتح ، وكان أبو دلف أروع عروذج ساساني يصلح بطلا للمقامات لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذي صورده البديع في شخص أبى الفتح الاسكندري ، ولأن شهرة ونجارب أبى دلف كانت تصلح معيناً يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصوره به أبا الفتح وذلك ما قد كان .

بل إننى أضيف إلى أن ذلك أن البديع الحمداني حين سمع قصص أبى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه في البلاد واستمع إلى فساكات هذا الشيخ وسمعه في مجالس الملوك والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساساً لفن جديداً ابتكره وعماهه المقامة ، ، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكي بابتكار فن المقاومة في الأدب ، العربي ، في القرن الرابع ، وفي عصر أبى دلف .

(١) هذا الشعر في المقامة القريضية إحدى مقامات البديع .

وقد أطلعت بعد نشر هذا الرأى والانهاء منه بزمن على دليل آخر يؤيدنى فى هذه القضية ، فى كتاب « النماذج الانسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة » يقول مؤلفه د . محمد غنيمى هلال ما نصه :

على أن نمة شخصية تاريخية واقعية استملى منها الهمداني نموذجاً الأدبي وهو الشاعر أبو دلف ، وكان معاصراً لبديع الزمان ، وكان بديع الزمان يعجب به ويستدعيه إلى مجلسه ، ويحسن إليه ويحفظ من شعره ، والجانب الواقعي من أبي دلف قد أمد - دون ريب - بديع الزمان بالمادة الغفل لمقاماته ماثلة فى شخصية الشاعر المذكور وأدبه ، وقد ترك هذا الجانب الواقعي كذلك أثراً فى تصوير باطن نفسى لنموذج أبي الفتح .

ومع ماى هذه الجملة القصيرة من ذهاب إلى ما قلناه ، من أن شخصية أبي دلف هى شخصية أبي الفتح الاسكندري بطل مقامات البديع ، فإن فيها على قصر ما أخطاء كثيرة هى :

أولاً : قوله : وكان - أى أبو دلف - معاصراً لبديع الزمان .

فإن الأولى أن يقال : وكان البديع معاصراً لأبي دلف لأن أبا دلف كان قد بلغ الستين على حين كان البديع ابن عامين ، وكان أبو دلف نديم الملوك ومسارهم ومحدثهم ، والذي تفتح له أبوابهم دون حجاب .

ثانياً : قوله : وكان - أى بديع الزمان يستدعيه - أى أبا دلف - إلى مجلسه أليس الأولى العكس ، أيستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن إلى شاب صغير .

ثالثاً : قوله : وكان أى البديع — يحسن إليه ، أى إلى أبى دلف .
أبو دلف العظيم حدث الملوك وطرفة الدنيا ، أكان فى حاجة إلى إحسان
شباب صغير فقيراً . . كلا فقد كان أبو دلف فى ثراء مما ناله من عطاء
للملوك ورفدهم عندما كان البديع لا يزال شاباً مجداً طالباً للشهرة
والمال معاً .

متنبى المغرب

- ١ -

ابن هاني الأندلسى متنبى المغرب ، هكذا قال عنه النقاد ، وجعلوه
بجوار المتنبى قرينا له ونظيراً ، وجعلوه موهبته الشعرية تضارع موهبة
المتنبى وشاعريته .

ولقد عاش ابن هاني في ظلال دولتين : دولة بنى أمية في الأندلس ،
ودولة الفاطميين في المغرب .

أما دولة بنى أمية فقد قضى في ظلها أكثر من ربع قرن من حياته
الأولى ، في الوطن الأندلسى ولد ونشأ ، وهذب وتعلم ، واتصل بالحياة
العامة كإرها لها ، مبغضاً للإقامة فيها ، نافقاً عليها ، مولياً وجهه شطر المغرب
الأقصى ، داعياً لحق الفاطميين في ميراث جدم الرسول الكريم ، واثمراً
الملا بة ليقتلوه ، فخرج من الأندلس خائفاً يترقب ، حتى وصل إلى عدوة
المغرب الأقصى ، فعاوده الأمل ، وأضاء الرجاء له سبيل العيش في الحياة ،
وسعى - على وثام بينه وبين بيتته والمجتمع الذى يعيش فيه - إلى ما كان
يتطلع إليه من آمال كبار ، في ظلال الدولة التى طالما كان قلبه يهفو إليها ،
ويشيد بنفوذها .

- ٢ -

ولد أبو القاسم محمد بن هاني بن محمد الأزدى في قرية من قرى إشبيلية
تدعى «سكون» ، عام ٥٢٠ - ٩٢٢ م ، من أسرة ذات حسب ومجد ،
وأدب وعلم ، يتصل نسبها بسلالة المهلب بن أبي صفرة الأزدى للقائد
الإسلامى المشهور في دولة بنى أمية ، وسواء أكان من سلالة يزيد بن حاتم

ابن قبيصة بن المهلب الذي وطد للنصور ثاني خلفاء بني العباس دعائم ملكه في شمال إفريقية إلى أن توفي عام ١١٠ هـ ، أو من أحفاد أخيه روح بن حاتم الذي ولي فلسطين ثم شمال إفريقية بعد موت أخيه يزيد ، سواء أكان هذا أو ذاك ، فإن ابن هانيء على أى حال ينحدر من سلالة أزدية قحطانية يمنية ، لها ماضيها الحافل ، وتاريخها المجيد ، ولها أثرها في نفس الشاعر وفي أدبه ، فقد ملأ ذلك نفسه شعوراً بهذا الماضي ، ونحراً به ، وعزماً على مواصلة الجهاد لتجديد ذلك العهد الذي أعيى على الأيام أن يتبدد ، وكان يقرنه الشاعر بمجده الذي شاده بكفاحه في الحياة :

ذرى أجدد ذلك العهد الذى أعيى على الأيام أن يتقشبا

ولم يقبل الشاعر أن يعيش كلا على هذا الماضي في مستقبل حياته ، أو تحمياً عالة عليه ، بل سعى وناضل في الحياة :

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فن كان أسمى كان بالمجد أجدا
وبالهمة العلياء يرقى إلى العلا فن كان أرقى همة كان أظهرأ
ولم يتأخر من يريد تقدماً ولم يتقدم من يريد تأخراً

وكان أبو الشاعر هازم من قرية من قرى المهديّة ، عاصمة ملك الغنطاطيين الأولى ، وكان شاعراً أديباً ، كما يقول الذهبي (١) وابن خلكان (٢) ، ثم هاجر من قريته بالمغرب إلى الأندلس ، وعاش في إشبيلية ، وانتقل منها بعد إلى إلبيرة .. وفي إشبيلية ولد ابنه محمد بن هازم ، فنشأ وترعرع في بيتها الحافلة بألوان الحضارة والعلم والأدب ، وبأسباب المجد السياسى الذى

(١) ٨١ تاريخ الإسلام .

(٢) ٢/٥ وفيات الأعيان .

كسبه الامويون في الأندلس . وخاصة في عهد ملكهم الناصر
(٣٠٠ - ٣٢٥)

- ٣ -

اختلف ابن هانيء إلى مجامع العلم والأدب في إشبيلية ، بثقف نفسه ،
ويهمدب عقله ويكون ملكاته تكويننا يصل بينه وبين الحياة بأسباب
الطموح والأمل .

ثم رحل إلى قرطبة العاصمة الأولى للملك بنى أمية والتي كانت تزخر
بالجامعات والعلماء ، وبأسباب الحضارة وألوان الثقافة ، فعكف على تزويد
نفسه فيما بأكبر قسط من الثقافة والمعرفة ، والظاهر أن رحيله إليها في
بده حياته كان لهذا الغرض وحده دين سواه .

كانت الثقافة الأندلسية في هذا العهد وفي ظلال الناصر تنال من عناية
الدولة والشعب ، ورعاية الحكومة والملك ، كل ما كان يطمح إليه محب
للدلم والمعرفة ، وكان الناصر وولي عهده الحكم يذلان جهودا كبيرة لنشر
العلم ، وتشجيع العلماء ، فأقيمت الجامعات ، وفتحت دور الكتب التي
جمعت مجموعات من شتى بلاد الشرق ، وساعدت الدولة العلماء في رحلاتهم
العلمية إلى بغداد وسواها من عواصم الثقافة الإسلامية في الشرق الإسلامي ،
واستقبل الناصر كثيرا من الواصلين عليه من العلماء والأدباء ، كالغالي
وسواه (١) ، فشمت في آفاق مدن الأندلس أضواء الدلم والثقافة ، وامتلأت

(١) ولد الغالي عام ٢٨٨ هـ ، وحصل ثقافته اللغوية والأدبية في بغداد .
ثم هاجر إلى الأندلس عام ٣٢٨ هـ ، فاستقبله ولي العهد ورحب به ، وتلقى
عليه كثيرا من المحاضرات ، ودعاه إلى إلقاء محاضراته في مسجد قرطبة ،
والتي درتها في كتابه «الأمال» وظل كذلك حتى توفي بها عام ٣٥٦ هـ .

عواصمها ياسباب الحضارة والمدنية والعمران ، وأخذت مشاعل النور ترسل أشعتها ، فتضي ظلمات الحياة في الغرب ، وتزيد اشتعال النور وتألّق الضوء في الشرق ، وتملأ الحياة قوة ونشاطاً ومدنية وترقا .

وكانت السمة الغالبة على الثقافة الأندلسية حينذاك هي الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة ، أما الدراسات العقلية فقد تجهّموا لها وناولوها ، وصرفتهم بيئتهم المنمقة بألوان الجمال عنها ، فأروها عبثاً لاخير فيه وحاولوا لبعث بين أنصارها وبين التفكير الحر ، ولكن الحرية الفكرية التي غرس بذورها الناصر وابنه الحكم لم تحل بين آثار التفكير العقلّي وانتقال عدواه من الشرق إلى الأندلس ، على يد الراحلين عنها والوافدين إليها من العلماء والمفكرين ، الذين أحصاهم صاعد الأندلسي في كتابه « طبقات الأمم » .

ومن ذلك نستطيع أن نحدد ألوان الثقافات التي تلقاها ابن هازم في دراسته وتفرغ لحصيلها ، فهي ثقافة دينية واسعة ألم بها الشاب الناشئ حين درس القرآن وعلومه ، وأجاده حفظاً ، بما نفقه في مستقبله الأدبي ، وصنع أسلوبه بصيغة القرآن القوية المطبوعة ، حتى كان ابن هازم فيما بعد المجيد في الاقتباس من الذكر الحكيم وآياته فنجد له قوله :

ألا أيها الوادي المقدس بالطوى وأهل الندى إني إليك مشوق
ونجده يقول :

كانت جناتاً أرضهم معروشة فأصابها من جيشه إعصار
ويقول لأمير الزاب :

لعمري لقد أيدت يوم الوغى به كما أيدت كفاك بالأنمل العشر
كذلك تاجي الله موسى نبيه فنادى أن اشرح ما يضيق به صدرى

وهب لي وزيراً من أخى أستعن به
وأشد به أذرى وأشركه فى أمرى

إلى غير ذلك مما يلاحظ القارىء فيه روح التأثر بأساليب الذكر الحكيم وبجانب هذه الثقافة الدينية ثقافة لغوية واسعة ، تراها فى كل قصيدة من قصائد الشاعر واضحة مدونة ، ولعل ابن هانئ كان ممن جلسوا إلى القالى وسمعوا محاضراته اللغوية فى مسجد قرطبة ، كما جلس إلى سواه من علماء اللغة وأساتذتها . . وما نرى فيه الثقافة اللغوية أيضاً إدمان قراءته للشعر الجاهلى فى عهد دراسته الأدبية ، واحتذاؤه حذوه فى نظم القريض وصياغته ، فوق محالطته للقبائل العربية التى كانت نازلة فى مدن الأندلس ، ومحفظه بروحها العربية الأولى ، ولا يكاد يضارع ابن هانئ فى هذا المحصول اللغوى الواسع شاعر سواه غير أبى الطيب المتنبى الشاعر الحكيم . وبجانب ذلك كله كانت الثقافة الأدبية الواسعة مشكلة لجوانب هذه الثقافات فى شخصية شاعرنا ابن هانئ ، فقد ورث عن والده حب الأدب والميل إليه ، والشغف بالشعر والظهور فى ميدانه وفى شتى أغراضه ونواحيه ، وأعان ذلك دراسته وحفظه لأشعار العرب وأخبارهم وأيامهم وشعرهم ، واتصاله بالبيئات الأدبية فى الأندلس . وساعد على ظهور ملكة الشعر فى نفسه روحه الأدبية الموهوب ، وفطرته الشعرية الموروثة ، وعناية والده الأديب الشاعر به ، وتوجيهه إياه إلى كل ما يفيد فى مستقبله الأدبى . وإلى كل ما ينمى ملكاته ، ويفجر فى قلبه ينابيع الشعرية والإلهام . . هذا كله فضلاً عن حياة الشاعر فى بيئة الأندلس الأدبية الحافلة بالأدباء والشعراء ، والتى لقى الأدب والشعر فيها رعاية وتشجيعاً أمدهما بأسباب الحياة والقوة والنضج ، وكما قرأ ابن هانئ الشعر الجاهلى وتأثر به فقد اطلع على شعر كثير من المحدثين ، وعلى شعر المتنبى ، الذى عاصره وتأثر به ، وقرأ ديوانه ، كما ترشدنا إلى ذلك

قصيدته الحادية والعشرون من ديوانه الذى نشرته مكتبة المعارف بتعليق الدكتور زاهد على .

وفى قصيدة ابن هانىء الغائية التى مطلعها :

أليتنا إذ أدسلك وإردا وحفا وبتنا نرى الجوزاء فى أذننا شغفا

وهى القصيدة الحادية والثلاثون فى ديوانه ، وصف دقيق للنجوم وهياتها وحركاتها فى إشرافها وغروبها ، وقد يدل ذلك على إلمام ابن هانىء ببعض فنون من الفلسفة ، ويروى لنا التاريخ الأدبى أن ابن هانىء كان متهما فى الأندلس بمذاهب الفلاسفة (١) ، وأنه تعرض بسبب ذلك للقتل ، مما دعاه إلى الهجرة إلى المغرب ، ونحن نستبعد إلمام ابن هانىء ببعض فروع الفلسفة لأن تراثه الشعرى بعيد كل البعد عن روح الفلسفة ومذاهبها فى التفكير ، وقد يكون الشاعر قرأ أو درس شيئا من ذلك إلا أنه على أى حال لم يفرغ لهذا اللون من الثقافة ، ولم يشرب قلبه حب مذاهب الفلاسفة ، وهجرته سفين أسبابها الصحيحة فيما يلى من هذه الدراسة .

وإذا فتقافة ابن هانء نستمدها عناصرها من القرآن واللغة والأدب والشعر ، ومن أثر الوراثة الذى كان له مظاهر فى نفس الشاعر وعقله ، ومن أثر البيئة التى كان يعيش فيها ، ثم من تجارب الحياة الطويلة والكفاح المستمر ، والرحلة الدائمة ، التى تركت آثارها الكبيرة فى عقلية الشاعر وتفكيره وفى أدبه وشعره .

وأخذ ابن هانىء الشاب يسير فى غمار الحياة ، ويخطو خطوات وثيدة فى ميدان الطموح والمجد ، وكان قد نهضت روح الشاعرية فى نفسه ، فنظام

الشعر يصور فيه عواطف الشباب وآماله وآلامه في الحياة .

ثم دفعته همته وماضى أسرته الحافل إلى السعى في طلب الشهرة والمجد ،
ورأى الحياة العامة في الأندلس تسمح له أن يطمح إلى أعلى مناصب الدولة .
بعد ما حصل من ثقافة جعلته شاعراً لا يقل عن غيره من الشعراء الممتازين
في بيئته .

فبدأ يتصل برجال الدولة ، وخاصة أمير إشبيلية ، بعد أن عاد إليها
من رحلته الثقافية في قرطبة ، وأعزه الأمير واصطفاه ، ورفع منزلته لديه
وأكرم مثواه ، واتخذ شاعره وندبمه ، ولعل الشاعر قد اضطر إلى هذا
الاتصال الأدبي اضطراراً ، لفقر جامع ألم به ، أو لموت والده صغيراً
وذهاب ما كان يعينه على شئون الحياة من مال .

وقدر ابن هاني يد الأمير عليه ، فشكره ونوه به ونظم قصائده في الثناء
عليه والإعجاب به ، وإن كان ديوانه خلواً من ذلك ، وليس فيه بيت أو
قصيدة في أمير إشبيلية ، بل ولا في تصوير حياته في الأندلس ، ولعل شعره
الذي نظم فيه ضاع في أثناء هجرته ، أو أنه لم يكن الرواة الذين رووا شعره
يجمعه ، مع ما جمعه من شعره الذي نظمه وهو مقيم في دولة الفاطميين ،
فلم يلتفتوا إلا إلى شعره الذي أيد به هذه الدولة ورجالها .

واستمرت المودة بين الشاعر والأمير حيناً من الزمان ، ولكن ابن
هاني كان برماً بالحياة في الأندلس ، وبغض الدولة الأموية من ملوكها ، منكراً
لحقهم في الخلافة الإسلامية .

ولا شك عندى في أن ابن هاني ورث هذا الروح عن والده فيما ورثه
عنه من ميراث ، فقد كان ابن هاني من قرية من قرى المهديّة ، موطن الدعوة
لخلافة الفاطمية وعاصمة دولتها الناشئة ، ثم رحل عنها إلى الأندلس

لظروف القاهرة لم يروها لنا التاريخ ، فلا بدع إذا أن يكون هانيء والد الشاعر يعمل على مناصرة الفاطميين ويستمع وهو في الأندلس لأحاديث نشأتهم في المغرب ، ويتلقف أنباء اتصالاتهم ، في ظل الراية البيضاء المرفوعة على المهدي وما يتبعها من بلاد ، والتي تشير إلى معنى الخصومة السيامة للعلم الأسود المرفوع في بغداد . وللراية الخضراء التي تظلل بني أمية في قرطبة والأندلس .

ولم يلبث أن علم أمير إشبيلية بأشياء عن ابن هانيء فأشار عليه أن يغيب عن المدينة مدة ، حتى ينسى في خلالها أمره ، وتمكن فيها ثورة الناس عليه فامتثل الأمر ، وخرج من المدينة خائفاً يترقب .

نرى أين تكون وجهة هذا الشاعر البائس وإلى أي بلد يسير ؟ .

فكر الشاعر فلم يجد أمامه إلا غاية واحدة يجب أن يسير إليها ، وإلا ناحية واحدة لا مناصر له من أن يقصدها ، ورأى نفسه تحذره : هيا إلى بلاد المغرب ، وإلى المهدي من بلاد المغرب خاصة فهي بلاد الآباء والأجداد التي تتلاقى فيها ذكريات الماضي الطويل .

وصمم الشاعر على الهجرة ولم يجد سبيلا إلى الحياة الآمنة سواها ، فهاجر إلى عدوة المغرب وهو في سن السابعة والعشرين أو السادسة والعشرين على ما يقولون .

• • •

هاجر إذا إلى المغرب عام ٨٣٤٧ هـ ، أو عام ٣٤٦ هـ ، وبذلك انتهت حياته الأولى التي قضاها في الأندلس ، وانتهى به المطاف إلى دولة الفاطميين .

ولم يكن الشاعر يعمل على كتمه في هجرته مالا ولا نسيا ، ولكنه

كان يحمل في صدره عاطفة ملتهبة وكان يحمل معه فنه وشاعريته ، ويسمى
بهما قدما إلى أبعد غايات الطموح ومجد الحياة .

وبصور لنا ابن هاني. هذه الهجرة وذكرياتها وأسبابها وما لاقى خلالها
من اضطهاد كاد يودي بحياته ، في قصيدة من قصائده ، قال فيها متحدثاً
عن نفسه :

ومستكبر لم يشعر الذل نفسه أبي بأبكار المهاول فأنك
ولو علقته من أمية أحبل لجب سنام من بني الشعر ناملك
ولما التقت أسيافا ورماحها شراعا وقد سدت على المسالك
أجزت عليها عابراً وتركها كأن المنايا تحت جنبي أرائك

والشاعر في هذه القصيدة قوى العاطفة ، متأجج الشعور ، ولكن
روحة الشعرية لم تخلص بعد من سمات التكلف الفني ولم يخلص لها بعد
الفن المطبوع ، ويندفع ابن هاني في تيار عواطفه ، فيحمل على بني أمية
الاندلسيين حملة نائرة ساخطة ، ويرميهم بالبخل والجبن وشتى الرذائل ،
يقول فيما يقول :

ولم تدم في حرم دروع أمية ولاكنهم فيها الإماء العوارك
إذا حضروا المداح أخجل ماح وأظلم ديجور من الكفر حالك
إلى آخر ما يقول .

استقر الشاعر أخيراً في المغرب ، أو على الأرجح في المهديّة وطن
والده الأول ، من بين بلاد المغرب كافة ، وأخذ ينتهر الفرص السانحة ليذيع
شعره ، ويظهر شاعريته . فساعدته الظروف على ما يريد .

كان ذلك على ما أرجح عام ٣٤٧ هـ بعد انتصار جوهر على خصوم الدولة الفاطمية في سجلماسة وقاس ومكناسة وسواها من بلاد المغرب ، وبعد أن قضى على الثائرين ووطد دعائم ملك الفاطميين في أطراف هذه البلاد ، ورجع من هذه الأعمال الحربية ظافراً منصوراً .

ونظم ابن هاني قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره ، وجوهرأ وبطولته وحزمه ، وبجده الحربي ، وولاه للخليفة المعز ، واصطفاه الخليفة له ، ويقول فيها :

وأبيض من سر الخلافة واضح تجلى فكان الشمس في رواق الضحي
أريك به نهج الخلافة مبيعا بين ، وأعلام الخلافة وضحا
إلى آخر ما يقول ، من قضائه على ثورات الثائرين ، وقتل الخارجين على المعز . وذعب الشاعر إلى القائد فأشده قصيدته وسط جيشه ومعسكره فسر بها القائد ، ثم أمر للشاعر هدية .

وفي ديوان الشاعر ظل للصلة المستمرة بين الشاعر والقائد ، فقصيدته في وداع جوهر وهو سائر لفتح مصر عام ٣٥٨ هـ ، وقصيدته في فتح مصر وتمتة المعز هذا الفتح والثناء على جوهر قائده الفاتح المظفر ، فيهما أثر لبقاء هذه الصلات .

وفي الديوان أيضاً قصيدة نظمها ابن هاني عام ٣٤٨ هـ مدح بها المعز ووصف هدية جوهر إليه ، بعد تسخيره بلاد المغرب جميعاً ، وتوطيد الملك الفاطمي فيها ، ومطلعها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكري وأورد عن رأي الإمام وأصدرا
وهذه القصيدة أرجح أن الشاعر نظمها أثناء اتصاله الأول بجوهر ، فقد يكون جوهر بعد هذا الفتح سمي بجيشه ، وفي حاشيته ابن هاني ، لمقابلة المعز ، وقدم إليه هديته ، فنظم ابن هاني هذه القصيدة في مدح المعز وقائده ، ووصف هدية قائده إليه .

نستطيع من ذلك كله أن نقول إن الشاعر اتصل بجوهر في أواخر عام ٢٤٧هـ ، وظل في حاشيته عدة شهور ، إلى ما بعد مطلع عام ٣٤٨هـ ، ولكن صلات جوهر القليعة ، دنته إلى أن يقصد بشعره أحد الأمراء ليعيش في ظلاله ، وفعلًا سار الشاعر ميمًا وجهه شطر أمير عرف بالبذل والسخاء ، وبالاغداق على الأدماء والشعراء ، فألقى رحاله في فنانته ، وعاش أثرًا لديه ، مقربًا عنده ، وذلك هو أمير « الزاب » و « المسيلة » ، جعفر بن علي .

وقد عهد الخليفة المنصور الفاطمي في بدء توليه العرش عام ٣٣٤هـ إلى جعفر ابن علي القائد الفاطمي بولاية الزاب والمسيلة ، وأنزل معه أخاه يحيى بن علي يساعده في ولايته ، وعنى جعفر بأمور إقليعه ، فبنى القصور والمتنزهات ، وأقام له فيه سلطانًا ومجدًا ، وقصده العلماء والشعراء ، وظل في ولاية هذا الإقليم حتى توفي الخليفة المنصور عام ٣٤١هـ ، فأقره الممزر علي ولاية لما جلس على العرش بعد وفاة أبيه .

وسمع ابن هاني بأسر الأمير وجوده وأريحيته ، فهرع إليه عام ٣٤٨هـ ، يمدحه ويشيد بذكره بقصيدة أرجح أنها القصيدة الخسوفية في ديوان الشاعر ، التي أفاض فيها في الثناء عليه ، والاعجاب به ووصف جهاده وبطوكه ، وآدابه النبيلة ، وما يقول فيها :

خلقت شهابا تضيء الخطوب ولست شهابا يضيء للظلم
وإنك من معشر طفلم يتوج قبل بلوغ الحلم
ولست أبلى بأى بدأت بفخرى بكم أو بمدحى لكم
فتملى لشملكم جامع وشعبى بشعبكم ملتئم

وابن هاني في هذا البيت يريد أن يؤكد الصلة التي تجمع قومه الأزديين

بقوم الأمير ، ثم يقول :

حدث لقاءك حد الريسع وشميت نوالك شيم الديم

ثم يذكر عصف الزمان به وتحائف الخطوب عليه ، وبصور عفافه
وبعد همته ، الذين كانوا من أسباب محنته كما يقول ، فيقول :

أذم إليك اعتوار الخطوب وصرف الحوادث فيما أذم
وما أعان على الزمان عفاف يدي وعلو الهمم
لسان من العرب الأكرمين وفي أول الدهر ضاع الكرم

وتلقى الأمير الشاعر بالتقدير والعطف ، ودعاه إلى الإقامة في كنفه
ورعايته ، فامثل ابن هانئ في نشوة من البشر والفرح ، وأقام في ظلاله
يمدحه ويشيد بذكره ، أو يمدح أخاه يحيى ، أو ابنه إبراهيم .

وفي ظلال جعفر وأسرته عادت الطمأنينة إلى نفس الشاعر ، فقد كفى
شر الحاجة ، وأمن غائلة الأحداث ، وركن إلى ألوان من ترف الحياة ونعيمها
وهدوئها وطمأنينتها ، وفرغ الشاعر لفته وشعره ، بهد أن كان قلبه نهبا
موزعا لا يفيق من آلام الحياة وخطوبها ، لقد كان قبل اتصاله بجعفر يزجي
لآماله السحاب ، فلا ينجلى إلا عن سراب خادع ، وسحاب مبدد :

قد كنت قبل نذاك أزجي عارضا فأشيم منه الزرج المنجبا
لم تدنني أرض إليك وإنما جثت السماء ففتحت أبوابا
ولم لا ؟ وقد أخذ جعفر بضيقه ، وأنقذه من صولة الخطوب :

صرفت عنان الشعر إلا إليكم
وفيكم فاني ما استطعت له صرفا
لما أحمد قد كان لي في الأرض موئل
فلم أبغ لي دكنا سواك ولا كهفا

وما الشمس تسكسو كل شيء شماعها
 بأسف عندى من نذاك ولا أضف
 أخذت بضمي والخطوب روائع
 سمعت زمانى كله خطرة خفها
 أمنت بك الأيام وهى مخوفة
 ولو بيدك الخلد أمنتى الخفها

وهكذا كانت مدائح ابن هانى فى جعفر وأسرته ، وكانت كذلك مرأته
 البليغة فى أمه وفى حفيده : ابن ابنه إبراهيم بن جعفر بن على ، والذى تبلغ
 كلها سبعة وعشرين قصيدة ، كانت جميعها تفيض عاطفة وقوة وروحاً ،
 وتصدر عن إخلاص ووفاء وشعور بأذى هذه الأسرة عليه ، وتفديره
 لحدها به وموتها الصادقة له فى الحياة . ولعل فى هذه الأبيات التى
 نظمها من قصيدة طويلة فى جعفر ، ما ينم عن روح ابن هانى وعواطفه نحو
 هذه الأسرة الكريمة :

خليلى ابن الزاب عنا وجعفر وجنة خلد لمت عنها وكوثر ؟
 فقبل نأى عن جنة الخلد آدم فراقه فى ساحة الأرض منظر
 خليلى ما الأيام إلا بجعفر وما الناس إلا جعفر ، دام جعفر

لقد كان ابن هانى قبل اتصاله بجعفر بالأساء محروماً ، لا يجد له نصيراً
 يخفف عنه عبء الحياة ، وكان كثير الشكوى من زمنه والأحداث التى كان
 يصبها عليه ، فبدل بالشقاء نعيماً ، وحى برأسه جعفر به ورعايتها له
 وآلامه وبؤسه ، فابتدأ حياة جديدة فيها أمل ورجاء ، وطمانينة وصفاء ،
 ونعمة ورعاه .

وكانت شاعريته فى هذه الفترة بقظة قوية مشبوبة ، يثيرها فى نفسه إلهام
 الشباب وحوافز الأمل ، والعزم على الظهور فى هذا المجتمع الجديد ، وكثرة

أما دى جعفر عليه . لقد كان في نضرة الشباب ، ومتمعة الحياة ، وبهجة الأمل ، وكان يرى أن جعفر ليس بغريب عنه ، ولا بقصى منه . فهو من عنصره ونجماره وأصله القديم ، ثم كان مع ذلك يعيش وسط خصومات أدبية أبطالها شعراء المغرب وأدباؤه الذين أدخل ذكرهم ابن هاني . ونظمه الجيد الممتاز ، كانت كل هذه البواعث حافزا له على تجويد فنه ، وصقل شعره ، والابداع في ما يسحر به من قريض ، فكان يخرج قصائده إخراجا فنيا خلايا ، فتخرج وهي مستوية الأطراف ، جميلة السبك ، جزلة اللفظ في عذوبة ، يشيع فيها أثر التألق والتعذيب . على أن الشاعر لم يكن مدفوعا إلى ذلك كله ببواعث مادية صرفة ، بل كان يصدر عن عقيدة قوية غلاية ، كان إذ جعفر من أشد الدائنين عن الفاطمية وسلطانها السيامي ، وهي التي أخلص لها الشاعر منتهى ما في وسعه من إخلاص ، فدحه وكأنه كان يمدح القرعكة التي آمن بها ، وكافح من أجلها طول الحياة .

ومهما كانت الأسباب فإن شعر الشاعر في هذه الفترة القصيرة الحافلة كان بعيدا عن سمات التكلف ، مصبوغا بصيغة الشاعرية المطبوعة ، وبدأت تظهر فيه شخصية الشاعر الفنية بوضوح وجلال ، وتظهر فيه كذلك صورة حياته التي خضعت لألوان الحياة الجديدة المنترقة في ظل جعفر وأسرته .

وعاش ابن هاني في الزاب نحو عامين ، لم يكن همه فيها إلا حضور مجلس الأمير والاتصال برجال الدولة ، والمتعة بنعيم الحياة وجمالها ، وتصوير جوانب هذه الحياة كلها في شعره ومدائحه التي كان ينشدها الأمير وقومه .

ولم يكن ابن هاني يشعر بأنه غريب في هذه البيئة ، ولا كانت أيادي جعفر عليه توقفه مواقف المهران أو الذلة ، ولا كانت قصائده فيه وسيلة للسؤال والاستجداء فحسب بل كان يرى في صلات النسب بينه وبين جعفر حافزا له على التنويه به ، والاشادة بمآثره ، ويرى فيها ما يعزز مكانته لديه ، ويرفع مقامه عنده ، أليست أمرة جعفر يمانية قحطانية يمنية ، وأليست هي من مكة أحلاف قومه الأولين ؟

لما لتجمعنا وهذا الحى من بكر أذمة سالف لم تخفر
أحلامنا فكأننا من نسية ولداتنا فكأننا من عصر

وكانت هذه الصلة البعيدة بين الشاعر والأمير تمد ابن هاني روح ملؤها
الشعور بالكرامة والعزة في ظل جعفر ، وتؤيده بأسباب الحياة والقوة في
تلك البيئة وبين خصومه والهاقدين عليه من الأدباء والشعراء ، كالزهراني
كاتب الأمير الذي أدخله ابن هاني ، وصور الخصومات الأدبية التي نشأت
بينه وبينه في قصيدته التاسعة والعشرين التي هجا فيها الزهراني شر هجاء .

وأصبحت هذه الخصومات وسراها لانضير الشاعر بشيء ، مادام قوم
الأمير هم بنو عمه ، وأعيان معشره ، وأملاك قومه ، والخصارم من نجره ،
كما يقول .

فإذا ما أردنا أن نضع هذا الإنتاج الفني للشاعر في هذه الحقبة موضعه
من تراث الشاعر الأدبي ، فإن حكمنا عليه أنه من روائع الآثار الأدبية في
حياة ابن هاني الفنية .

وعلى أي حال فقد سارت قصائد ابن هاني في جعفر وأسرته ، ومحدث
بها الناس ورواها الأدباء والرواة وأنشدت في مجلس المدز وهو في القيروان ،
فأرسل إلى جعفر يطلب منه ابن هاني ، وامثل الأمير الأمر ، وأعد للخليفة
هدية نفيسة أرسلها إليه ، وكان فيها ابن هاني الشاعر . بل كان هو أغلى
ما فيها من نفائس

وفي عام ٣٥٠ هـ وصل الشاعر إلى القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية ،
فسعى إلى الخليفة ومثل بين يديه ، وأنشده شعره ومدائمه في الخلافة ،
وجلال الدولة وعظمة أيامها ، وتصوير عزمها الشامخ . ومجدها المكين .

والتاريخ الأدبي والسياسي لا يرشدنا بالتحديد إلى العام الذي اتصل فيه

الشاعر بالمعز ، ولكن دراسة تراث ابن هانيء الشعرى ومدائح المعز ،
تهدينا إلى هذه الحقيقة المجهولة في ثنايا تاريخ ابن هانيء الأدبي المجهول .

وكذلك لائرشدنا المصادر الأدبية على القطع واليقين إلى أول قصيدة
أنشدها ابن هانيء في مجلس المعز الفاطمي لأول عهده بالمثل بين يديه .

على أن لابن هانيء في المعز إحدى وعشرين قصيدة من أطول القصائد
الفنية وأبلغها وتبلغ نحو نصف تراثه الأدبي ، وقراءة هذه القصائد قراءة
واسعة ، وتفهمها تفهماً تاريخياً ، وتذوقها تذوقاً أدبياً يهدينا إلى كل
ما نريد .

ومن بين قصائد الشاعر في الخليفة أربع قصائد نستوقف نظر الباحث
المتأمل ، وتعطيه الدليل الملبوس على رأيه في هذه المشكلات الأدبية .

فأولى هذه القصائد نظمها الشاعر عام ٣٤٨ هـ في وصف هدية جوهر
للمعز ، ومطلعها .

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرياً وأورد عن رأى الإمام وأصدرا

وفيها يشيد بالخليفة وبجوهر ويصف هدية جوهر إليه ، وهذه القصيدة
قد تدفعنا إلى القول بأن اتصال ابن هانيء بالمعز كان عام ٣٤٨ هـ ، لا عام ٣٥٠ هـ كما
نقول . ورأى في ذلك أن هذه القصيدة نظمها الشاعر حين كان في حاشية جوهر
لما التقى القائد بالخليفة بعد الظفر الحربى الذى ظفر به فقدم إليه هديته التى
وصفها ابن هانيء في هذه القصيدة ، وهذا رأى مقبول ، فضلاً عن أنه يترك
لابن هانيء عامين يقضيهما في الزاب وفى نظم قصائده الماثورة في جعفر بن
على وأسرته .

والقصيدة الثانية ذكر الديوان أنه قيل عنها إنها أول شعر مدح به ابن
هانيء الخليفة المعز ، وفيها يقول الشاعر :

ملك أناخ على الزمان بكامل
ماذل صعباً في القياد جروحا
ويصف فيها أسطول المعز وقوته ، وتتبع بنى أمية لحركاته البحرية .
ويذكر ماتهم الذي تجاربت به الدنيا ، ورزء فقيدم الذي فقدوه ، ويدعو
إلى القضاء على دولتهم في الأندلس ، فيقول :

وأمية تحفى الدوال وما لمن أودى به الطوفان يذكر نوحا ؟
تجارب الدنيا عليهم مأتما فكأما صبحتهم نصيحا
ليسوا معايبهم ورزء فقيدم كاللابسات على الحداد مسوحا
أنفذ قضاء الله في أعدائه لتراح من أوتارها وتريجا
إلى أن يقول :

أعليك تختلف المناظر ؟ بدما جنحت إليك المشرقان جنوحا
أم فيك تختليج الخلائق مربة كلا وقد رضح الصباح وضوحا

والقصيدة قوية رائمة ، ويتجلى من قراءتها أنها نظمت على أثر انتصار
حربى لجيوش المعز . ولكن لا دى أى عام كان هذا الانتصار ، ونساءل :
من هو هذا المعز الذى لبست أمية رزءه فى الأندلس ، وتجاربت بمأتمه
الدنيا ؟ لم يفصح الشاعر بشئ ، ولا يبدو عندى أن يكون هو الملك الناصر
الذى توفى عام ٢٥٠ هـ . وإذا يكون تاريخ القصيدة هو هذا التاريخ ، وإذا
صح أنها أول ما أنشده ابن هانئ أمام الخليفة ، فيكون إذا بدء اتصاله به
هو عام ٢٥٠ هـ .

والقصيدة الكثة هى الكافية التى ذكر فيها هجرته وبواعثها ، والتى
حللنا جانباً منها فى هجرة الشاعر وفيها يقول :

سقى الكوثر الخلد دوحة ماشم وحيث معز الدين عنا الملائك

ويدعو فيها المعز إلى القضاء على دولة بني أمية في الأندلس ، ثم يذكر نفسه وشعره والخصومات الأدبية بينه وبين الشعراء والتي يصورها في قوله :

أرى شعراء الملك تنحت جانبي	وتنبو عن الليث المخاض الأوارك
تخب إلى ميدان سبقي بطاؤما	وتلك الظنون الكاذبات الأوافك
تسى قوافيها ، وجودك محسن	وتنشد إرانا ومجدك ضاحك
أبتلى سبيل القوم في الشعرمة	طمسوح ونفس للدنية فارك
وماسرنى تأميل غير خليفة	وأنى للأرض العريضة مالك
نحول وإقتار وفي يدك الغنى	فحياءا بين هاتين هالك

والقصيدة ليس فيها أى إشارة تاريخية تدل على تاريخها الأدبي ، ولكنى أرى أنها من أوائل القصائد التى نظمها ابن هاتىء فى المعز ، بل لا يبعد عندى أن تكون أولها كلها ، لأن ذكر هجرة الشاعر ووصفه لحالته ، ودعاء الخليفة إلى العطف عليه والعناية به ، وبيان إخلاصه لعقيدته ، وأن هذا الإخلاص كان سبب محنته فى الأندلس ، كل هذا دلائل على ما أقول ، ويؤيده تصويره لهذه الخلافات الأدبية التى نشبت بينه وبين شعراء الدولة مما يرشدنا إلى أن القصيدة نظمت قبل أن يدعم مركز الشاعر فى بلاط المعز .

أما للقصيدة الرابعة فى تونينته : التى نالت إعجاب الخليفة ، وكوفىء عليها الشاعر مكافأة طائلة بلغت خمسة عشر ألف دينار ، وذكر الديوان أنه قد قيل فيها إنها أول ما أؤتده الشاعر بالقيروان من شعر فى المعز ، ومطلعا :

هل من أعقة عالج يبرين أم منهما بقر الحدود العيين ؟
ويحرض فيها المعز على العبور إلى الأندلس والقضاء على دولة بني أمية

فيها . والقصيدة رائعة ، قوية في نظمها وفي روحها وفي الفكرة التي تملأ جوانبها بالحياة الفنية المشبوبة ، وهي على أي حال من أوائل القصائد التي نظمها ابن هانيء في المعز إن لم نجزم بأنها أولها . .

وإذا فاستطيع أن أقول : إن القصيدة الأولى نظمت قبل اتصال الشاعر بالمعز بعامين ، وأما القصائد الثلاث الباقية فقد نظمت كلها عام ٢٥٠ هـ ، وهو العام الذي اتصل فيه ابن هانيء بالمعز ، وأول قصيدة أنشأها في مجلسه هي الكافية ثم تلتها الحائية ثم التونية .

وعلى أي حال فقد أقام ابن هانيء في فناء الخليفة ، واستظل بظله ، وعاش في القيروان عاصمة دولته ، يروح ويغدو كل يوم إلى الخليفة ، ينشر أمامه الثناء المحمدي والشعر الساهر ، والقوافي البليغة التي يشيد فيها بالدولة والخليفة .

وبذلك ابتدأت صفحة جديدة في حياة الشاعر ، فعاش في مجد الملك وظله ، وبين سمع الزمان وبصره . .

والدولة الفاطمية تذهب نهباً إلى فاطمة الزهراء ، وكانت عاصمتها الأولى هي المهديّة ، التي تنسب إلى أول الخلفاء الفاطميين المهدي .

وقد حكم المهدي هذه الدولة الجديدة بحور بع قرن (٢٩٦ - ٣٢٢) ، ولما توفي خلفه على العرش ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤) ، ثم خلفه بعد وفاته ابنه المنصور (٣٣٤ - ٣٤١) ثم حكم المعز الدولة بعد أبيه .

هذه خلاصة التاريخ السياسي لعصر المعز الفاطمي ، الذي كان كاه عصر كرماء وجلاد ، وقد شاهد ابن هانيء كثيراً من هذه الأحداث التاريخية العظيمة ، واتصل بالمعز خلالها اتصالاً وثيقاً ، ونظم فيها كثيراً من أجل قصائده وتغنى بمجد الدولة ، وناضل عنها خصومها الدياسيين ، فلتحدث

إذاً عن التاريخ الأدبي لابن هاني في هذه الفترة فهو وحده صورة واضحة لعصر المعز : ولأحداثه التاريخية الحافلة .

كانت قصائد ابن هاني في أول اتصاله ببلاد المعز تدور حول إثبات وجود الشاعر والتمكين لنفسه ولشخصيته في الدولة ، وتصوير آلامه والخطوب التي احتملها ، وشكر أبا دى الخليفة التي تغدق عليه المال والعطاء . ولكنها مع ذلك كله لم تخل من الحديث عن مجد الدولة .

وفي انتصارات الفاطميين الحربية والحرية على الروم عام ٣٥١ هـ إلى عام ٣٥٤ هـ ، نظم ابن هاني كثيراً من القصائد الرائعة التي صور فيها هذه الانتصارات الباهرة بأبلغ تصوير ، ثم كان فتح مصر عام ٣٥٨ هـ فألهم الشاعر بقصائد جميلة ، ثم نظم ابن هاني بعد ذلك قصائد هي سرورة صادقة لما تلا ذلك من أحداث حتى وفاته عام ٣٦٢ هـ .

« ومعربات » ابن هاني هي قصائده التي أنشدتها المدي ، والتي ينما مكانتها في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع ، وهي ثروة أدبية ، ومجد أدبي لابن هاني ، فنه .

لا أستطيع أن أحلل كل هذه القصائد « المعربات » التي تبلغ إحدى وعشرين قصيدة ، في هذه الفصول الموجزة .

ومن هذه القصائد همزيتة التي هي أول قصيدة في ديوان الشاعر ، مدح بها المعز وهناءً بشهر رمضان ، وقد بدأها بقول ظم في مطلعها بمظهر البداوة التقليدي في الغزل فصور الشاعر عزة قوم حبيته ، وغلوم في الخيمة عليها ، وأشار إلى ذكريات التلاقي ومآسى الفرق ، وإلى بعض مظاهر الجمال في خلقها ، ثم خلاص من ذلك إلى نفسه وإلى مدح الخليفة .

ثم وصف أسطوله وقوة ، وسطوته على الأعداء ، ويستمر في الإشادة به ومن معربات ابن هاني قصيدته التي مدح بها المدي ، وذكر الفتح الذي

كسبه جيشه فى صقلية . والذي قتل فيه « منويل » ، واجتاز المسلمون بعده
البحر إلى جنوب إيطاليا ، ولابد أن هذا الفتح هو النصر الكبير الذى يتم
قريب سنة ٢٥٤ هـ . . . ومطلعها :

يوم عريض فى الفخار طويل ما تنضى غرر له وحجول
ويقول فيها :

سل ردم منويل وأنت عذرتي فى أى معركة ثوى منويل
ويشيد بهذا النصر إشادة بالغة طويلة ، إلى أن يختتمها بقوله :
شهد البرية كلها لك العلى إن البرية شاءت مقبول
وهناك قصيدة أخرى نظمت أيضاً فى تلك المعارك الحربية بين
المسلمين والروم ، ومطلعها :

قامت تميس كما دافع جديك وأنساب أيم فى نقا يتهيل
ويقول فيها :

نصر الإله على يدك عباده والله ينصر من يشاء ويخذل
لن يستميق الروم من سكراتهم إن الذى شربوا رحيق سلسل
وبهمكم بنى العباس الذين خذلوا فى ثغور أشام أمام الروم ويستمر
فى الإشادة بانتصار المعز على الروم فى صقلية إلى أن يقول :

ذا المجد لا ينفى سواه وذا الذى يبنى لآل محمد ويؤئل
والقصيدة جيدة يشيع فيها الحب وحرارة الملاحظة ، ويتجلى من
روحها أنها نظمت فى الإشادة بالنصر الفاعلى على جوش الروم واسطوهم
عام ٢٥٤ هـ .

وله قصيدة أخرى في الإشادة أيضاً بهذه الانتصارات الكبيرة في صقلية
وجنوب إيطاليا، بدأها بالغزل ثم خلس إلى مدح المعز فأفاض في وصف
بأسه وقوته الحربية ونسكائه بالروم . ويقول :

إذا ذكروا آثار سيفك فيهم فلا القطر معدود ولا الرمل محسوب
وفيما اصطلوا من حرب بأسك واعظ وفيما أذيقوا من عذابك ناديب
ويتهكم بيني العباس وبضعفهم أمام الروم في الشرق ، وبينى أمية في
الغرب تهكمه بالروم ، ويتفامل للمعز ودولته بملك العالم الإسلامي ، ويقول
فيها :

إذا ما مدحناكم تضحك بيننا وبين القوافي من مكارمكم طيب
فإن أك محسودا على حرم دحك فقير تكير في الزمان الأعاجيب
أنى كل عصر قلت فيه قصيدة على لأهل الجهل لوم وتثريب
وما غاظ حسادي سوى الصدق وحده

وما من سجايا مثلى الألفك والحبوب
وما قصد مثلى في القصيد ضراعة ولا من خلالي فيه حرص وترغيب
أبن موضعي فيهم ، ليفخر غالب يبين بسياه ، ويدحر مغلوب
وقد أكثر وأفاحك حكومة فيصل ليعرف رب في القريض ومربوب

والقصيدة طويلة جيدة ، نظمت كسابقاتها في انتصارات المعز على الروم
في صقلية ، ووجد الشاعر فيها مجالاً للسخرية بالعباسيين والامويين ، وتفامل
للدولة الفاطمية بالمجد وسيادة العالم الإسلامي ، ويظهر من روحها الأخيرة
أن الشاعر كان معرضاً لحملات خصومه من الشعراء ، فطلب من المعز أن
يثصفه منهم ، ويحكم بينهم وبينه ، عليه أوله ، وهناك ظاهرة واضحة في
هذه القصيدة وهي روح التأثر الفني بالمتنبي وفنه .

فلذا ما تركنا هذه المرحلة التاريخية في حياة الشاعر والدولة ، وجدنة قصيدة تصور هذا العهد التاريخي الذي تلامس ٢٥٤ ، ومطلع هذه القصيدة :

تقدم خطي أو تأخر خطي فإن الشباب مشى القهقري

خلص فيها من ذكر شبابه الراحل ، ومشيه النازل ، وذكر بات طهوره وصباياته وهواه وحبه ، وشغفه بالصيد على الخيول الكريمة التي يصفها وصفاً بمتناً ، وخلص من ذلك كله إلى الاشادة بالمعز ، إلى أن يقول :

فأهون علينا بسخط الزمان إذا ما رأنا بعين الرضا

والقصيدة تؤكد لحق الفاطميين في الخلافة، ونضال سياسي ضد الأمويين وهي تصور سياسة المعز واتجاهاته بعد عام ٣٥٤ هـ .

وقد مكث الشاعر نحو أربع سنوات ينظم الشعر في المعز ، بضمته عواطفه نحوه ونحو دوائه ، وآمانه الواسعة بملك الفاطميين العالم الاسلامي . وقصائده في هذه الفترة خالية من ذكر المعارك الحربية والانتصارات الظافرة لأنه لم تقع فيها معارك ولا أحداث تاريخية كبيرة .. ومن بين قصائده هذه قصيدة مدح بها المعز وهناك بعيد الفطر ، ووصف موكبه إلى المصلى ، والمظلة والخيل التي امتطاها . إلى آخر ما ألم به الشاعر في هذه القصيدة من مدح وأغراض ، ومطلعها :

قرب في مآثم على العشاق وليس الحداد في الأحداق

ومنحن الفراق رقة شكروا من حتى عشقت يوم الفراق

ومع أجيرة الذين غدوا دمع طليق ومهجة في وثاق

حاربهم نواب الدهر حتى آذنوا بالفراق قبل التلاق

والقصيدة صادرة عن ذوق مترق يناسب حياة الشاعر المترفة بعد أن
أتى الأعباء عن كاهله . ووطدت مكانته في الدولة ، وهي تصور عهد
الاستقرار السياسي الذي انتهت إليه دولة المعز ، بعد توطيد دعائهما في
المغرب ، وبعد انتصاراتها العظيمة على الروم في صقلية والبحر الأبيض ، أي
بعد عام ٣٥٤ هـ .

ثم يدخل عام ٣٥٨ هـ ، فتبتدى مرحلة جديدة في حياة الفاطميين ،
وكيانهم السياسي ، ويسير جوهر بجيش لجب لفتح مصر فيودعه ابن هانيء
متمنياً له التوفيق في أغراضه الحربية والسياسية الكبيرة ، فإذا ما عاد من
تشجيع جوهر وجيشه دخل المعز ينشده قصيدته التي مطلعها :

سفتنى بما جت شفاء الأراقم وعانبنى فيها شفار الصوارم

بدأها بالغزل التقليدي ، ثم خلاص منه إلى أناشيده في المعز فيقول :
فشيعت جيش النصر تشيع مززع وودعته توديع غير مصارم
ثم يذكر الجيش وبنوه بقائده تنويهاً بالغاً .

وبعد قليل يصل إلى المعز نبأ فتح مصر على يد قائده جوهر ، فيصور ابن
هانيء الفتح وأنباءه ونتائج السياسة تصويراً باهراً في قصيدة مطلعها :

يقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟

فقل لبني العباس : قد قضى الأمر

وقيل إن الشاعر بدأها بدعوة المعز إلى فتح بغداد :

تجهز إلى بغداد قد فتحت مصر وأنجز صرف الدهر ما وعد الدهر
تقول بنو العباس هل بلغ المدي فقل لبني العباس قد قضى الأمر

وهو يدل على طموح الفاطميين السياسي ويستترسل ابن هانيء في قصيدته
استرسالا جميلا، فيصور الفتح وأثره ومداه وما ترتب عليه من نتائج ويصف
الجيش الفاتح، ودخوله الاسكندرية، ورسول القاهرة إلى جوهر، ثم
سيره إليها، وقضاه على الدولة الإخشيدية، ويدعو الشاعر العالم الاسلامي
إلى أن يستظل بلواء الفاطميين.

ويقول في أواخرها:

حبیب إلى بطحاء مكة موسم تحییء هذا، فيه مكة والحجر

إلى أن يقول:

رضینا لكم أهل مصر بدولة أطاع لكم فی ظلها الأمن والوفر

لكم أسوة فینا قدیماً فلم يكن بأحوالنا هنكم خفاء ولا ستر

وفى ختامها يقول:

ألا إنما الأيام أيا ملك التي لك الشطر من نعماتها ولی الشطر

والقصيدة من أجمل شعر ابن هانيء.

ولما وطد الفاطميون مكانهم في مصر عزموا على التوغل في الفتح
لأخذ الشام والعراق، ويصور ابن هانيء ذلك قصيدة له وأشار فيها إلى اندفاع
الفتح الفاطمي، وسيره في طريقه دون هوادة، ويقول فيها:

فتربصوا فاقه منجز وعد، قد آن للظباء أن تتكشفا

هذا المعز ابن النبي المصطفى سيذب عن قبر النبي المصطفى

وكانني بلواء نصرک خافقاً قد حام بين المروتين ورفقا

والقصيدة طريفة، وتاريخها الأدبي يمكننا أن نحدده عام ٣٥٩ هـ.

وفي عام ٣٦٠ هـ قضى المعز على ابن الخوز الثائر في المغرب ، والذي نقض
نقض عهد الطاعة للخلافة ، وعاك في الأرض فساداً نحو طامين ، ولما قتل
جلس المعز يستقبل تهاني رجال دولته ثلاثة أيام ، وكان بين هذه التهاني -
قصيدة ابن هاني ، التي يقول فيها :

ليعقد التاج هذا اليوم مفتخراً إن كان توج يوم سائر المثل
فيه الريمعان : من فصل الربيع ومن

وقائع النصر تشفى من جوى الخلل
والقصيدة طويلة ، تقارب المائة ، وهي كسابقاتها دعاية قوية للدولة
وسيادتها .

وفي عام ٣٦١ هـ انتصرت جيوش المعز على القرامطة في الشام ، وبلغ
هذا النصر المعز ، فنظم ابن هاني فيه قصيدة .

وبقيت من معزيات ، ابن هاني قصيدة طويلة جداً ، تبلغ مائتي بيت
وهي أطول قصائد الشاعر ، وقد قيل إنه نظمها ربعت بها إلى المعز بالقاهرة .
وهو مقيم بالمغرب وأنها آخر قصائده . ومطلعها :

أصاغت فقلت : وقع أجرد شيعظم

وقد نقد ابن رشيق هذا المطلع في عمدته (١) ، والقصيدة يدقها الشاعر
بالفزل ثم يخلص إلى المعز ومدحه ، ووصف جيشه وبطولته إلى قوله :

قصارا ملك الأرض لا ما يرونه من الحظ فيها والنصيب المقسم
ويستمر في تفاوله لدولة المعز ، ويصور حالة الشرق وضعفه ، واستبداد
بنى بويه بأمر الخلافة العباسية ، إلى أن يقول :

سرام رناع بين جهل وحيرة وملك مضاع بين ترك ودبل
ويهدد بني أمية بانتقام الفاطميين ، ويطلب الخليفة أن يحسم داهم ،
ويستمر في تهكمه بهم ، إلى أن يقول :

وعندى على بعد المزار ونأيه قصائد ترى كالبحان المنظم
إذا أشامت كانت لبانة معرق وإن أعرفت كانت لبانة مشتم
تطاول عن أقدار قوم جلالة وتصغر عن قدر الإمام المعظم
ولما تلفتك المواسم آنفا تربصت حتى جئت فردا بموسم
ليعلم أهل الشرق والغرب أننى بنفسى لا بالوفد كان تقدمى

والقصيدة جميلة ، وأستبعد أنها أرسلت للمعز في مصر ، لأن المعز وصل الاسكندرية في شعبان ، والقاهرة في رمضان عام ٣٦٢ هـ ، والشاعر لقي مصرعه في رجب من هذه السنة ، فإما أن يكون ابن هانيء أرسلها بعد فراقه المعز وقبل أن يصل المعز مصر ، وإما أن يكون قد أرسلها إليه والمعز في برقة يرتب أمور الدولة قبل رحيله إلى القاهرة ، وقد دخل المعز برقة في شوال عام ٣٦١ هـ ، ولم يرحل عنها إلا بعد أربعة أشهر أو يزيد ، واعتذر الشاعر للمعز في القصيدة عن عدم مصاحبته له في رحلته إلى مصر بأن أهله تركهم في الزاب ، ولولا ذلك لما كان له في الزاب أمل ولا حاجة ، وذلك معقول غير بعيد ، ولا يبعد أيضاً أن يكون الشاعر نظمها وهو مسافر إلى الزاب لزيارة أهله وأصدقائه ، وأرسلها إلى المعز في عاصمته بالقيروان قبل أن يرحل إلى مصر ، وذلك أيضاً غير بعيد .

وأخيراً فهذه أهم معربات ابن هانيء التي نظمها في الإشادة بالمعز ودولته وفي الدفاع عن حق الفاطميين في الخلافة ، ومناضلة أعدائهم من الأمويين والعباسيين وسواهم من الثائرين والروم ، وهى قصائد تحتل في الأدب العربي مكانها المتميز .

وفى أثناء هذه الحقيقة التي قضاها الشاعر في بلاط المعز اتصل بكثير

من الأمراء ورجال الدولة ، ومدح بعضهم بقصائد جميلة . ومن هؤلاء :

١ - الأمير طاهر والأمير عبد الله إخوة الخليفة المعز الفاطمي فقد مدحهما بقصيدته :

امسحوا عن فاظري كحل السهاد وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد

٢ - أبو الفرج الشيباني ، وهو صاحب أعمال الصعيد ، ومسخر جبل أوراس بالمغرب عام ٣٤٦ هـ ، كما يقول الشاعر ، ويتجلى من القصيدة الخامسة في ديوان ابن هاني أن أبا الفرج كان من ولاية الصعيد في عهد الاخشيديين ، ثم سار إلى الفاطميين وكان قائداً في حملة جوهر على مصر ، ومرشداً للجيش الفاتح ، ومن هذه القصيدة :

أنت السبيل إلى مصر وطاعتها ونصرة الدين والإسلام في حلب
أنت صاحب أعمال الصعيد بها قدما وقائد أهل الخنم والطنب
وكم تخاف في أوراس من سير سارت بذكر في الاسماع والكتب
ثم يصف مساعدته لجوهر في فتح مصر ، إلى أن يقول :

فقد سرى بسراج منك في ظلم وقد أعين بسيل منك في صلب
وإذا كان معنى ذلك أنه قد حده بأنه رائد جوهر إلى مصر ، فتكون هذه القصيدة قد نظمت بعد عام ٣٥٨ هـ .

ولابن هاني فيه قصيدة أخرى ، أكد فيها صلوات النسب البعيد بينه وبين هذا القائد واسترسل في مدحه والتنويه به ، إلى أن يقول :

ومن مواهبه الرأيات خافقة والمعاديات إلى الهيجاء تستق
وله فيه كذلك قصيدة لامية جميلة ، ويقول فيها :

قضى كل سعى من مساعيه قبلة يصلى إليها كل مجد ونائل

ويقول منها في قومه :

- أولئك من لا يحسن المجد غيرهم ولا الطعن شررا بالرماح الذوابل
فلم يدر إلا الله ما خلقوا له ولأما أثاروا من كنوز الفضائل
- ٣ - جعفر بن فلاح القائد الفاطمي الذي قتل في أثناء نزاله للقرامطة
بالشام عام ٥٣٦٠ هـ ، وفي ديوان الشاعر عدة أبيات فيه .
- ٤ - أفلح الناشب عامل برقة ووالها بالعز ، وله فيه قصيدة نونية
منها :

حيوا جلالة قدده فكأنما حيوا أمين الله في الأيوان
ومن هذه القصيدة نعلم أن أفلح كانت الدولة وكلت إليه بعد فتح مصر
القضاء على ثورات آل قره من عرب البحيرة ، فنجح في ذلك ، نجاحه في توطيد
دعائم الملك والأمن في برقة ، ولعل هذه الثورات قامت بتحريض العباسيين
عند قدوم جيش القرامطة إلى مصر عام ٣٦٠ هـ فيسكون ذلك هو تاريخ
هذه القصيدة .

٥ - أبو عبيد الله الحسين السكاكبي صديق ابن هاني ، ومدحه بقصيدة
صغيرة ذكر فيها بلاغته ومنها :

تمشى البلاغة خلفكم وأمامكم وطيب ما تطؤون بالافدام
وبعد حياة حافلة ، خرج الشاعر مع المعز ، يودعه في سفره إلى مصر
عام ٥٣٦٢ هـ وهو على عزم الإحاق به ، بعد أن يعود إلى أهله ، فيمضيهم للسفر
معه إلى القاهرة : وبعد أن رحل المعز وودعه الشاعر ، تأمر عليه بعض
خصومه من رجال السياسة والأدب والشعر ، وأسفرت هذه المؤامرة عن
اغتيال الشاعر لسبع ليال بقين من رجب عام ٥٣٦٢ هـ ، وهو في سن الثانية
والأربعين .

وطوبت حياة رجل كان الأثير العزيز عند المعز ورجال دولته ، وختمت
صفحة شاعر ممتاز خلده شعره بين كبار الشعراء في عصره .

ووصل نعيمه إلى المعز وهو سائر في طريقه إلى مصر فحزن وجزع وقال :
 « لقد كنا نرجو أن نفاخر به أهل المشرق فلم يقدر لنا ذلك ، ، ولكن حم
 القدر ، وحان الأجل ، ولكل أجل كتاب .

واقدر كانت أخلاق ابن هاني أخلاق الرجال الذين يتوزون بأنفسهم
 ومحتدم ، ويقدرون الواجبات الملقاة على كواهلهم في الحياة ، ويصورها
 لنا ابن هاني في صورة من السخاء والنبيل والوفاء والشرف وبعد الهمة
 والآفة من المواقف .

لاني لآنف أن يعيل بي الهوى أو أن يراني الله حيث نهاني

وغزل ابن هاني التقليدي البريء ووصفه القليل للخمر ومجالسها وسفقاتها ،
 لا يصوران لنا ابن هاني في مظهر ينافي هذا المظهر النبيل ، وإن كان خصوم
 الشاعر أذاعوا عنه - في حياته وبعد حياته - أنه كان صاحب لذات وهو
 ودعارة ، ولعلمهم استندوا إلى آثاره الأدبية القليلة في الراح ومجالسها ،
 على أنها وحدها لا تكفي لهذا الحكم الذي حكم به عليه بعض المؤرخين ،
 فضلا عن أن ابن هاني لم تكن أحاديثه عن صبايات الهوى أو نشوة الراح
 حديث المستهتر ، فوق أنها لاتذع من أعماق قلبه . وخلجات مشاعره ، إنما
 كان الشاعر مقلدا في غزله وخمرياته . وكان يجاري في هذه الناحية الفنية
 سواء من الشعراء .

لقد كان ابن هاني في شغل بنفسه وحياته ونضاله عن أن يحيا حياة
 المجون والهم ، كان رجل كفاح ، ورجل طموح ، شغلته حياة الكفاح
 والطموح عن حياة اللذة والهوى والمجون .

ثم إن اتصاله بالمعز ، أيضاً ينأى به عن حياة الهم والاستمثار والمجون ،

وإذا رأى ابن هاني في اللهو راحة للنفس والفكر ، كما يقول ليحيى بن علي ،
فإنما كان اتجاهه إلى اللهو البري ، والمنمة التي لا تبعده عما آلفه وشب عليه
وتمسك به من تقوى وورع وجلال خلق ودين .

حياة ابن هاني الشخصية إذاً كما يصورها لنا شعره كانت مثالا للسمو
الخالق ، والطهر النفسي ، والبعد عن شهوات الحياة وأطماعها . ويدعم من
ذلك مكانة ابن هاني في بلاط المعز وعند رجالات الدولة وعظماؤها وحسن
تقديرهم إياه .

شخصية الشاعر ، كانت سماتها الغالبة عليه ، الشعور بالنفس ، والاعتداد
بالماضي الذي خلفه له الآباء والأجداد ، والبعد بنفسه عن حياة الرذائل والطمع
الساذب في الحياة ، وكان بكل هذه الجوانب كلها خلفه الطيب ، ورفاقه
النادر ، وبذل نفسه وصدرة ، فوق ثقافته وأدبه ، وشعره الذي كان يعتز
به ابن هاني كل الاعتزاز .

ثم نرى هذا الشعور المتغلغل في أعماق نفس الشاعر بمجده الذي ناله في
قصور الأمراء والقواد وعند الخليفة .

وكل هذه البواعث في نفس ابن هاني . جمعت شخصيته في الحياة التي
يعيش فيها قوية ، واضحة الأثر ، لها تقديرها الأدبي عند العامة والخاصة
من الناس .

لم يكن ابن هاني إذاً رجل لذة وترف كما كان أبو نواس ، ولا رجل
ثورة اجتماعية وفلسفة إنسانية كما كان المتنبي ، ولم يكن كذلك رجل فلسفة
عقلية ، ولا ناقداً اجتماعياً مسرفاً في التشاؤم من الحياة وخطواتها البعيدة
عن جادة الحياة كما كان المعري ، إنما كان رجل فكر سياسي .

واقعد نال ابن هاني من التوفيق في حياته ما قلنا ناله شاعر قلبه ، واستمد

من هذا الظفر قوة ومجدا ومالا ، عاش في ظلالمها إلى آخر شبابه ومدر
رجولته ، إلى أن وافاه أجله .

على أن كثيراً من يقرأون شعر ابن هاني . يتخيلونه شاعراً مداحاً فحسب ،
استجدى بشعره الأمراء والقواد والمعز . ويحسبون فنه فنا شعرياً خالصاً
لاحياة فيه ولا روح ، وابن هاني نفسه يرد على مثل هؤلاء الناس فيقول :

وما كنت مداحاً ولكن مفوها
يلبي إذا نادى ويكفي إذا استكفي

ويقول :

وما قصد متلي في القصيد ضراعة
ولا من خلالي فيه حرص وترغيب

وفي الحق أن ابن هاني مغامر سياسي ، كانت تسير معه في مغامرته
دولة ويؤيده ملك وشتى معاني الحياة .

ومذهب الشاعر في الحياة كان مذهبا عمليا سار به إلى هذا التوفيق الذي
كسبه وعاش في ظلالمه بعد هجرته إلى المغرب ، وهو في هذا بعكس المتنبي
الذي كان يريد أن يسير على ضوء ما يمتنى من مثل وآمال كبار ، فطمح في
المملك ، وخاصم الأمراء والولاة ، وسار في طريق آماله ، فإذا هي تتكشف .
عن سراب كسراب الصحراء ، وعن فشل فيما نشده الشاعر من غلات .
وأغراض وأمان .

فالحياء ومتعها عند ابن هاني سراب ، فالحب ضحكة وبكاء ، والدهر
ألفة وشتات ، والناس ظاعن ومودع ، ومقيم يسكن على راحل ، والناس
يبكون من الدنيا على غير طائل ، والماجل المرجو كالآجل ، وأجلها المخشى .
كما جلها ، والآيام عون لكل وغد ، بما هو مألوف لنفس العزيز . .

أيها الصب لاترع قالي إلى فرحات تشوبها ترحات
هكذا الحب ضحكة وبكاء وكذا الدهر ألفة وشتات

وقد خاض الشاعر أحداث الليالي والآلام :

غرض تراماني الخطوب فذا قسوس وذا سهم وذا وتر
فجزعت حتى ليس بي جزع وحذرت حتى ليس بي حذر
ومع هذه الآلام فقد عاش في طموح وإقدام وجذ، وطلب المجد من
طريق السيوف ، فوق طلبه بأدبه وفنه :

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف
وابتعد عن الذلة والهوان ، فذل العزيز لا يطاق :
إن ذل العزيز أفضح مرأى بين عينيه من لقاء الخوف
وكان لا يبالي بالفقر ، فالفنى شجن من الأشجان :
لا أرهب الاقتار بعد تيقنى أن الفنى شجن من الأشجان

ولقد كان ليثة الأندلس المرفقة ، وحضارتها الزاهية في عهد الناصر ،
والمنافسة السياسية بين دداد وقرطبة والمهديّة ، كان لذلك أثره في ازدهار
الأدب والشعر في الأندلس الوطن الأول للشاعر ، ثم كان لتنوع مظاهر الحياة
والطبيعة في الأندلس أثر في تلوين الشعر بلون خاص ، شاع فيه الوصف
ودقة التصوير وتنقل الخيال وسلامة الأسلوب ، والتأنق في الأداء ،
وأوحت هذه الحياة الشاعرة إلى الأندلسيين روح الشعر وإلهام القريض
فنظموه فنا يتحدث عن البيئة ومشاهداتها ، والعواطف وأسرارها ، والمجتمع
وحياته ، والشعراء وحياتهم الخاصة التي كانوا يحيونها : والآمال والذات
والمشاعر التي كانت تجيش بها نفوسهم ، وتختلج بها صدرهم . وأصبح
هذا الشعر يمثل جانبيين واضحين في الشعر الأندلسي :

أردهما طبيعة البادية التي كانت مأزول نفوس العرب في الأندلس

تحن إليهما ، وتؤمن بها ، وتسير على نهجها في التفكير والمعرفة والأخلاق .

والثاني طبيعة الحضارة التي كانوا يعيشون فيها ، والتurf الذي يملأ حياتهم ، والمجال الذي كان يتيم قلوبهم ويسحر أبصارهم في كل راد وبقة من بقاع الأندلس الفارقة في الشعر والسحر والجمال .

ويمثل هذا الاتجاه الفني في الشعر الأندلسي قبل ابن هانيء بقليل ، ابن عبدبه أديب الأندلس وشاعرها ومؤلفها . والمتوفى علم ٣٢٨ هـ ، في عهد الناصر ، أي بعد ثمانية أعوام من ميلاد ابن هانيء وقد حفل « العقد الفريد » لابن عبدربه بشتى المقطوعات والقصائد الشعرية ، التي نظمها ، والتي صور فيها ألوان الجمال في بيئة الأندلس الساحرة ، والتي صيقت في أسلوب عذب جميل يكاد يسيل رقة وجمالاً وخصباً .

وفي هذا الوسط الأدبي نشأ ابن هانيء واستمد ثقافته الأدبية ، ونظم « القريض » واتصل بالحياة في إشيلية وفي قصر أميرها ، فهل كان شعره صورة لهذه البيئة الاجتماعية والأدبية التي نشأ فيها وعاش في ظلها ؟

لايستطيع الباحث الإجابة على هذا السؤال ، لأن شعر الشاعر في الفترة التي قضاها في وطنه حتى هجرته منه إلى بلاد المغرب وهو في سن السابعة والعشرين ، قد ضاع كله ، ولم يبق منه أثر قليل أو كثير ،

ومع هذا فستطيع أن نقيس فن ابن هانيء قبل هجرته بفن الذي نظمته بعد هجرته مباشرة ، ونستطيع أن نقول على ضوء هذا القياس : إن الفن الأدبي للشاعر في الأندلس لم يكن يصور بيئته ، ولا يجاري فن أمثاله من الشعراء الأندلسيين ، ولا يساير روح التurf الأدبي والحضارة الفنية في الأندلس وطن الشاعر ، فما السر في ذلك والسبب فيه ؟

لعل مرجع ذلك إلى أن شخصية الشاعر الفنية لم تكن ظهرت بعد في

إنتاجه الفني ، إنما كان مقلداً لسواه من الشعراء ، لم يقلد المحدثين منهم .
الذى يجارى أدبهم وفهم روح الحياة في القرن الرابع الهجري ، وإنما قلده
الشعراء الجاهليين الذين عكف على حفظ أشعارهم . وتأثر بها في إنتاجه
وزعائه في فهم الفن ، وفي القريض ، طول هذه الفترة .

ورفد ابن هانيء على المغرب ، فوجد فيه شعراء ، اتخذهم أنداداً
لأساتذته ، كان من شعرائه على التونسي الشاعر ، الذي قال فيه ابن هانيء لما
هجاه شعراء المغرب بعد هجرته : « لا أجيب منهم أحداً إن أن يهجونني على
التونسي فأجيبه » (١) . وكان منهم عبد الله ابن الحسن الجعفي ، ومقداد
ابن الحسن الكتامي وسواهم من الشعراء . فماذا كان موقفه منهم ؟ وماذا كان
موقفهم منه ؟

لقد بذ ابن هانيء بفته جميع هؤلاء الشعراء فحسدوه ونقموا عليه ، ثم
أخذوه في هجائه والزراية به وبفته ، ولكن ابن هانيء عصفت بهؤلاء الشعراء
جميعاً ، وأخلت مكانتهم ، فصاروا بعد قليل من بقاءه في المغرب رعاً في
دولة القريض ، من حيث صار ابن هانيء أمير الشعر في المغرب كافة ، وكان
هجاء خصومه الشعراء له لا يزيد إلا إجادته وإبداعاً ، وفن الأمرء والخليفة
بفته ، وراه الشاعر مؤلفاً من نظام كواكب :

صنع بؤلف من نظام كواكب

طلعت لغير كثير والأحوص

وبصور الشاعر اختلاف زعانه الفنية والنفسية عن نزعات سواه من
الشعراء فيقول :

أثبت لي سبيل الفهوم في الشعر همة
طموح ونفس للندية فارك

ويقول للمعز :

فإن أك محسوداً على حرمدحكم فقير فكثير في الزمان الأعاجيب
أفي كل عصر قلت فيه قصيدة على لأهل الجمل لوم وتثريب
أبن موضعي فيهم ليفخر غالب بين بسياء ، ويدحر مغلوب
وقد اكزوا فاحكم حكومة فيصل

ليعرف رب القريض ومربوب

وقد حكم المعز له فأصبح شاعر الخليفة والدولة وأمير القريض في
دولة الفاطميين ، وجميع نقاد الأدب يسلون لابن هاني زعامة الشعر في
المغرب كافة ، ويقولون إنه لم يذه أحد من الشعراء في المغرب أو الأندلس ،
من سبقوه أو جاءوا بعده ، ويرون أن فنه ارتفع بمميزاته الخاصة والعامة
عن مستوى الفن والشعراء في المغرب والأندلس ، وأنه كان طبقة وحده
في البلاغة الأدبية وفي الانتاج الشعري في شتى عصور المغرب الأدبية ،
وإن كان يرى بعض المحدثين أن ذلك إجحاف بأمثال ابن زيدون . . .
ورأي في ذلك أن ابن زيدون كان صورة من صور يشته الأدبية ، أما
ابن هاني فقد كان وحدة بيئة أدبية خاصة ، وشخصية فنية مستقلة بعيدة عن
شخصية ابن زيدون وغير ابن زيدون ، كما كان المنفى شخصية فنية مستقلة
ولذلك قال النقاد : « ابن هاني مينيى المغرب وأبو الطيب منبى المشرق » .

وقد وضع الشعراء في المغرب والأندلس في ابن هاني - بعد عصره -
موضع الإكبار والتقدير ، ونهجوا نهجه في مذاهب الشعر ومعانيه وخيالاته
وأساليبه ، وجعلوه مذهباً أدبياً لهم على مر العصور الأدبية ، ونبغ شعراء

في الأندلس والمغرب كابن الحداد وابن عائشة وسوام من الشعراء الذين كانوا تلامذة له في فن الشعر ونظمه ، مما تراء مفصلاً في الذخيرة ونفح الطيب ، وذلك مظهر لمكانته في الشعر في بلاد المغرب طول عهده بالحياة الأدبية .

- ٤ -

والاتجاه الفني عند ابن هاني ينزع إلى روح البداوة ، التي تأثر بها فيما خرا من شعر الجاهليين والاسلاميين ، وهو كما يقول أبي الفرج الشيباني كان ولا شك ممن لا يحتذى حذو المحدثين في اتجاههم الفني في نظم الفريض بل كان يرجع إلى الشعر الجاهلي يأنس به وينزع منزعه ويحاكيه ، ويقول من قصيدته في الشيباني ، وقوله في مدوحه صورة لنفس نزعاته الأدبية التي ساد عليها ، يقول :

من لا يفاخر بالطائي (١) في زمن
ولا الخزاعي (٢) في عصر الخزاعي
ولا الفرزدق أيضاً ، والنخادر له ،
ولا جرير ولا الراعي النخيري
تلكن بعلقة الفحل الذي زعموا
في الشعر أو بامرئ القيس المراري
فهو لا يفاخر بالمحدثين كماي تمام ودعبل ، ولا بالاسلاميين كالفرزدق
وجرير والراعي ، ولكن يجعل غفره في الفن بعلقة وبامرئ القيس .

(١) هو أبو تمام الشاعر م ٢٢١ هـ

(٢) هو دعبل الشاعر ٢٤٩ هـ

وإن كان الفتح بن خاقان يذكر في مطمح الأنفس (١) أنه كان يتبع فيه أغراضه الفرزدق وجريير .

وبعد فشعر الشاعر صورة لهذه الروح ، وذلك الاتجاه والنوعية الفنية ، فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهروم وخیالهم الفنى وإغراقهم فى التصوير ، وتهويلهم فى التمثيل والخیال ، وإنما يمثل روح الجهد والإقدام والبدأة والقوة ، والصدق فى التصوير والتعبير ، ومذهبه التى مطلعها :

أصاحت فقالت : وقع أجرد شيطم
وشامت فقالت : لمع أبيض غنم

التي حاكى بها معلقة عنتره فى روحها وأسلوبها واتجاهها الفنى ، هذه المذهبة سدى لهذا الاتجاه . كما أن خلو شعره من آثار الامعان فى المعانى والاختلة كذلك أثر لهذا المذهب الشعرى الذى نزع إليه الشاعر ، وكذلك هو فى أسلوبه بهج منهج الجاهليين فى قوة الطبع وضخامة الأسلوب وجزالة الالفاظ وإشراق الديباجة ، وفى كثرة الأساليب المختارة التى تمثل روح البدارة فى التعبير والأداء ، ولعل هذا الروح أثر من آثار الوراثة فيه .

ومعانى الشعر عند ابن هانئ قرية واضحة تشبه معانى الإسلاميين ، وإن كان الشاعر يحاول فى أحيان كثيرة أن يبرزها بأسلوبه وصنعتة فى مظهر جديد مبتكر .

وفى شعره ألوان من الخيال الواقعى المجرد . وقد يحيد الشاعر أحيانا عن نهج الفن الواضح ، فيمدح مدوحه بالجمال كما يقول فى جعفر بن على :
وسنان من وسن الملاحة طرفه وجفونه سكران من خمر الصبا

يقول في أبي الفرج الشيباني وكأنه يغازله :
أهواه والصعدة السمراء تهذلني والقلب يدلى بعذري فيه عذري
وقد يقبح أحياناً في صوغ معانيه وتصويرها ، كما يقول :
وأحمل أياي على ظهر غارة وتحملني منها على مركب وعري
ويأخذ عليه كثير من النقد المباليغات ، وإسرافه في معزياته .
وأسلوب ابن هاني له ميزاته الخاصة التي تميزه عن أساليب من سواه
من الشعراء :

هو فيه بدوي جزل ، يرق حيناً ، ويبلغ في الجزالة والقوة والحوشية
مبلغاً كبيراً أحياناً أخرى .

وكان في طبع ابن هاني ميل إلى نزع من الغرابة والتكلف ، حتى حسب
بعض النقاد من الشعراء الذين يهرون بالفاظهم ، ومن هؤلاء النقاد المعري
وابن رشيق وابن خلكان .

وكثيراً ما زى الشاعر قد عمد إلى التحويل والتفخيم ، أو إلى الصنعة
وتكلف أساليب البديع في شعره ، فيجيد ، وتغني قوة أسلوبه مظاهر التكلف
في صناعته الفنية أحياناً ، ويشذ عن الجودة طبعه وصناعته في أحيان أخرى .

وظاهرة واضحة في أسلوب ابن هاني هي كثرة إطنابه وتفصيله ، مما
كان يؤدي به في بعض الأحيان إلى النزول عن مستواه الشعري ، فتراه يكرر
كثيراً من الصفات التي لا طائل تحتها والتي لاحظ فيها إلا إظهار مقدرة
الشاعر اللغوية : وهذه الظاهرة سبب من أسباب طول نفسه في شعره ،
الذي امتاز به ابن هاني ، ويشاركه فيه ابن الرومي ، إلا أن منشأه عند
ابن الرومي المعنى وبسط الحديث فيه ، وعند ابن هاني الأغراض والبواعث
الفنية التي نظم فيها ، وجانب اللفظ الذي كان يؤثره .

وأسلوبه على العموم سليم مطبوع ، لا يثذ منه عن سلامة الطبع إلا القليل جداً من أبيانه ، مثل قوله :

ولو كنت قبل تكون جامع شملنا ،، بما تلاحظ فيه أثر التعقيد ، ومثل قوله :
ما كنت أحسب أن أرى بشرا كذا
ليشا ولا درطا يسمى غلما

فكلمة « كذا » ، هنا نازلة مردودة في حكم الذوق الأدبي .

وهذا القليل النادر من الأبيات التي خان فيها ابن هاني طبع الشعر واستواء التأليف وقوة النظم ، لا يكاد يقاس بثذوذ المتنبي في فنه ، ولا بثذوذ غير المتنبي من الشعراء الممتازين .

وجودة ابتداءات القصائد ، وحسن انتهاءاته فيها ، سمة لابن هاني .
في شعره ، حتى ضرب المثل بمطلعه :

فتت لكم ربح الجلود بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر
وقرن بمطلع معلقة امرئ القيس « ففانبك من ذكرى حبيب ومنزل »
في الجودة والجمال ، وابن هاني فوق ذلك مجيد في اقتناسه من أساليب القرآن الكريم ، ومجيد في حسن نخاعه إلى المدح في كثير من قصائده .
ويمتاز أسلوبه بقوة البيان ، وحسن السبك والتأليف ، وقوة الارتباط بين أجزاء البيت الشعرى ، وتلاحم أجزاء القصيدة في شعره ، كما يمتاز بخلوص شعره من سمات التعقيد والغموض مما ، ونشبع في إنتاجه روح الطبع والشاعرية القوية ، وفي أسلوبه كثير من الجمال في صوره البيانية من الاستعارة والتشبيه والمطابقة والمقابلة ، ويشبه الممدوح بهذه الصور الشعرية المجتمعة فيقول :

كبدرد الدجى ، كاشمس ، كالفجر ، كالضحى
كصرف الردى ، كالليث ، كالغيث ، كالبحر
وفي شعره أساليب مختارة كثيرة جيدة ، تسير الطبع ، وتستدعى الإعجاب .

وموضوعات شعره ، كثيرة متنوعة :

فن مدح سياسي يشيد فيه الشاعر بالدولة ومبادئها ورجالاتها وأعمالها وأيامها ، وينفوذها الروحي ومستقبلها الباسم ، مما كان يصدر عن عقيدة قوية ، ولقد امتاز هذا الشعر السياسي ، بكثير من المعاني الخصبية ، كما امتاز بالقوة والروعة وسعة حيال الشاعر فيه وهو في هذا الجانب الفني يضارع المتنبي .

ومن وصف رائع لجيوش الدولة وأساطيلها ، ولأيامها وانتصاراتها ، وللمعارك العظيمة التي خاضتها ، وللخيول التي كانت تفتحهما ، وللأبطال المعلنين الذين كانوا يسرون بالدولة من مجد إلى مجد ، وبكلون هامتها غفارا على غفار . نعم لم يكن ابن هاني وصافا للطبيعة كما كان ابن المعتز وابن خفاجة ، ولم يكن ، صافا للعواطف الإنسانية كما كان المتنبي وأبي العلاء ، إنما كان وصافا مجيدا لحياة النضال السياسي والحربي الذي شغل الدولة والناس في عصره وفي بيئته ، أما أوصاف الشاعر التي لاتصل بهذه الناحية ، فهي كلها من الأوصاف التقليدية التي لاثمت إلى نفس ابن هاني بصلة ، وهو في كثير منها ناب عن الذوق والإجادة ، كما في وصفه لرجل أكل ، وكافي وصفه الراح وبجالاتها وآلات الغناء التي تكون فيها ، فهذه الأوصاف وسواها لاتبلغ شيئا من وصفه الممتع البالغ حدا كبيرا من الجمال والسحر ، عندما كان يصف الجيوش وآلات القتال والمعارك الحربية الضخمة . والشاعر في هذا الباب يضارع أبا الطيب ، فهما في هذه الناحية صنفان . ووصف ابن هاني مفعم بألوان الخيال وصوره التي كان يستعين بها في تصوير المعنى الذي يريد .

والشاعر هجاء ولكنه هجاء ضعيف ، لأن الهجاء بعيد عن نفسيته ، وكان إذا أراد أن يهجو إنسانا صور من يهجو به اتفاق والكيد للدولة ومبادئها

كما فعل مع الوهراني كاتب أمير الزاب ، فهو هجاء سياسي لا غير ، أما الهجاء الفني الذي تراه عند ابن الرومي مثلاً فليس للشاعر فيه نصيب .

ولابن هانئ غزل يبدأ به قصائده ، ولكنه في جملة غزل تقليدي متكلف مألوف المعاني والأساليب ، يكرر فيه ماسبق إليه من : تصوير موقف الوداع وهول الجفاء ، والشكوى والرجاء ، والارق والبكاء ، وبؤس المحب في حبه ، وذكر طيف الخيال من محبوبته الذي يزوره أحياناً ، وتشبيه حبيبته بالمها والظباء والفصون ، وذكر الحاظها وأثر فتكها ، وغيره أهلها عليها ، إلى غير ذلك من المعاني المألوفة التي للشاعر فيها حسن الصوغ ، ونظمها في أسلوب خلاب وعبارات بليغة . وفي الحق أن حياة ابن هانئ كانت تحول بينه وبين الإجابة في النسب شأنه في ذلك شأن المتنبي ، ومع بداوة ابن ابن هانئ في غزله التقليدي ، فقد يرق حتى يأتي بالجديد الساحر ، كما في قصيدته :

امسحوا عن ناظري كحل السهاد

وانفضوا عن مضجعي شوك القناد

أو قصيدته :

قن في مأثم على العشاق ولبسن الحداد في الاحداق

أو قصيدته :

هل من أعقبة عالج يبري أم منهما بقر الحدوج العين ؟

أو قصيدته :

أمن أقمها ذاك السنأ وتأنقه يورقنا لو أن وجدا يورقه

وقد يتفلسف في حبه ، فيذكر الشمل المبدد ، والسعادة الذاغبة ، كما

في قصيدته : هل آجل مما أو مل عاجل ؟ . فليس ابن هانيء من رجال الهوى
العندي . ولا من شعراء الحسن واللذة المترقين ، وإنما هو في غزله مقلد
كثيره من الشعراء المقلدين ، الذين قد يجيدون فيه وقد لا يجيدون .

ولابن هانيء ثلاث قصائد جيدة في الرثاء ، منها مرثيتان في والده
جعفر بن علي أمير الزاب ، ومطلعهما :

صدق الفناء وكذب العمر وجلا الدغيات وبائع النكد
: ألا كل آت قريب المدى وكل حياة إلى منتهى
والمرثية الثالثة رثي بها طفلا صغيرا من أحفاد جعفر بن علي ، ومطلعها :
وهب الدهر نفيسا فاسترد ربما جاد ثميم لحسد

والمرثيات الثلاثة فيها جودة ، وفيها حكمة ، وقد حاول بها ابن هانيء
أن يصل إلى منزلة المتنبي في حكمته الخالدة ، ولكن المتنبي في ذلك ، لا يضارعه
شاعر من الشعراء . والحكمة على أي حال في شعر ابن هانيء قليلة متفرقة ،
وتكثر في مرثيته ، وهي حكم اجتماعية قريبة التناول مستمدة من أثر
التجارب العامة في الحياة :

وقصارى الحديث أن ابن هانيء أجاد في شعره السياسي ، وفي مدحه ،
وفي وصفه الحرى ، وفي غزله وهجائه ، وفي خمرياته ، وهو في حكمته
لا يصل إلى منزلة حكمة أبي الطيب الخالدة وإن كان يرسم لنا صورة كاملة
لفلسفة الحياة العملية التي سبق أن أشرنا إليها فيما مضى من بحوث .

وفي ابن هانيء يقول الفتح بن خاقان م ٥٣٦ هـ في كتابه مطمح الانفس :

له نظم تتمنى الثريا أن تتوج به . ودائع يتحير فيها ويحار ، ويخال
لرقها أنها أسحار ، اعتمد فيها التهذيب والتحرير ، واتبع في أغراضه الفرزدق

وجريرو ، وتشبيهاته خزقي فيها المعتاد (١) .

ويقول فيه المعري م ٤٤٩ هـ في رسالة الغفران : « كان من شعراء
المغرب المجيدين » (٢) :

ويقول ابن خلكان م ٦٨١ هـ : ليس في المغرب من هو في طبخته ،
لا من مقدمهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق ، وهو عندهم
كالمتنبي عند المشارقة ، ثم نوه بنويفته « هل من أعقة عاليج يرين » ، وأخذ
عليه إفراطه في المدح (٣) . ويقتخر الشقندي أديب الأندلس به في مناظرة
أدبية رواها نفح الطيب (٤) .

وأشاد به لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة (٥) . وابن شرف في
مقامته « أعلام الكلام » (٦) .

وجعله ابن الأثير هو وابن دراج الشاعر الأندلسي نظيرين للمتنبي وأبي
تمام (٧) ونوه الحميدي بشعره ، وأخذ عليه فعمقة ألفاظه (٨) ، وذلك رأى
المعري فيه ، وإن حماد ابن خلد كان على فرض توصيه للمتنبي (٩) .

وجعله ابن رشيق من الشعراء الذين يهرون بألفاظهم أكرما يهرون

(١) ٨٢ فطمح الأنفس .

(٢) ١٥٥ رسالة الغفران نشر اليازجي .

(٣) نفح الطيب ابن خلكان .

(٤) ١٤٠ / ٢ المصدر نفسه .

(٥) ١٢ / ٢ الإحاطة . (٦) ص ٢٦ .

(٧) ١٠٣ تسكمة الصلة . (٨) ٤١ جنوة المقتبس .

(٩) ٥ / ٢ ابن خلكان .

بمعانيهم^(١) ونوه به الذهبي في تاريخ الإسلام^(٢) .

ويعجب ابن حجة الحموي في خزنة الأدب^(٣) بقصيدته :

فقت لكم ربح الجلال بعنبر وأهـ دم فلق الصباح المسفر
وراه يافوت أشمر المغاربة ويجعله في المغرب نظير المتني في المشرق^(٤) .
وذكره ابن أبي الحديد في نهج البلاغة ، والعاملي في الكشكول ، وكثير
من مؤرخي الأدب في العصر الحديث

وترجم فان كريم شعره إلى الألمانية ، ورأى فيه قوة بيان وكثرة تمثيلات
وجودة ألفاظ مما يعتبر من خصائص وأوصاف شعره ، وذكره أيضاً
هامر ، وهوارت ، وسواهما من المستشرقين .

وقد عني بشرح ديوانه شرحاً لنويا واسما الدكتور زاهد علي الهندي ،
وطبع هذا الشرح في مطبعة المعارف عام ١٣٥٢ هـ في نحو تسعمائة صفحة ،
قدمها بمقدمة في حياته وتاريخه^(٥) .

وعن ابن هاني كتب المحققون تراجم موجزة في دراساتهم الأدبية .

(١) ٨٠ / ١ المعدة .

(٢) ٨١ .

(٣) راجع باب تجاهل المعارف في الخزنة .

(٤) ٢٢٦ / ٧ وما بعدها معجم الأدباء .

(٥) ومن ديوان ابن هاني نسخة خطية في مجلد بقلم نسخ في ١١٧ ورقة
في مكتبة الأزهر (رقم ٥٠٠ أهاظة - ٧٠٩٦) . راجع فهرس المكتبة
الأزهرية ص ٩٢ ج ٥٥ .

بين المتنبي وابن هاني.

عاش المتنبي (٣٠٤ - ٥٢٥٤) في العصر الذي عاش فيه ابن هاني (٣٢٠ - ٥٢٦٢) ، ولقد كان أبو الطيب شاعرا ، ولكنه أراد أن يكون ملوكا على عرش من العروش ، أو أميرا على ولاية من الولايات فأخفق . أراد أن يترك الشعر إلى السياسة ، فردته الأيام عن السياسة إلى الشعر ، فبرم أبو الطيب بحياته التي لم يدرك فيها آماله وأحلامه ، وعاش ساخطا على الحياة والناس ، داعيا إلى مذاهب وآراء أوحى بها إليه سخطه وغضبه . بعد أن كان يدعو إلى القوة والطموح والتفاؤل ، وظل كذلك حتى خر ضربا مضرجا بالدماء .

ونال أبو الطيب بعد حياته من المجد الأدبي ، ماناله في حياته من جلال الذكر ، وشيوع الشعر ، ففتت الأجيال بذكره ، وعد شاعر العربية في عصره ، بل جعله كثير من القاد شاعر العربية الفذ في شتى عصورها الأدبية ، وأحيط ذكره بهالة من التقدير وجلال الذكر وعظمة الفن ، تشبه الهالة التي يحيط بها الأوربيون ذكر شكسبير وجوته وهو جو وليو باردي وسواهم من شعراء الغرب الخالدين .

ومن الغريب في البحث الأدبي حتما أن نجد بين أبي الطيب وابن هاني وجوها كثيرة من الشبه في الحياة وفي العقيدة وفي الشخصية والشاعرية وفي المنزلة الأدبية العامة .

حياة ابن هاني ، واتصاله بقصور الأمراء والخلافة ، وجهاده العام ، تشبه في ذلك حياة المتنبي ، الفكرة العاطمية التي آمن بها ابن هاني هي نفس الفكرة الاسماعيلية التي كان يؤمن بها أبو الطيب كما يثبت البحث والدراسة .

وابن هاني في طمرحه ، وفي مكانته عند الأمراء والملوك في عصره ، شبيه في ذلك بالمتنبي أبعد حديد الشبه ، وكان ابن هاني شاعر المغرب في عهد المعز ، لا بطاولة في مكانته الأدبية شاعر من الشعراء ، كما كان المتنبي شاعر المشرق لا يطمع في أن يكون له بحايته ذكر لأحد من الشعراء .

وشاعرية الشاعرين تشابه من وجوه كثيرة ، فالمدح وأوصاف الحروب تكاد ان تتعادلان من الناحية الفنية في شعر الشاعرين ، وليكن ابن هاني لا يضارع المتنبي في الحكمة والأمثال وفي الرثاء وفي بعض أغراض الشعر الأخرى ، كما أنه لا يصل إليه في دقة المعاني وعمقها ونضوج الثقافة العقلية في شعره وتنوعها ، وإن جراه في ذلك إلى حد ما .

وروح الشاعرية عند الشاعرين تشابه من وجوه كثيرة ، من حيث قوة الأسلوب وفخارته وجزالته وطبعه ، ومن حيث البعد عن ألوان النرف في الأداء ، والالام بكثير من الغريب ، وتشابه في كثير من السمات الفنية الخاصة التي نراها في شعر الشاعرين وتراثهما وإنتاجهما الفني الخافل .

ويشبه النقاد وعلماء الأدب ابن هاني بالمتنبي ، ويلقبونه بمتنبي المغرب ويعطونه هذا اللقب زعامة الشعراء في المغرب والأندلس في عصرة وبعد عصره ، كما كان المتنبي أمير الشعر في المشرق ، كما أنهم بهذا اللقب يشركونه في كثير من سمات وخصائص شاعرية أبي الطيب المتنبي الخالدة .

ومع ذلك ومع اتحاد عصر الشاعرين ، وتوافقهما في البيئة والمؤثرات العامة وفي كثير من خصائص الشعر وسمات الشاعرية ، مع هذا كله فإن لكل من الشاعرين طابعه الخاص ، وروحه الفنية المستقلة ونزعاته الأدبية المقصورة عليه ، وإن كان ابن هاني أقرب الشعراء إلى المتنبي ، وأشبههم به في مكانته الأدبية العظيمة ، في عصر الشاعرين وبعد عصرهما .

ويكاد المجد السياسي الذي لاقاه ابن هاني في حياته يضارع الشقاء الذي

لاقاه أبو الطيب في عصره ، كما يكاد الذكر الأدبي السائر الذي ناله المتنبي بعد حياته يضارع الخول الأدبي الذي لازم اسم ابن هانيء بعد وفاته إلى العصر الحديث .

وهناك أسطورة أدبية يرويها البديعي في كتابه « الصبح المنبي في حيثة المتنبي » تحدثنا بأن أبا الطيب حين كان في مصر عزم على السير إلى المغرب ، فلقبه ابن هانيء في الطريق ، فأنشده أبو الطيب من شعره ، ثم أنشده ابن هانيء بعض قصائده ، فقفل راجعا إلى مصر ، تاركا المغرب لشاعره ابن هانيء .
وهي أسطورة أدبية تريد أن تذكر رأى المتنبي فيه ، وإشادته بفته وشاعريته ، ولعل ذلك سبب اختلافا .

وعلى أي حال فقد كان ابن هانيء بطبيعة سنه تلميذا أو كاتلبذا لأبي الطيب .
قرأ ديوانه وتأثر به في كثير من معانيه وأساليبه وخيالاته وروحه الشعرية في بعض قصائده ، وحاول أن يقلده في حكمته وتجاربه التي كشف بها النقاب وجه الأيام .

استعار ابن هانيء ديوان المتنبي بعد وفاته - أي بعد عام ٥٢٥ هـ - من أديب ، أساء بعد في طلبه منه ، فنظم ابن هانيء في ذلك قصيدته :

تلبأ المتنبي قيسكم عصرا ولورأى رأيكم في شعره كفرا
مهلا فلا المتنبي بالنبي ولا أعد أمثاله في شعره السورا
تمتم علينا بمراءا وعلمكم لم تدركوا منه لاعتينا ولا أثرا

وابن هانيء في قصيدته هذه يحاول أن يخفف من غلواء المتعصبين ، ثم يحاول أن يشكر فضله فيقول :

ويلدسه شاعرا أخلمتموه ولم نعلم له عندنا قدرا ولا خطرا
ثم يصف جنابة القوم على شعره ، ويتهكم بهم لاذعاً إلى أن يقول :

أرثتموني مثلاً من روايتكم كالأعجمي أنى لا يفصح الخبرا
أصم أعمى والسكى سهرت له حتى رددت إليه السمع والبصرا
كانت معانيه ليلاً فامتعضت له حتى إذا ما بهرن الشمس والقمر
ضجرتم وأنا من ملامتكم ومن معارضكم ما يشبه الضجرا
ولو حرصتم على إحياء مهجته كما حرصتم على ديوانه نشر

ويظهر من هذا أن الديوان الذى كتبه هذا الأديب واستعاره منه ابن هانىء كان كثير التحريف والخطأ ، وأن ابن هانىء صححه وكتب منه نسخة أخرى ، فاختلفت رواية ابن هانىء لشعر المتنبي عن رواية هذا الأديب وأمثاله ، فأكثروا من الضجر .

وقول ابن هانىء « ولو حرصتم على إحياء مهجته » ، أى مهجة المتنبي ، دليل على أن ذلك كان بعد وفاة المتنبي .

وابن هانىء على أى حال فى أول قراءته لديوان المتنبي لم يعرف له - كما يقول - بقدر ولا خطر ، ولكنه بعد ذلك عكف على احتذاء أبى الطيب وتقليده ، لاسيما فى أمثاله وحكمته ، ولذلك كانت الحكمة فى شعر ابن هانىء متأخرة الظهور فى حياته الأدبية ، وفى شعر ابن هانىء قصائد يتجلى فيها روح التأثر بفن المتنبي وشاعريته ، وتشابه شعره فى كثير من الأساليب والمعانى ، مما يطول بنا البحث لو حاولنا تفصيل الحديث فى ذلك كله ، والإلام بشئى نواحيه .

أبو العلاء المهرى

- ١ -

أبو العلاء أحمد بن سليمان بن محمد التنوخى (٢٦٢ - ٤٤٩ هـ : ٩٧٤ - ١٠٥٧ م) من أشهر الشعراء العرب الذى طار ذكرهم وصينهم فى كل جيل وكل مكان .

موطنه معرة النعمان فى الشام ، عاش نحو نصف حياته فى القرن الرابع وبأقيها فى القرن الخامس الهجرى ، نشأ من أسرة لها نصيب كبير من العلم والأدب ، أبوه أديب شاعر . وجده كان قاضياً على المعرة وأمه من أسرة كريمة المحتد .

فقد بصره وهو فى الثالثة من عمره ، وأخذ أبوه فى أوائل نشأته بلقنه أصول علوم الدين والعربية إلى جانب ما كان يتلمهه من علماء المعرة .

ودخل إلى حلب ، وهى مركز من مواطن الأدب والثقافة والعلوم ، فأقام فيها لدراسة علوم اللغة والأدب وأشعار العرب وأخبارهم .

وطاوعته ملكة الشعر ، فأخذ فى نظمها منذ حداثة ، وعاد إلى المعرة وهو فى العشرين من عمره ، وقد توفى أبوه قبل ذلك بخمس سنوات أى عام ٣٧٨ هـ وعاش منذ ٣٨٣ هـ من غلة وقف تبلغ نحو الثلاثين ديناراً فى العام ، ومعة خادمه وأمه ، واشتغل بتدريس الشعر واللغة والأدب ، وأخذت شهرته فى الذبوع ونظم سقط الزند ، وكتب بعض كتبه .

وفى عام ٣٩٨ هـ سافر إلى بغداد وهى موطن الأدب والثقافة والمعارف ، ومنارة العالم الإسلامى فى الحضارة والأزدهار والمدنية والعمران ، وفيها كل الاعلام والشعراء ، وهى ملء سمع العالم الإسلامى وبصره ، وفيها مجالس الأدب والشعر وحلقات العلم ومنتدياته ، لا يفوتها شئ . ، ينشد فيها

الشعراء أشعارهم ، ويعرض فيها كل أديب فنانج أدبه وفكره وقريحته ،
وللشريف الرضى فى بغداد دار هى متتدى للأدباء والشعراء وإليها يتجه كل
الشعراء ، ولقى المعرى فى بغداد أعلام العلماء والأدباء والشعراء .

وكان الشريف (٣٠٩ - ٤٠٦ هـ) آنذاك شيخ الشعراء فى العالم الإسلامى
نكله ، لشرف نسبه ، وعلو منزلته ، وكان اشتغاله بالأدب والشعر واللغة
سبباً فى أن أصبح من كبار شعراء العربية ، ومن أشعر قريش ، حتى فاق
كثيراً من أدباء عصره . وشعراته ، وكان شعره من أمتع الشعر العربى وأجزله
وأجمعه للذاتية والتأمل والوجدان والتجربة الطويلة فى الحياة ، والروعة فى
الشكوى والثناء والفخر والحكمة .

وكان الشريف مولعاً بالتبلى من المتنبى ، شأنه فى ذلك شأن أبى فراس
والصاحب بن عباد ، وسواهما . وأخذ الشريف على عادته يحط من قنء أبى
الطيب ، وهو أعظم شاعر عند أبى العلاء ، فقال المعرى رداً على الشريف :
لو لم يكن للمتنبى إلا قصيدته التى يقول فى أولها :

لك يا منازل فى القلوب منازل أقنرت أنت ومن منك أوائل
اسكنى ذلك فى رفع منزلته فوق كل شاعر . فغضب الشريف أشد
الغضب ، وأمر بطرده من مجلسه ، وبعد أن طرده قال لجلسائه : ألا تدرون
ما يقصد ، فإن هذه القصيدة ليست من عيون فصائد المتنبى ، واسكنها تشتمل
على هذا البيت :

وإذا أنتك مذمتى من تافص فى الشهادة لى بأنى كالم

وهذا ما قصد التبريض به ، ومن أجل ذلك أمرت بطرده . .

لقى المعرى فى بغداد أعلام العلماء والأدباء والشعراء ، وفى عام ٤٠٠ هـ
علم بمرض أمه فعاد مسرعاً إلى المعرفة ، واسكنه القدر ، فقد ماتت أمه ،

وهو لم يبلغ المرة بعد ، وإن كان يسير في الطريق إليها .

وأقام أبو العلاء في بلده ولزم بيته ، وسمى نفسه رهبين المحبين ، وأخذ
ينظم اللزوميات ، ويؤلف المؤلفات التي تحمل روحه وفكره وطامح
ثقافته .

وإذا كان « سقط الزند » يجمع قصائده التي نظمها قبل رحلته إلى
بغداد ، وهي قصائد يسير فيها على سن الشمره قدامى ومداصرين له في النهج
والأسلوب والخيال والفن والأغراض ، فإن اللزوميات يحمل طابع تفكيره
طيلة حياته في المرة بعد عودته من بغداد ، وهي فترة العزلة التي عاشها
وفرضها على نفسه .

وفي الحكمة والتأمل والرثاء والفخر والعتاب والدين والوعظ والوصف .
كان جل أغراض شعر أبي العلاء .

وقصيدته الرثائية المشهورة :

غير يجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي

من القصائد الانسانية الرفيعة الخالدة ، ومن مشهور شعره قصيدته :

علماني يبيض الأمانى فنيث والزمان ليس بفاني

إن تناسيتما وداد أناس فاذكرا في بعض من تذكرا

ومراثيه لأبيه مشهورة ومطلعي :

نعمت الرضا حتى على ضاحك المزن

فلا جاني إلا عبوس من الدجن

وقد اعتزل النار ، وابتعد عن الزواج ، وأوصى أن يكتب على قبره :

هكذا جناه أبي على وما جئت على أحد

وأبو العلاء المعري ٣٦٢-٤٤٩ هـ ٩٧٥-١٠٥٩ م ، من أشهر الشعراء العرب ، ومن أبعدهم صيتا ، وذويوع ذكر : و « رسالة الغفران » له مشهورة ، وهي رحلة تخيلها أبو العلاء في الصراط والجنة والنار : كي يبدى آراءه في مسائل الدين والآداب والنقد واللغة من خلالها .

وتذكرنا « رسالة الغفران » ، رسالة ابن شهيد ، التوايع والزوايع ، ، وبالكوميديا الإلهية لدانتى ، وبالفردوس المفقود للمilton .

و « التوايع والزوايع » ، تشابه « رسالة الغفران » ، للمعري مشابة كبيرة . فالموضوع واحد وهو عرض المشكلات الأدبية والبيانية والفكرية بطريقة قصصية ، والخلاف في جوهر الموضوع إنما يرجع إلى روح الأدبيين الكبيرين : ابن شهيد والمعري ، فابن شهيد يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية ، وأبو العلاء يحرص على عرض المشكلات التي تتعلق بالدين والفكر والفلسفة .. وقد وجه ابن شهيد رسالته إلى أب بكر بن حزم ، ويوجه المعري رسالته إلى ابن القارح على بن منصور الحلبي الأديب الشاعر ٣٥١-٤٣٠ هـ ، الذي كان يمدح الوزير أبا الحسن المغربي وآله ، ثم لما ذهب سلطانهم هجأهم . و « التوايع والزوايع » ، رسالة طريقة وفيها فكاهات حلوة ، وأسلوبها يميل فيه ابن شهيد إلى السجع ، وكان مولعة بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه ، وحريصا على إظهار تفوقه عليهم . ويرجع د . زكي مبارك في كتابه « النثر الفنى » ، أن ابن شهيد قد ألفها ما بين عامي ٤٠٣ هـ و ٤٠٧ هـ ، لقوله فيها : انتضى على لسانه عند المستعين ، والمستعين حكم ما بين عامي ٤٠٢ و ٤٠٧ هـ حين مات مقتولا في العام الأخير ..

وهذا النص لا يدل على ذلك ، فن الجائز أن يكون ابن شهيد قد قال ذلك بعد مقتل المستعين عام ٤٠٧ هـ لافي حياته .. أما رسالة الغفران فيرجح أنها ألقت عام ٤٢٤ هـ لقول المعري فيها : « لا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب في سنة ٤٢٤ هـ اسمه فلان بن فلان » . ويرجح د . زكي مبارك أن رسالة ابن شهيد « توفي عام ٤٢٦ هـ : ١٠٣٥ م » كتبت قبل رسالة المعري بعشرين سنة ، من حيث يرجح أغلب النقاد أن رسالة الغفران هي الأصل الذي احتداه ابن شهيد ، ويعرض ابن شهيد في رسالته صوراً من شعر الشعراء وينقدها ، ويتحدث عن ثقافته بشياطين الشعراء وعما جرى بينهم من مناظرات وحوار أدبي .

على أن الرسالتين ترتكزان في أساسهما على رحلة الاسراء والميراج الروحية . الغفران أشمل وأعمق وأكثر غنى في جوانبها الفنية والقصصية من « التوابع والزوابع » .

وكان ابن القارح قد بعث برسالة إلى أبو العلاء ، فرد عليهم أبو العلاء برسالة الغفران .

ويعلل كامل كيلاني لتسميتهما الغفران بأن الفكرة الرئيسية فيها ، والتي دفعته إلى انشائها ، مناقشة من فازوا بالغفران . ومن حرموها في الدار الآخرة . وكان المعري يكثر فيها من سؤال الذين يلقاهم في الجنة بقوله : « بم غفر لك ؟ كما كان يسأل من سؤال مزيجده في النار : لم لم يغفر لك ؟ قولك » ..

ويبدأ المعري الرسالة بقوله ، يخاطب ابن القارح :

وصلت الرسالة التي بجرها بالحكم مسجود ، ومن قرأها لا شك ما جود . وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة .

وفي قلعة دبتا - جلت عظمتها - أن يحمل كل حرف منها شح نور ، لا يخرج بمقال الزور . ولعل سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من الالم ، معارج من الفضة أو الذهب ، تخرج بها الملائكة من الأرض إلى السماء بدليل الآية : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

ثم يقول : وفي تلك السطور كلم كثير كله عند الباري - تقدر - أثر . وقد غرس لمولاي الشيخ الجليل - إن شاء الله - بذلك الثناء شجر في الجنة لذيذ الاجتهاد . ويصور أبو العلاء ابن القارح وتذكر نجيبا - أي جملا كريما - من نجب الجنة خلق من يا قوت ودر . ويسير به في الجنة على غير منهج . ومعه شيء من طعام الخلود يلتقي بالاعشى ويحاوره ، كما يلتقي بزهير وبعبيد بن الابرس ، وعدى بن يزيد وبأبي ذؤيب الهذلي ، وبالنابتين وبلبيد .

ويلتقي برضوان خازن الجنة ، يرفع صوته ويقول له : يا رضوان ، يا أمين الملك الجبار الأعظم على الفرديس ، ألم تسمع ندائي بك ، واستغاثتي إليكم ، فقال : لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصدك فما الذي تطالبه أيتها المسكين ؟ فيرد عليه : أنا رجل لا صبر لي على العطش وقد استطلت مدة الحساب ، ومعنى صك - أي وثيقة - بالتوبة ، وهي للذنوب كلها ماحية وقد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتها باسمك فقال : وما الأشعار ؟ فقلت : الأشعار جمع شعر ، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أباته الحسن ، وكان أهل العاجلة - الدنيا - يتقربون به إلى الملوك والسادات ، فحنت بشيء منه إليكم لهلك تأذن لي بالدخول ، فقد استطلت ما الناس فيه ، وأنا ضعيف ، ولا ريب أني ممن يرجو المغفرة ، وتصح له بمشيئة الله تعالى ، فقال : إنك أغبين الرأي ، أنا مل أن أذن لك بغير إذن من رب العزة ؟ ههنا .

ويلتقي بحمزة سيد الشهداء ، فيشده مدحا له فيه ، ويستشفع به ،

فيحمله على ابن أخيه علي بن أبي طالب ليخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره .

ويتركه إلى شيخه أبي علي الفارسي . . كل ذلك على لسان ابن القارح علي بن منصور بن طالب الحلبي الذي كتب المعري الرسالة من أجله .

ثم يستشفع فيه آل البيت إلى فاطمة الزهراء ليراح من أهوال الموقف ويصير إلى الجنة فيتمتع بالفوز ، فتأخذه ويقف عند رسول الله ، فيشفع له ، ويؤذن له في الدخول . ويعبر الصراط ، فلما صار إلى باب الجنة وقف حدونه رضوان يطالبه بالجواز ، إذ لا سبيل إلى الدخول إلا به ، وهنا يلتفت إليه إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجذبه جذبة يدخل بها الجنة ، بعد أن أقام في الموقف ستة شهور .

ويحاور حميد بن ثور وليبدا في الجنة وفي الجنة يحضر المآذب ، ويسمع الغناء ، ويلتقي بالشعراء ويسحره جمال الحور ، ويصنع رحلة إلى جنة العفاريث ، فيلتقي بالجن ، ويسمع شعرهم ولنتهم ، ويرى الخطيئة ، والحنساء وينظر إلى الجحيم من أقصى الجنة ، ويطلع فيرى إبليس ، ويشاهد بشارا ، ويتحدث إلى امرئ القيس ، وإلى عنبرة وعالقمة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث اليشكري ، وطرفة بن العبد ، وأوس بن حجر ، والاخلط والمهلل ، والشنفرى وتابط شراً .

ثم يعود إلى محله في الجنة ، فيلقى آدم عليه السلام ، ويستمر به المطاف ليلتقي بمحورية ، ثم بالرجاز : رؤبة والمعراج .

ويفيض في الجزء الأخير من الرسالة في الحديث عن النفاق والزندقة والزنادقة ، وعن الحلاج ومذهب الحلول والتناسخ ، ويجرم الحديث إلى ابن الرومي ، وإلى أبي تمام ، وأبي مسلم الخراساني ، وإلى ابن الراوندي . وسوام .

إن هذه الرسالة التي تحمل فكر المعري ونظرة إلى الحياة ، وآراء كثيرة له في نقد الشعر والشعراء ، لهى من أنفس الذخائر في تراثنا العربى الخالد . . وهذه الرحلة الطريفة إلى العالم الآخر تحمل روحا قصصية عالية تصلح لأن تكون من أرفع النماذج القصصية الأسطورية ، أو الخيالية لوصيغت بأسلوب جديد .

ومن الطريف أن نعرف أن فى دار الكتب المصرية أربع نسخ خطية من الرسالة اثنتان منها فى مكتبة تيمور ، كما توجد نسخة من الرسالة فى مكتبة سوهاج وأخرى فى مكتبة جامعة الاسكندرية .

وقد طبعها مكتبة أمين مندية بالقاهرة عام ١٩٠٣ ، وكتب غائمة لها عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة البيان . ثم نشرتها دار المعارف والمكتبة التجارية بالقاهرة بتحقيق المرحوم كامل كيلانى .

وفى عام ١٩٥٠ نشرت دار المعارف رسالة الغفران بتحقيق الأستاذة عائشة عبد الرحمن ، ثم قدمت دراسة عن الرسالة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٥٣ ، وقد استعانت الدكتوراة بنت الشاطىء بنسخة خطية من مكتبة كوبربلى زاده باستانبول موثقة بالنسب بأبى العلاء برواية تلميذه الخطيب التبريزى .

وكانت الرسالة قد لقيت عناية كبيرة فى دوائر المشرقين ، فنشر نيكلسون عام ١٩٠٢ ملخصا للقسم الثانى منها مترجما فى المجلة الآسيوية الملكية وكان قد حصل على مخطوطة للرسالة كانت فى مكتبة المشرق شكسبير ، وقدم نيكلسون عام ١٩٠٠ وصفا موجزا للمخطوطة وترجمة موجزة للقسم الاول منها مع فقرات كثيرة من الاصل العربى .

وفى عام ١٩١٦ ظهرت فى مدريد باللغة الاسبانية دراسة عن الرسالة

للمستشرق الأسباني المشهور بلاسيوس أكد فيها أن أصولاً إسلامية ، من بينها « رسالة الغفران » ، قد كونت أسس الكوميديا الإلهية ، وقد ترجم بلاسيوس بعض النصوص من الرسالة وقام بين يديها وبين نصوص من كوميديا دانتي .

ورسالة الغفران تعد في مقدمة تراث أبي العلاء ، الذي وصلنا ، وحفظته الأقدار لنا من الضياع ، ويضاف إليها ديوان سقط الزند ، واللزوميات ، وعبت الوليد ، وملقى السبيل الذي نشره حسن حسنى عبد الوهاب في مجلة المقتبس - نسنة السابعة - عن مخطوطة بالاسكوريال .

كما بقي من تراث المعري مجموعة من رسائله نشرها مرجليوث عام ١٨٩٨ وطبعت في أكسفورد .

وكذلك الفصول والغايات ، وقد طبع جزء منه في القاهرة بتحقيق الزناتي . وكذلك رسالة الملائكة التي نشرت في دمشق عن مخطوطة بالظاهرية بتحقيق محمد سليم الجندي .

وبعض الرسائل الصغيرة الأخرى .

والذي فقدناه من تراث المعري كثير ومنه كتاب « الإيك والفصول » الذي زادت أجزاءه على المائة . وغير ذلك .

على أن أدب الرحلات الخيالية إلى العالم الآخر ، وإلى الجنة والنار مدين لرسالة الغفران ولصاحبها أبي العلاء بدين كبير ، فالرسالة في جوهرها وروحها عمل فني كبير وإبداع أدبي لا مثيل له . . ومع أن في رحلة الإسراء والمعراج طرائف روحية رائعة ، فإن أبا العلاء ولا يرب قد احتذاها في « الغفران » وتأثر بها تأثراً كبيراً ، كما تأثر برحلة الموبد الزرادشتي إلى الأعراف والجنة والنار .

وتصور لنا الرسالة - الغفران - عبقرية فكر أبي العلاء تصويراً رائماً
فهذا الحوار الرفيع فيها ، وهذا الخيال الممتع المناقش الكثير التنقل ، وهذا
التصوير الدقيق البارع ، وهذا الفكر الشرود الذي يلتفت إلى الدقائق
في لحظة ووعي تام . . كل ذلك عناصر أصيلة في إبداع حقيق ينفرد به
شيخ المعرة أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان الذي قال من اهتمام الأدباء
والشعراء والنقاد والدارسين والباحثين ما لم ينله شاعر من قبل .

وكم كانت الأحداث والألحاح والخطوب تصعب بأبي العلاء في شتى مراحل
حياته ، مرحلة بعد مرحلة ، وجيلاً بعد جيل ، ووفقاً لوقت .. رحمه الله .

- ٣ -

قد صدرت رسالة الأغريش أو الرسالة الأغريرية وهي من آثار
أبي العلاء الأدبية وتسمى رسالة الحروف ، أيضاً ، وقد طبعت من قبل
عدة طبقات ، وطبعت معها رسالة الوزير المغربي أيضاً في بعض هذه الطبقات
- دون تحقيق على

ومن الرسالة نسخة خطية في الاسكورب - برقم ٤٧٠ وهي مصورة
في معهد المخطوطات العربية برقم ٣٠ في القائمة الخاصة بمصورات
الاسكورب .

ومنها نسخة خطية أخرى بمكتبة كوبر بلي تحت رقم ١٢٧٢ ، ومنها
مصورة بمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٧٥ أدب وعنوانها الرسالة الأغريرية
وتفسيرها لأبي العلاء ، ومعها رسالة الوزير المغربي إلى أبي العلاء كذلك .

وقد نهض الدكتور السعيد عبادة بتحقيق هذه الرسالة تحقيقاً علمياً ،
متقناً في مائتي صفحة ، وكان في ذلك خدمة لثراث أبي العلاء الأدبي .

ورسالة الأغريش يمث بها أبو العلاء من معرة النعمان إلى الوزير المغربي

في القاهرة ، وكان الوزير المغربي قد ألف مختصر الاصلاح المنطق لابن السكيت يعقوب بن اسحاق (المتوفى عام ٢٤٤ هـ) بعنوان « مختصر لإصلاح المنطق » وبث إلى أبي العلاء مع مبعوث خاص نسخة من هذا الكتاب ، فكان رد أبي العلاء وشكره للوزير هما هذه الرسالة النفيسة . ومن مختصر اصلاح المنطق نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٧٦٢٧ أدب .

وفي دار الكتب شرح مخطوط للرسالة الاغريضية بعنوان « النوادر الحكيمية والأدبية في شرح الرسالة الاغريضية » لـ ابراهيم الحيدري البغدادي (١٨٢١ - ١٨٨٢ م) وهو تحت رقم ١٢٧ أدب م .

ومن شرح الرسالة أيضاً أبو عهد الله محمد بن أحمد بن يحيى البكر أهدي وشرحه غير كامل وهو مخطوط في مكتبة عاطف باستامبول برقم ٢٧٧٧ ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية برقم ٦٦٣ أدب ، والقطعة الموجودة هي شرح لنحو نصف الرسالة الاغريضية ، وعنوان هذه المخطوطة « شرح رسالة الحروف » .

وتدعى أبو العلاء رسالته بالآغريضة - وهو طلع التحل - تأكيداً لأهميتها ونفائتها .

ويرجع تاريخ تأليف المعري لهذه الرسالة كما حققه الدكتور السعيد عبادة إلى عام ٢٨٨ هـ من حيث كان يذهب مرجليوث إلى أنها ألقت في وقت لا يتأخر عن عام ٢٩٩ هـ ، وكان يذهب محمد سليم الجندى إلى أنها كانت قد ألقت في تاريخ لا يتجاوز عام ٤٠٠ هـ ، والدكتور طه حسين رأى أنها من أمالي أبي العلاء في عصر الشباب

أما الوزير الذي بعث أبو العلاء إليه بالرسالة فهو الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المغربي ، كان أبوه من خاصة المحدثين ثم الفاطميين وقد درس الوزير في طفولته في معرة النعمان على أستاذه شقيق أبي العلاء المعري

وهو أبو المجد محمد بن عبد الله المولود عام ٢٥٥ هـ قبل أبي العلاء بثمان سنوات ، ولأبي العلاء أخ آخر هو أبو الهيثم عبد الواحد . وفي المعرة اتصل المغربي بأبي العلاء اتصالاً وثيقاً ، وصار من جملة اخوانه والمقربين لديه وبخاصة أن المغربي كان قريباً في السن من أبي العلاء فقد ولد بعد أبي العلاء بسبع سنوات ، أي عام ٢٧٠ هـ ، وعاش ثمانياً وأربعين سنة حتى توفي عام ٤١٨ هـ ، وكان أدبياً شاعراً ، وله تأليف كثيرة ، منها كتاب له في السياسة مخطوط بدار الكتب المصرية (٧٧ مجاميع م) .

ورسالة أبي العلاء المنسوخ ، وجهها أبو العلاء إلى هذا الوزير أيضاً ، وقد أملاها أبو العلاء قبل رسالة الأغريص .

ولما ألّف الوزير كتابه « مختصر اصلاح المنطق » بعث به مع رسول إلى أبي العلاء بعد أن قرأه وراجعوه على استاذة أبي المجد ، والمغربي في سن السابعة عشرة أو نحوها . وفرح أبو العلاء بالكتاب المهدى إليه فرحاً شديداً وكان شكره لهذه الهدية وردّه على الوزير صاحب الهدية هو هذه الرسالة البليغة التي حفظها لنا التاريخ الأدبي ، وذكرها القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » في الجزء الرابع عشر منه .

وقد وثق الدكتور نص الرسالة توثيقاً عليماً جاداً ، وراجع نصها مراجعة دقيقة ، وأشار في هوامشه الطويلة إلى اختلافات النسخ ، وخرج ما تضمنته النص من شواهد شرعية وأحاديث نبوية وحكم مأثورة ، معرفاً بالأعلام الذين ورد ذكرهم في المخطوط من شعراء وغيرهم ، مفسراً ما لا غنى عن تفسيره في النص ، نص الرسالة ، ونص تفسيرها أيضاً ، وهو بقلم أبي العلاء نفسه .

وكتب مقدمة لهذا التحقيق ، وأتبع الرسالة وتفسيرها برسالة الوزير المغربي ، وشرح نصها وخرج شواهد ما في هوامشه الطويلة الجامعة الوثيقة .

وموضوع «رسالة الاغريض» هو شكر الوزير المغربي، والتنويه
بفضله وفضل أسرته وتقريظ كتابه «مختصر اصلاح المنطق»
والاشادة به .

وأبو العلا. في رسالته يكتب بأسلوبه الرمزي المغاف بضباب كثيف
من تعافاته اللغوية والأدبية والعلمية الواسعة ومن حسن الحظ أن أبا العلا
نفسه فسر بعض ألفاظ رسالته في شرح موجز جدا، أثبتته الدكتور المحقق
مع الرسالة في صلب الكتاب، وحققه وعلق عليه .

ويقول أبو العلا في رسالته للوزير : «إن كاتبت فلا ملتمس إلى جواب،
وأن أسهبت في الشكر فلا طالب ثواب . حسى مالى من أياديه ، أدام الله
لها القدرة - وفي تعليقات الدكتور المحقق على كلمة « غمر » ، يثبت أنها
وردت في (س) أى في نسخة الاغريض المحفوظة في الاسكوديال والمصورة
في معهد المخطوطات العربية : غمرنى .

ويقول أبو العلا بعد ذلك : وسلم سيدانا أعز الله نصرهما ، ومن أحباه
وقراه ، فقد افقتت في نعمهما الرائعة كافتنان الدائرة الرابعة ، وهى من
دوائر الخليل بن أحمد في العروض وقد استخرج منها نسخة أوزان أربحود:
سنة مستعملة ، وثلاثة مهمة ، والمستعملة في هذه الدائرة هى كما يذكره
الدكتور السعيد عبادة : السريع - المنسرح - الخفيف - المضارع -
المقتضب - المجتث .

ويقول المعرى للوزير في الرسالة : وسيدنا -- أطال الله بقاءه - القائل
الغظم و الذكاء مثل الزهر . وفى النقاء مثل الجوهر : تحسب بادرته التاج ،
ارتفع عن الحجاج ، أى عن الجبهة والحجاج يوزن كتاب هو عظم الحاجب
كما فسرهُ أبو العلا .

ويوازن أبو العلاء في رسالته بين عمل ابن السكيت وعمل الوزير المغربي ثم يقول : كان الكتاب تبرأ في تراب معدن ، فاستخرجه سيدنا واستوشاه وصقله فسكبه ، ووشاه ، فغبطته النيرات على الترقيش ، (أى النقش والزين) .

ثم يقول : وإن عبده موسى ليقينى نقابا (أى فجأة) : فقال : هلم كتاباً ، يكون لك شرفاً وعموالا نك في حضرة سيدنا - أطال الله بقاءه - معترفاً .

ويستطرد أبو العلاء في الرسالة إلى وصف حياته الأدبية والمادية ، ويشير إلى رسول آخر ورد له من الوزير وهو د عبده الزهرى . . ويذكر أبو العلاء للوزير سوء حاله فلم يجد إلا الحنظل وأن لى بلغتين : بلغة صبر ، وبلغة وفر . . ويستند للمغربي من عدم كتابته إلى والد الوزير . اكتفاء بالكتابة إلى ابنه ، وتقرباً به إلى أبيه .

وبذلك تنتهى رسالة الأغريغنى التى يقول فى مطالعها للوزير : إني وإن غدوت فى زمان كثير اللدد (أى الهزل) كماء العدد ، لزمت المذكر ، فأنت بالمشكر ، يذكرنى لغير الثناء ، ويطرحنى عند الاستغناء .

والرسالة وثيقة تاريخية جلية عن أبى العلاء وهاملاته نفسه ، وتفسيرها هاملاء أبى العلاء ، يشرح كثيراً من القموص الذى صاغها أبو العلاء ولفها فيه ،

أما رسالة الوزير المغربي إلى أبو العلاء وأخيه الذى هو أستاذه ، فهى وثيقة من وثائق أدب المغربي ، ويبدو أن الشعر الكثير الذى ورد فى تمناعيها . كله أو جله من شعر الوزير نفسه وفيها ثناء على أبى العلاء وأخيه أبى المجد وتصوير للحياة المغربى نفسه تصويراً صادقاً . ولتقرأ فيها للوزير نفسه

يقول : « وأما حالى وما أنا عليه ، فحملتها أنى أمسى وأصبح فى غل التدبير .
وأروح وأعدو فى سجن المقادير ، هدماً لسهام الليالى والآلام . وغرضنا
لأسنة الأحوال والأعوام ، أجد مالا أريد ، وأريد مالا أجد .

وقد طبعت هذه الرسالة وتفسيرها لأبى العلاء فى مائتى صفحة بمطبعة
التقدم بالمنيرة بالقاهرة عام ١٩٧٨ ، ومعها رسالة الوزير المغربى إلى أبى العلاء ،
وكلها بتحقيق د . السعيد عبادة ،

وللمعربى كتاب « ضوء السقط » ، ويعمل د . السعيد عبادة فى تحقيقه
تمهيداً لنشره فى اتقريب بإذن الله .

خاتمة الكتاب

حمد الله وشكراً :

هذه هي خاتمة هذا الكتاب ، الفكر النقدي والأدبي في القرن الرابع الهجري . .

وهو كتاب يؤرخ للفكر النقدي والأدبي في هذا القرن ممثلاً في أعلامه ورواده تأريخاً موثقاً يكشف عن حركات التجديد والنهضة في هذا القرن ، ويتحدث عن التيارات والمذاهب والمدارس الأدبية في تفصيل وتبيان للخصائص والسمات ، وللمميزات التي تحدد مسار الأدب في هذا القرن .

ولا أجد ما أقوله إلا أن أحيل القارئ على فصول هذا الكتاب يقرأها ، ويكشف بنفسه عن الجهد المبذول فيه .

والله ولي التوفيق ، عليه أتوكل ، وبه أستعين ، وهو نعم المولى ونعم النصير . وما توفيقي إلا بالله . . .

المؤلف

فهرس الكتاب

الموضوع	حص
تصدير	٧
١٧ - ١٠٤ القسم الأول:	
الفكر النقدي في القرن الرابع	
مشكلات النقد في القرن الرابع	١٩
عمود الشعر العربي	٢٦
من أجل نظرية جديدة في النقد	٢٣
عيار الشعر لابن طباطبا	٤٠
نقد الشعر لقدامة	٥١
منهج الأمدى في النقد	٦٥
القاضى الجرجاني وراثه في النقد	٨٠
إعجاز القرآن للباقلانى	٨٩
أبو هلال العسكري وكتابه الصناعتين	٩٧
١٠٥ - ٢٢٣ القسم الثانى:	
الفكر الأدبى في القرن الرابع	
تمهيد	١٠٧
أبو الطيب المتنبى	١٢١

بين صاحب والمتنبي	١٧٧
الصاحب بن عباد الوزير الأديب	١٨٣
أبو حيان التوحيدى	١٩١
ابن مسكويه	٢٠٣
أبودلف	٢١٠
متنبي المغرب	٢٦٩
أبو العلاء المعرى	٢١٨



Bibliotheca Alexandrina



0354962